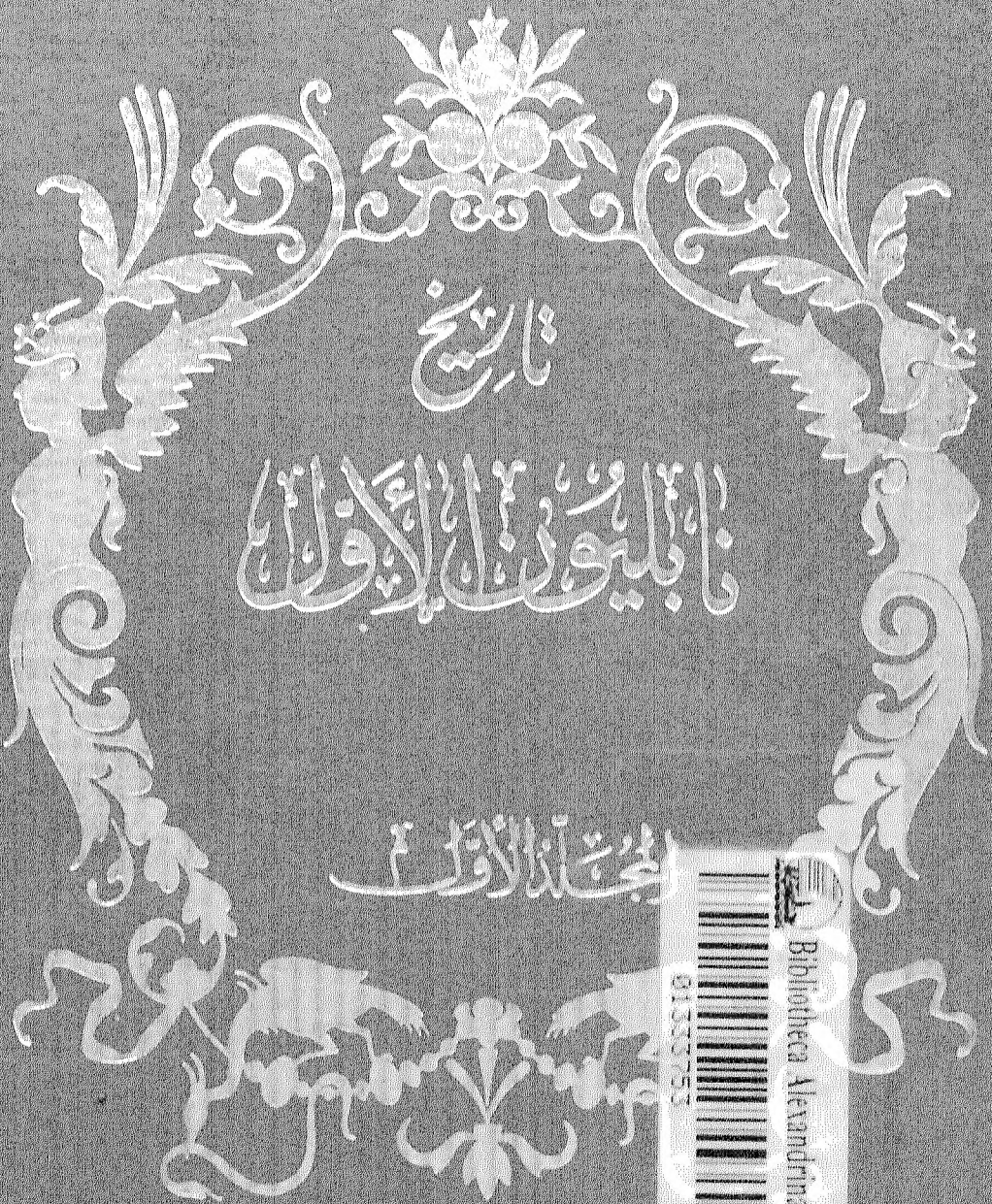


الياس طنوس كحوليك
اللبناني



دار ومكتبة الهلال
بيروت

تاریخ
نابولئون الأول

تاريخ نابوليون الأول

وهو يبحث في مولد نابوليون وحدثاته . وارتقائه في سلم المناصب العسكرية . وقبضه على ازمة الاحكام
في فرنسا . وارتقائه الى عرش الامبراطورية التي انشأها . وذكر المعارك المشهورة التي خاضها فيها
وبين الامم الكبارة والاصلاحات الخفية التي باشرها في بلاده . ثم ما كان من تغيير
الدهر عليه . وانده عاره امام ادوربا التابعة لعلينته . واستسلامه الى اعدائه الانجليز
وارتداهم اليه الى جزيرة القديسة هيلانة في المحيط الاطلسيكي حيث قضى
بعد سنة احوام . قضى احوام في غيم مبرج واراض باهكة
ومن هذا الكتاب مقسوم الى ثلاثة اجزاء : الاول تغصن ما كان
من امر نابوليون من مولده الى آخر التفصيلة . والثاني في يدور على
عهد الامبراطورية . والثالث يبحث في ما وقع له بعد
سقوطه عن العرش حتى وفاته . وما كان بعد
ذلك من نفس رفاة .



المؤلف
General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Alexandria, Egypt

اليانيس طوش الحويك

المجلد الاول

منشورات

دار ومكتبة الهلال

ص ٥٠٣ - ١٥

جميع الحقوق محفوظة
١٩٨١

كلمة المؤلف

لما كنت في المدرسة أحصل العلم قرأت التاريخ على أستاذ فاضل شهير مشهود له بسعة المعارف التاريخية . ولا يخفى أن التلميذ في المدرسة يعنى بنوع خاص بالفرع الذي يشعر بأن أستاذه بارع فيه وميال اليه وتسكون غايته من ذلك في غالب الاحيان إرضاء أستاذه واستمالته اليه وكيف كان الامر فان ذلك لا يخلو من فائدة تعود عليه بالحظ الجليل من المنعم

وفي أثناء الدراسة وتهيئة مواد الامتحان النهائي درست درسا دقيقة تاريخ الثورة الفرنسية الكبرى وما أحدثته من التحول في الهيئته الاجتماعية الحديثة وأسهمت في التنقيب عن مساوئها وفوائدها ثم قرأت تاريخ نابوليون بونابرت وما أجراه في بلاده وما أداه لها من الخدم الخطيرة باستغلاله الثورة التي قلبت بلاده ظهراً لبطن ورأساً على عقب فأكبرت في نابوليون دهاءه العظيم الذي كان له أكر نصير على إخماد دائرة الثورة وتشيد هيئته الاجتماعية الجديدة في بلاده على أنقاض الهيئته الاجتماعية القديمة البالية التي كانت قائمة على قواعد الاستبداد والظلمين منهم، معاول المصلحين الذين لم يبق لهم في قوس صبرهم على تحمل الجور والفساد

وكانت مبادئ الثورة الفرنسية بمثابة نواة زرعت في الافئدة فأفرخت ونمت وامتدت غصونها الى كل الجهات ويمكن القول بلا مجازفة وبغير تحذرة لومة لأنهم أن الثورة الفرنسية تعد عملاً من أعظم الاعمال المجيدة التي أنماها البشر وحسبها أن يكون من فوائدها اعلان حقوق الانسان بحيث صار لكل فرد يعلم أنه مجبول من الطبيعة نفسها المجبول منها غيره . ولم يبق احترام الانسان مستنداً الى شرف أصله ونسبه فحسب بل أصبحت قيمته مقيسة على قدر ذمته وصداقه على قدر مروءته وشجاعته على قدر أنفه وعفته على قدر ذيرته كما قال الامام علي ابن أبي طالب . وكان لنا نابوليون الفضل الأكبر في تسييرها مفيدة فنذب منها ما كان منطوقاً وعدل ما كان متجاوزاً الحد تعديلاً مقبولاً

بالسداد والعدالة . ومعلوم أن الصعوبة ليست في الهدم بل في التشييد على أنقاض المهدم .

ونبسط للقراء مقابلة بسيطة تقرب الى أفهامهم تأثير مضار الثورات وفوائدها فقد أطلقت الثورة من عقلاها في روسيا من نحو عشر سنوات ولكن كانت هذه الثورة متوقعة من عهد بعيد ولا يستغرب حدوث ذلك الذين يعرفون ما كانت عليه الدولة الروسية من الفساد والاضطراب من جراء استبداد الحكام الذين لم يكن من همهم إلا إرواء غليل مطامعهم من دم الشعب المسكين . وكل يدري أنه اذا طمّح السكيل فاض على جوانبه ومتى استشرى ظلم الحكام وأخرج الموم أخرجهم عن حد التؤدة والاعتدال حينئذ يشبه هذا الشعب بنهر يفيض ويجرف كل ما يعثر عليه في مجراه ، وتتركب في الثورات مظالم ومساوئ تفوق مظالم ومساوئ ولاية الامور المستبدين وكثيراً ما يفتنم العيادون الفرصة من الفوضى التي تصحب الثورة وتلازمها ويأتون أعمالاً فظيمة تتبرأ منها الانسانية . وقلماً حدثت ثورة ولم يكن موقد نارها من ضحاياها . وتكون البلاد ميمونة الطالع اذا ظهر فيها داهية ك نابوليون يتحدى المهاج القويم المؤدي الى ترميم ما تداعى من صرح الهيئة الاجتماعية وتشيعده على أساس متين وتزينه بالنقوش والزخارف بحسب مقتضيات الحاجة والذوق والفن . والذي نراه حتى الآن هو أنه لم يظهر في روسيا فرد أوتي من المقدرة العقلية ما أوتي نابوليون الكبير ليأسوكلوم هذه البلاد المنكوبة .

وفي تدبر تاريخ نابوليون اعتبارات قيمة تدل من الجهة الواحدة على عظمة الانسان ومن الجهة الاخرى على ضعفه ، وهو درس جليل لبني الطينة ومحرك لهم البشر وباعث لهم على أن يسندوا جهودهم بلا تبرم ولا ملالة للانتهاء الى الهدف الاسمي ، وهو أيضاً عبرة لاصحاب المقامات العالية ليسجوا على منواله في الاعمال المحموده ويتجنبوا ما ارتكبه من الهفوات السياسية والاجتماعية مما جره الى السقوط وفقدان العرش ، والنفي الى جزيرة بعيدة صماء في المحيط الاطلسي فقضى فيها كمدأ وحسرة .

ولما قرأت بامعان تاريخ هذا العاهل العظيم ووعيته في ذهني صحت عزيمتي على نقله الى اللغة العربية فكاشفت بعض كبار الحكومة في متصرفية لبنان في

ما عقدت عليه عروة العزم وكان ذلك في عهد الاستبداد التركي والتشديد في المراقبة على المطبوعات فقالوا لي أن فكرتك حسنة ولكن لا يسهل إبرازها الى العمل ففي تاريخ نابوليون فصل مهم عن الحملة الفرنسية في مصر فالمرقبة تمنع نشر مثل هذه الاخبار واذا حذفت هذا الفصل من التاريخ كان تاريخك مبتوراً مشوهاً فاقنعت بكلامهم وعدلت عما كنت قد صممت عليه

ولما حدث الانقلاب في تركيا وأعلن الدستور العثماني انطلقت الاقلام المستحكمة والالسنه المعقولة فعدت الى فكرتي القديمة وكتبت ما أمكنني. أن أكتبه من تاريخ نابوليون وابتدأت بذئير المجلد الاول منه ولكن ما عمت الحرب العالمية الكبرى أن أعلنت فاضطرت الى الوقوف عن إتمام طبع المجلدين الثاني والثالث من التاريخ

ولما وضعت الحرب أوزارها وعادت مياه السكينة الى مجاريها جعلت أفكر في استئناف طبع ما بقي من التاريخ غير مطبوع ولكن طرأت حوادث سياسية في سورية ولبنان حالت دون ذلك. ولست في مقام بسط هذه الحوادث إلا أني أقول انها قد دفنت في الى جزيرة كورسيكا موطن نابوليون الاصلي فقضيت فيها ثمانية أشهر منها ستة في مدينة اجاكسيو مسقط رأس هذا الرجل العظيم ، وحدث أنه في أثناء مقامي في اجاكسيو في سنة ١٩٢١ احتفل بانقضاء مئة سنة على وفاة الامبراطور العظيم فأرسل المارشال فرانشه دسبره من باريس لرأس الحفلات في اجاكسيو وقد شهدت جميع هذه الحملات وسيجيء وصفها في حينها .

ونسئ لي في هذه التي قضيتها في اجاكسيو ان أقف على حوادث كثيرة تتعلق بنابليون وأسرتة فدونتها وأضفتها الى تاريخي ووفقت ايضاً الى جمع عشرات من الوثائق القيمة المكتوبة عن حياة عاهل فرنسا الاكبر فاستخلصت منها اشياء كثيرة خطيرة ضممتها الى التاريخ ايضاً . وبعد ذلك توجهت الى باريس حيث قضيت ست سنوات لم اكن في خلالها أفتاً عن التتقيب عما تهمني معرفته من تاريخ العاهل نابوليون فشاهدت آثاره الخالده في فنتيلو والماليزون وفرسايل وباريس واطلعت على ما تمكنت من الاطلاع عليه مما كانت قد فاتتني معرفته .

— ٦ —

وعزمت أيضاً بعد الفراغ من طبع تاريخ نابوليون الاول ونشر ما وفقت
الى جمعه من آثاره العظيمة أن أنشر ما جمعت من أخبار ابن أخيه الامبراطور
نابوليون الثالث وكل آت قريب •

هذا أهم ما ينطوي عليه التاريخ الذي باشرت طبعه بعد الاتسكال عليه تعالى
وإني أجعله هدية الى نصراء الادب مؤملاً أنه سيروقهم وراجياً من أخلاقهم
الكريمة أن يفضوا الطرف عما يعثرون فيه من الخطأ
مصر
الياس طنوس الحويك



أسرة بونابرت

من اليمين من اعلى الى اسفل : الامبراطورة جوزفين . اوجين بوهارنه .
اليزا بونابرت دوقة لوك . يوسف بونابرت والملكة هورتنس .
في الوسط من اعلى الى اسفل : نابوليون بونابرت . لاتيسيا راموليتو . لوسيان
بونابرت . جيروم بونابرت .
من اليسار من اعلى الى اسفل : الامبراطوه ماري لويز . دوق رشتادت .
بولين بونابرت اميرة بورغيزي . لويس بونابرت وكارولين بونابرت ملكة نابولي .

تقديم

لم يكن نابوليون الكبير في عنفوان مجده وشرخ عظمته يلقى سوى المعجبين به ، والمتملقين له . ولم يسبق لاحد قبله أن يستثير بهاء دهائه ما استثاره بهاء دهاء نابوليون من الحماسة في الصدور ، أو أن تقتضي سلطة البشر ما اقتضته سلطة نابوليون من الخضوع والاحترام . فكانه سحر العقول واسترق القلوب . فالشعب الذي شاهد خارجاً من بين ظهرائه ذلك المعبود الذي تزاحم أصحاب المجد الثالث وذوو المجد الطريف على احراق بخور العبودية عند قدميه ، أصاب قسطه من الاكرام المؤدى لارادته ونهيته المتجسمتين على شكل نخم وقد خلف ذلك التبجيل العام آثاراً خالدة في صحيفة « المونيطور » سهيل سنة ١٨١٤ استخرجها منه وتأليف مجموعة سميت « تأبين جماعة من رجال العلم لبونايرت ألقى في اللكسمبور وقصر البوريون والقصر الملكي والتويلري » وقد كانت تلك المجموعة مرصعة بفقرات بليغة مأخوذة من طائفة من الخطب المنظمة بمجد ذلك البطل المشرع ، والمدبجة بأقلام فريق من رجال الحكومة والعلم والادب والقانون والدين

.....

انقضت أيام الحماسة والاعجاب ، وجاف النصر جيش الفرنسيين ، وسلك الجميع مسلك النصر ما عدا الشعب الذي لم يكن ينظر في نابوليون على العرش ونابوليون في المنفى سوى شخص واحد ، أي كلمة المساواة ورسول الثورة الفرنسية الكبرى في أوروبا

فهل عادت أيام الشؤم تلك التي ظل فيها الشعب وحده مقبلاً على الامانة في عبادة معبوده حين حلت على فرنسا ضربتان مؤلمتان ، غزوة جيوش الحلفاء من الخارج ، واعادة الملوك الى العرش في الداخل ؟ وهل قضى على الفرنسيين أن يظلوا يسمعون الناس يسمون شهيد القديسة هيلانة غول كورسيكا ، وبقايا جيوش الجمهورية والامبراطورية البسل لصوص اللوار ، بعد الفتنتين الكبيرتين اللتين تسمرت موافقهما سنة ١٨٣٠ وسنة ١٨٤٨ ، والمهرجان الوطني العظيم

الذي أقيم سنة ١٨٤٠ ؟ وربما توهم بعضهم صحة ما جاء في بعض الخطب وبعض الكتابات في هذا الصدد ، ولكنني أكتفي في الرد عليهم ، وبيان بطلان مزاعمهم ، وتفسيره آراءهم بإيراد السطور الاثنية التي نسجت برمتها براعة دي شاتوبريان الكاتب الفرنسي المشهور بعد أن أسهب في اظهار استيائه من نابوليون :

« كلمات فارغة ! أنا شاعر أكثر مما يشمر غيري بخلوها من المعنى العالم لبونابرت ، فما لم يتسن للمخرب افتتاحه اختلسته شهرته . ففي حياته لم يتمكن من احراز العالم بجملمته ، وبعد وفاته أصابه برمته . لقد رفعت أصواتكم على غير جدارتي ، ولكن ستمر الاجيال من دون أن تعبركم آذاناً سمعية فالحمدي والوطني والجمهوري والملكي والغني والفقير يتهافتون جميعهم على وضع تماثيل نابوليون وصوره في منازلهم وقصورهم وأكواخهم ، وقد اتفق المغلوبون مع الغالبين على اكرام هذا الداهية ، فلا يخطو المرء خطوة واحدة في ايطاليا الا ويشاهد آثاراً ناطقة بعظمته ، ولا بلج الانسان ألمانيا الا ويعثر فيها على ذكره ، فالجيل الذي ناواه في هذه البلاد قد انطوى وأصبح أثراً بعد عين ، وقد جرت العادة ان العصور تقف أمام صورة رجل عظيم وتكلمها بعمل طويل متعاقب ، الا أن الجنس البشري لم يشأ الا انتظار هذه المرة ، ويرجح انه عجل في عمل هذه الصورة ، ولم يكن بد والحالة هذه من عرض القسم المنجز من صورة هذا المعبود على جميع الانظار

« ليس بونابرت عظيماً بكلامه وخطبه وكتابات ومحبه للحرية التي لم تكن فيه قط ولم يسع قط لتوطيد أركانها ، ولكنه عظيم لانشاءه حكومة منظمة شديدة البأس ، ومجموعة قوانين يجرون بموجبها في بلدان عديدة ، ومحاكم عدلية ، ومدارس ، وادارة قوية ونشيطة ومتنوعة لا يزال الفرنسيون حتى يومنا هذا سائرين عليها ، وهو عظيم لانه بعث ايطاليا من موت المحول ، وأنارها بشكاة الرقي والعمران ، وأدار شؤونها ادارة مقرونة بالحكمة والسداد ، وهو عظيم لانه جعل النظام في فرنسا ينشأ من العدم ، ورم المذابح ، وجعل أنصار ثورة الشعب وأحلاف التهيج ، والعلماء المتعجرفين ، والادباء القوضيين والجاحدين الفلتارين ، وخطباء الشوارع ، والقتلة في السجون والسبل ، والأثريين

الذين يعلمون المنابر ويتصدرون المجالس والمنتديات ، يسلسون قيادهم له ويأتمرون بأوامره . . . وهو عظيم لانه ابن نفسه ولانه عرف وليس له من هاد سوى دهائه كيف يجعل ستة وثلاثين مليوناً من البشر يطيعونه في عصر لم تبق فيه العروش مكتنفة بالاوهام ، وهو عظيم لانه قهر جميع الملوك المعاكسين له ، وكسر جميع الجيوش على اختلاف تدريبها وبسالتها ، وجعل الشعوب المتسكعة في ظلمات الهمجية تعرف اسمه كما تعرفه الشعوب الراضة في رياض المدنية ، وقد فاق جميع الفاتحين الذين تقدموه ، وملاً عشر سنوات أعمالاً عجيبية يتعذر على الانسان فهمها الآن »

فعلى هذه الصورة نرى هذا الخضم النبيل الاخلاق الشديد الحق ، الذي بالغ في خدمة الاجانب الناقين ، واندفع بكل قوته مع الفرنسيين الخائنين حين قلبت الاقدار ظهر المجن لنابوليون ، ينحني في نوبته أمام عظمة ذلك المعبود الذي بذل قصارى المجهود على غير جدوى لتحطيمه وتعفيه رسومه ، وعلى هذه الصورة أيضاً نفهم دي شاتوبريان جميع المنتحلين الضميفي الرأي الذين يعالجون معارضة الصوت العام المتقل صداه من جيل الى جيل للاطناب بعظمة نابوليون بوناپرت ومجده .

ولعمري الحق ان الكلام الذي فاه به دي شاتوبريان لتفنيد أقوال الذين يتعمدون الغرض من كرامة نابوليون والخفض من مكانته كان له صدى بعيد عند مشاهير رجال القرن التاسع عشر كاللورد بيرون ولامنه ولامارتين وهنري هيبي وبلزاق وفكتور هوغو ودي فينييه ولويس بلان وارمان كارل وبرانجه وتيارس القائل عن نابوليون انه أعظم جميع البشر ، وغيزو عدو نابوليون السياسي اللدود فانه قال : « ان عصر نابوليون كان محتاجاً اليه أكثر من سواء بين الرجال العظام أمثاله إذ أنه لم يتيسر لأحد من الناس الا لنابوليون أن يجعل النظام يخلف الفوضى بمثل تينك السرعة والعظمة . »

ولم تنوخ في الكتاب الذي أزمعنا نشره القول بأن دهاء هذا الرجل العظيم لم يساوره الخطأ ولم يتمرس به الضعف ، أو الزعم بأنه في وضعه الانظمة السياسية والاجتماعية لم يجنح عن المنهاج الواسع المرسوم سنة ١٧٨٩ للحرية والمساواة ، أو الدعوى بأنه لم يدع الضعف البشري يمد اليه يداً ويبلغ منه ، بل

نحرينا أن نكشف للعلاء طراً هفوات هذا الجندي الباسل والمشتزع الفاضل
المتجسمة به الثورة ، كلما آلسنا منه ميلاً لتعزز أوهام طريقة الحكم القديمة
والتساهل مع مريديها وأشياءها بمنحه أيام امتيازات كانت يحسن به أن
يضمن بها عليهم

وإذا كان من حقوق المؤرخ وواجباته أن يبدي العنف في إصداره الأحكام
على عظماء الأرض ، فلا بد من أن يكون هذا العنف محصوراً وراء حدود النزاهة
وبدلاً من أن يستهوي المؤرخ نكران الخير الذي يعثر عليه إلى جانب الشر
ويحقر الصفات والأعمال التي لا مشاحة في التنويه بعظمتها يجب عليه أن يتشبهت
بأظهار ما يكون من التأثير الحسن محفوظ الشعوب ويجري التمدن العام

وقد عقدنا عروة العزم على استمداد الألهام من هذه العدالة المنزهة حين
عهدنا إلى كتابة تاريخ ذاك الداهية الذي يدعوه رجل الشعب والكلمة المجيدة
الثورة الفرنسية الكبرى . وتتحرى المحافظة على هذه الصفة ولا سيما في هذه
الأيام المظلمة القفرة الوهمية المحاط بها اسم ذاك الرجل ، والمنتمشة دائماً باقتراع
الشعب المعتبر وحده صاحب الأمر والهي الخلد ، والمنني تدبرها على الحكمة
مع اتساع الحرية العامة وتحسن أحوال الهيئة الاجتماعية كأفضل واق لفرنسا
الجديدة من تجديد الثورات وعودة انفجارات براكين الفوضى التي يؤدي ولا
محالة حكمها الوقي إلى إعادة حكم الأفراد مما يكون من ورائه مضررة لعظمة
الامة والدعوقراطية الاوربية

المقدمة

قال منتسكيو الفيلسوف . ان الاحوال لا توجد الرجال ، وكلما كان العالم في حاجة ماسة لفكر جديد يحفظ كيان الانظمة والممالك النافذة حيويتها والمنقضية آجالها لثلا تزول مع الاعتقادات ، ظهر أشخاص ممتازون اعتبرهم الناس آلهة وأنبياء وحكام بحسب الازمنة وبحسب عمق دعاتهم أو سموه ، ونبع منسكروون متفردون تتمخض عقولهم بفكرة الابداع في الانفراد وسر الالهام ، ونشأ فلاسفة يعلمون هذه الفكرة في المدارس ، ومنتصرون للشعب يذيعونها في الامكنة العامة ، ومشترعون يسمونها بسمة السياسة ، وفاتحون يوسعون دائرة امتدادها وسطوتها

أجل انه حتى هذا العصر لم يكن لاجل مشاركة عمل التمدن العام الذي كثيراً ما يكون غير ارادي سوى عظماء القواد المتقدمين والمتأخرين الذين نالوا لاجله تعجب معاصريهم والاجيال الآتية بعدهم فالتاريخ يذكر بشكل جلي عدد الانتصارات الباهرة ، وفن الغلبة في الحروب ، وعلم الانسحاب ، والفضل بتذليل المضاعب واقتحام المخاطر ، والبعثات العظيمة والفتوح الواسعة ، وكل ما يرفع العقل وينيل الشهرة الحربية ، وما يبهز أبصار الشعوب في حياة الاشخاص الذين يقتلون سواهم بتدمير الممالك أو انشائها بقوة السلاح . فكم من الكتاب لم يذكر كوا ما لتبسطهم في القتال من القيمة الفلسفية ، ولم يعتبرهم سوى مخربين عنانهم ، فتظاهروا بالآراء الغريبة ولم يبالوا بأوهام المدرسين ، وعالجوا قلب قواعدهم بما يلهيهم وصفع سلطة المصور . فروسو الشاعر الخفيف الروح أبى أن يعجب في الاسكندر بالاشياء نفسها التي كان يستعظمها في اتيلا ، وبوالو المسرف في الاطياب بمدح لويس الرابع عشر لم يشأ أن يعتبر تلميذ أرسطو وقاهر دارا سوى معتوه أحرق آسيا ودمرها

وهذا الجحد المطلق مهما سما المصدر الناشئ عنه يعوزه وجود أسباب تعضده وانعاف يبرره . فاذا لم يكن المرء قد افترى الافتكار السكافي بويلات الحروب عند تعظيمه مقام المتحاربين ، واذا لم يكن قد أعمل الروية عند اظنابه

ببساطة الجندي بأنه عند الحدود بين الممالك لا تلقى سنبلة واحدة إلا وقد رواها دم الانسان ، كان ذلك الامر داعياً الى معاكسة تلك المبالغة في المدح بمبالغة أخرى أشد ظلماً وأقل عذراً كأنكار شرعية الافتخار بالحرب ، وعدم اعتبار الشهرة الخالدة التي يصيبها الفاتحون إلا كأندهاش طويل يطرأ على البشرية ، وكن نتيجة أبهة مشؤومة وسحر قديم المهد

وإذا حملتهم الحقيقة على اذاعة أفضلية هذا العصر العقلية على العصور السالفة فنحن أنصار قابلية الكمال البشري الغير لا نتردد في أمر الاعتراف بذلك . ويكون من باب التبجح في العصر الحاضر أن يفترض أن العالم لم يدرك درجة التمثل الا في الامس ، وأن يوصف العصر الماضي بالخلل والغباوة في أحكامه التاريخية وآرائه العقلية المتفق عليها السواد الاعظم من الناس منذ زمان متوغل في القدم وحين تتفق الشعوب على تأدية التعميم لذلك القائد الكبير في أثناء حياته ، وعلى تكريمه بدفنه في البنطيون بعد وفاته ، فلا يكون عملها هذا ناجماً عن استغواء المجد وحده لها ، على ذنبك التعجب والاعتراف بالجميل المذنب لا يمحوها مرور الايام . ويضاف الى تأثير هذا الحادث الجملي في القلوب الكريمة والمقول المتوقدة ما يكون لتأثير الاعمال الخطيرة والمسا في الكبيرة المضرة نيران الحماسة في النفوس الحرة والمستعيلة اليها في كل مكان حمية الشعب ، وانها بدلا من أن نفقد تلك الاعمال والمآتي وتحرم الهيئته الاجتماعية اياها ، ولا يجني منها ثمار المرافق سوى بعض الافراد أو بعض الجماعات ، تكون ذات فائدة جليلة للعائلة البشرية جمعاء وذات نفع لبعض أفرادها

وهب غزا الشعب المصري قارة آسيا وانتشرت طوارثه الظافرة في حزر البحر وبلاد الاغارقة فيكون تمدن طيبة ومحف سائراً وراء سزوستريس وسكرويس

وهب حطم سيف الاسكندر عرش قورش ودوخ الشرق حتى بلاد الهند فيكون تمدن أثينا قد ظفر باسم تلميذ ستاجيريت وبذراعه ، ويكون عصر ريكليس قد جر وراءه نور المدنية ، الرقي ، ويكون في الاثينا وشاهها وفلسفة

الأكاديميا والليسه قد أصبحا باعثاً على نشر أشعة العمران في البلدان السحيقة والممالك الفسيحة

وهب أخضع قيصر الروماني البرتيني والجُرمانيين ورفع أعلامه من قمة القوقاس الى قمم جبال كاليدونيا ، وعبر من غاليا الى ايطاليا ، ومن رومية الى مقدونية ، ومن سهول فرسال الى سواحل افريقية ، ومن أنقاض قرطاجة الى ضفاف النيل والبحر الاسود ، واجتاز البوسفور والرين ، وقطع جبال طورس والالب والاطلس والبرنات ، فلا يصحبه في جميع هذه المغازي الجارية تحت ادارته وسطوته ومجده الخالص إلا اسم رومية ولغتها وأخلاقها ومدنيتها ، ويرافقه عصر اوغسطس الموشكة أبوابه أن تنفتح ، ويشرك الشعوب الوثنية بذلك المذهب السفسطي الذي لم يجعل الفؤول الرومانية تنظر الى ذاتها من دون أن تغرق في الضحك ، وأنشأ أعظم وحدة سياسية شاهدها العالم ، وهياً بضمه عشرين مملكة الى مملكة واحدة وضع قواعد شركة كبيرة فيها الكنيسة المسيحية في النظام الروحي ، وكان همه الوحيد أن يضاهي الاسكندر وقد كان شديد الإعجاب به أو أن يتفوق عليه ، وكان راغباً في استئناف الاعمال التي باشرها أنصار الشعب المتصل اليه ارشهم ، ووسع بحد الحسام الدائرة النامية فيها على شكل سلمي طريقة من شأنها أن ترفع منزلة المتواضعين وتذل تنطرس المتشاكخين بأسلوب يفوق الاسلوب الذي نجاهه الغراق وماريوس ومن نسج على منوالها

ويمكننا أن نقول من دون أن نحاذر في قولنا لومة لائم انه لم يسبق لاحد من الفزاة قبل نابوليون بونايرت أن يساعد كما ساعد هو بسلاحه المنصور على تعزيز أركان التعليم العالي وتوليد دعائم الصناعة وتسيير أسباب العمران مما ترسخ الحروب قواعده بين الشعوب ، فان كان الاسكندر قد حمل معه عصر بريكليس ، وقيصر عصر اوغسطس ، وان كانا قد صحبا في انتصاراتهما دهاء هوميروس وصوفوكل وأفلاطون وارسطو وشيشرون ولوكريس وفرجيل وهوراس ، فنابوليون حمل ثلاثة قرون أولتها الفنون والعلوم والفلسفة شهرة ما وراءها من مزيد ولم تكن حاشيته تقل سناء وأبهة عن حاشية الذين تقدموه فقد اجتاز أوربا ومعه مونتانيه وديكارت وكورنايل وراسين وموليير وفلتر

وروسو ، وتألفت في محل أركان حرب جيشه جامعة حقيقية نقالة يسود فيها روح القرن الثامن عشر ، زارت الشعوب المنتهقرة في الشمال والجنوب لتخضعها لتأثير الاخلاق والمبادئ السائدة في الامة التي أجمعت كلمة العالم المتمدن على الاعتراف بانها مملكته . ولقد سعى نابوليون على غير جدوى لتعزيز ذكرى الارسطقراطية في فرنسا وأوهام الملكية بترميمه ترميماً وقتياً صرح الانظمة المتداعي تحت أثقال القدمية ، ومع ذلك فهو المعتبر في مقدمة الديموقراطيين والمجددين مجد البلاد والناشرين روح الحرية في أوروبا القديمة ، وهو يمثل وكلمة تلك الثورة الكبرى التي فتح أبوابها ميرابو بصواعق فصاحته ، ودافعت عنها لجنة الامن العام بصواعق الارهاب ، ووطد نابوليون دعامتها بصواعق الحرب ، أجل ان هذه الثورة أطلق عليها منذ نشأتها اسم الثورة الفرنسية ، ولكنها ما عمت أن استحققت أن يطلق عليها اسم الثورة العامة

هذا هو الرجل العجيب الذي لا يرى فيه رجال البلاط وأهل المنتديات وبعض الافراد سوى مستبد ممقوت وغاز لا يروى غليل مضامعه ، وأسا الصانع والحارث والجندي المعتبرة غريزتهم أصدق من المذهب العقلي الذي يجري عليه أولئك المنتقدون الضعفاء الفارغة أفواههم من المعنى فانهم كانوا ولا يزالون يرون فيه رجل الشعب ورسول العناية المحفوظ بقدرته تعالى ، ونتاج التحرر انسياسي والاهلية والدهاء ، وتجهيم روح المساواة الذي كان سائداً في الادارة والمسكر ، والذي لا يزال يحرك الآن الهيئة الاجتماعية الاوربية برمتها

هذا هو الرجل الذي قال عنه أحد شعراء الفرنسيين ان ذكره سيظل حياً في الأكواخ ، وهذا هو الرجل الذي صحت عزيمتنا على نشر تاريخه وترجمة حياته غر مراعين في ذلك غير بيان الحقيقة وتعريف الملا العربي بنابوليون الكبير داهية القرن التاسع عشر .



لاتيسيا رامولينو والدة نابوليون بوناپرت
ولدت في اجاكسيو ١٧٥٠ وتوفيت في رومية ١٨٣٦

الفصل الاول

— في أصل نابوليون وحدائمه —

في الحين الذي كان فيه فلتير وروسو المثلثان بأعباء الشيوخوخة التي كانت تجرهما الى حافة الحفر قد أوشكا أن يؤخذا من العصر الذي أفعماه بدوي شهرتهما ، وفي العهد الذي كان فيه ميرابو المعد لان يحول الرأي العام من الفلسفة الى الفصاحة قد اشتهر تنطرفه وخلاعه في شببته ريثما ينتهي الى سن الكهولة ويصيب شهرة ومجد الخطيب والسياسي ، رأينا العناية التي تسير دائماً بالعالم في طرق لا يدرك غيرها أسرارها التي تؤدي الى غايات ترمي اليها ، هذه العناية التي دبرت بتعاقب الاجيال والممالك جميع الاشياء بطرق عجيبة لنجاح الافكار واشتداد الثورات الكبرية ، تهى في زاوية خاملة في البحر المتوسط ولادة رجل قدر له أن يسخر دهاء الحروب لخدمه روح الاصلاح ، ويختتم القرن الثامن عشر المتباهي بفتوحه العقلية وانتصاراته الخطايبية بمعجائب حرية تفوق كل ما أدهش العقول في العصور القديمة وفي القرون المتوسطة

ولد نابوليون بوناپرت في مدينة اجاكسيو بمحاضرة كورسيكا في ١٥ اغسطس سنة ١٧٦٩ ، واسم أبيه شارل بوناپرت واسم أمه لاتيسيا رامولينو ولو كنا عاشرين في عصر تسود فيه الاساطير وتنسبط فيه الخرافات على عقول البشر لما كانت هذه الحادثة مجردة من السمات الشعبية والعلامات السماوية ، وقد قال المسيودي لاس كاس • « إن الدة نابوليون كانت قوية جسما وعقلا وقد اشتركت في الحرب ، ولما كانت حاملا به أرادت أن تمضي الى الكنيسة لسماع القداس وحضور حفلة العيد ، ولكنها اضطرت الى الاسراع في العودة الى البيت حين شعرت بابتداء المخاض ، ولم تقدر على الوصول الى غرفتها ، بل قضت عليها الحال بوضع الطفل على ملنفسه قديمة العهد مرسومة عليها أشكال شتى من الصور والتراويق المشثلة أبطال الحكاية أو الاليادة ، وكان ذلك الطفل نابوليون بونابرت »

وكان بعض الكتبة يفتنمون الفرصة من بلوغ نابوليون منصب القنصلية ثم صعدوه الى عرش الامبراطورية ليختلقوا له أصلاً شريفاً متناسقاً في القدم زاعمين أن جدوده كانوا ملوكاً في الاقاليم الشمالية ، إلا أن الجندي الذي كان يشعر بنار الثورة تتمشى في مفاصله ، والذي لم ينس قط أن أهليته وحدها رفته في عصر المساواة من مراتب الجيش السفلى الى المنصب الأعلى أوعز الى الصحف بأن شرفه لم يكن يستند إلا الى الخدم التي أداها إلى وطنه وأن هذا الشرف لم يكن يتجاوز مستينوت

وحصل والد نابوليون العالم في بيزة ورومية ، وكان رحلاً واسع المعارف قوي المعارضة أظهر في مواقف عديدة خطرة كثيراً من الحدة والحمية ولا سيما في مداولة فوق العادة تتعاقب بخضوع حزرة كورسيكا لفرنسا . وجاء شارل بونابرت فيما بعد إلى مرسيليا برأس الوفد المنفذ من مقاطعته في أثناء الخلاف الطارىء بين القائدين الفرنسيين في كورسيكا وهما المسيودي ماربوف والمسيودي نابون بيليز

إلا أن ما كان لهذا الأخير من المفوذ في البلاط لم يجده شيئاً في مقابل شهادة شارل بونابرت المبنية على الصدق ، فهذا الرجل آثر الدفاع عن دي ماربوف رغبة في النطق بما يؤيد جانب الحقيقة والمعادلة وهذا هو السبب الوحيد الذي من أجله بسط المسيودي ماربوف من ذلك الحين لواء حمايته فوق أسرة بونابرت

ان نابوليون مع كونه ثاقباً شجاعاً كان معترفاً كبير الأسرة . فعمه لوسيان كبير الشمامسة وقد كان مرشداً لجميع ذويه وعضدا لهم منحه هذا اللقب وهو راقد على سرير الموت وأوصى يوسف بكر اخوته بالألا ينسى ذلك الامر ، وهذا ما جعل نابوليون يقول فيما بعد . ان هذا العمل كان حرماناً حقيقياً من الميراث ، وهو يمثل شهيد يعقوب وعيسو

ولم يصب نابوليون ذلك التفوق الا بما أوتيته من الخلق الرحب والريانة والثروي وسلامة الذوق وجودة العقل ، وقد بدت تباشير هذه الصفات فيه من نعومة أظفاره

وفي سنة ١٧٧٧ أدخله في مدرسة بريان ، فأكب بذور خاص على دراسة

التاريخ والجغرافية والرياضيات ، فكان ييشغرو معلمه ودي بوريان رفيقه ، ونال خصل سبق على أقرانه في الرياضيات ، وأبدى ميلا شديداً الى الشؤون السياسية ، وولوعاً عظيماً بتحرر وطنه واستقلاله ، وأحب باولي محبة تقرب من العبادة ، ودافع عنه دفاعاً قوياً مخالفاً في ذلك ميل والده

وقد أخطأ الذين زعموا ان نابوليون كان في أثناء الأيام التي قضاها في المدرسة ميالا الى الانفراد والصمت والابتعاد عن الأصدقاء والرفقاء ، ولا ينطبق أيضاً على الحقيقة ما قاله عنه دي بوريان حين فقد ثقته به انه كان فظاً في أحاديثه ينفر الناس منه ، ولكن هي رزائته السابقة أوانها وأخلاقه القاسية التي جعلت الناس يخطئون في نسبتهم اليه الابتعاد عن مخالطة معاشر البشر واتهامه بقساوة القواد . على ان الحقيقة كانت خلاف ذلك فقد كان نابوليون لطيف المعاشرة رقيق القلب . ولم يطرأ التغير على أخلاقه ، ولم يصبح مكفر الجبين عبوساً إلا عند ادراكه سن البلوغ كما يستفاد من الكلام الذي فاه به عن نفسه في جزيرة القديسة هيلانة

وزعم بعضهم أيضاً ان ميله الى الاعتزال عن الناس ورغبته في فن الحرب جعلاه يؤثر الانفراد في حديقته ويتحصن فيها هرباً من ازعاج أرفاقه له ، الا أن واحداً من أولئك الرفاق كذب هذه الرواية بمرده قصة الحصن الذي بنوه من الثلج وحاصروه ودافعوا عنه بكرات الثلج

« في شتاء سنتي ١٧٨٣ و ١٧٨٤ كثر تساءط الثلج وتجمع في الطرق والشوارع وأفنية المنازل وعلى السطوح ، فألغى نابوليون في ذلك الامر معاكسة لرغائبه اذ لم يبق لديه حداثق صغيرة يبهجه منظرها ، ولم يكن ميسوراً له الانفراد فيها على ما كان يشتهي ويريد وكثيراً ما كان يضطر في أوقات التنزه الى مخالطة رفاقه وترويح النفس معهم في التنزه ذهاباً وإياباً في ردهة كبيرة . وافترح نابوليون عليهم ان يقصي عنهم الضجر والملالة باستعمال الرفوش لاختراق معابر في الثلج واقامة خنادق وأسوار واستحكامات ومرايط ، وقال لهم حين نفرغ من هذه الاعمال تنقسم الى فرق ونجري حركات الحصار ، ولما كنت أنا مخترع هذا النوع الجديد من اللعب فانه أدير حركات الهجوم . فكان لسكلامه وقع حسن عند رفاقه الطلبة وعمدوا الى وضعه موضع العمل ، وبقيت هذه الحرب دائرة بينهم خمسة عشر يوماً ، ولم تنف أريجيتها

الا حين صارت الحصى والتراب تخالط التلج المصنوعة منه الكرات المقذوفة .
وكان من نتيجة هذه الحرب اصابة عدد كبير من المحاصرين والمحاصرين بجروح
بالغة . واذكر اني كمت من جملة الطلبة الذين ذاقوا أكثر من غيرهم مرارة
هذا القتال . »

ولا يخفى انه لو كان نابوليون كما يصفه بعضهم فظ الاخلاق شرس الطباع
لمسا تمكن مع ما كان هو عليه من الميل الى الوحدة من اقناع الجميع باجراء
ما اقترحه لو لم يكن له عندهم كلمة مسموعة

ولم يكن مكثفياً باحراز ميل ارفاقه اليه بل كان نائلاً عطف أساتذته أنفسهم
وكثيرون منهم يزعمون انهم تنبأوا عما سيصير اليه هذا الفتى في مستقبل حياته
وقد أكد المسيودي لغويل استاذة في التاريخ ، بعد صيرورة نابوليون
امبراطوراً ، انهم يجدون في خزانة المدرسة سجلاً فيه مذكرة أودعها ما كان
يتوسمه في تلميذه من مخايل النباهة وعلائم الذكاء ، وقد قال فيها . « ان هذا
الفتى الكورسيكي الاصل والطبع سيبلغ غاية بعيدة من المجد إذا أسعده الحظ »
وكان دومارون استاذة في علم الادب يشبه كتاباته بحجارة الصوان المحماة
في البركان .

وسنة ١٧٨٥ جرت مباراة بين الطلبة نال فيها نابوليون خصل السبق على
أقرانه فاختره الشفاليه دي كبراليو للمدرسة الحربية في باريس غير مهال بما
كانوا يعترضون به عليه من أن هذا الطالب الحدث لم يكن بعد قد بلغ السن
المطلوب ، وانه لم يكن نابغاً إلا في الرياضيات فأجابهم ، أنا عارف ما أنا فاعله ،
وإن كنت أتجاوز في هذا الامر حدود القاعدة الموضوعية فليس ذلك مراعاة
لخاطر أحد ، فأنا لا أعرف أسرة هذا الفتى ، ولم أفعل ما فعلته إلا مكافأة له على
نباهته لاني ناظر فيه شرارة تظل كامنة إن لم يتيسر لها من يقدحها

ولما دخل نابوليون المدرسة الجديدة تعجب وحزن في وقت واحد من
طريقة التعليم الجاري العمل بموجبها فيها ، ولا سيما من معيشة التخضت والخواوة
التي يعيشها شبان يعدون لتحمل شظف معيشة الجندي الشاقة . وكانت هذه
الملاحظات موضوع رسالة كتبها لرئيسه المسيو برتون ، وهذه خلاصتها .
« ان تلامذة الملك الذين لا أهل القاعة لا يستعطيون أن يحرزوا الاحب

الجاه أو عواطف المجد الباطل بدلا من صفات القلب ، فانهم حين يعودون الى منازلهم يحتقرون علة وجودهم في هذه الدنيا ويأنفون من مساكنتهم . فبدلا من تعيين خدام عديدين لخدمتهم يحسن ان يقدم لهم الطعام في كل يوم لوتين ، وان يقتصد بما يمكن اقتصاده ان من جهة الخيل وان من جهة المعينين لخدمتها . أفلا يحسن ان يكونوا قادرين على قضاء حاجاتهم بأنفسهم من دون ان يقطعوا مجرى دروسهم ؟ وحيث انهم ليسوا من اصحاب الغنى وحيث ان جميعهم معدون للخدمة العسكرية ، أفلا يكون هذا النوع من التهذيب والتربية أفضل من سواء ؟ ومتى تعودوا هذه المعيشة الاجبارية والعناية بشؤونهم الشخصية أصبحوا أشداء وصاروا قادرين على احتمال التقلبات الجوية ومشاق الحروب ، وصبروا الجنود الخاضعين لهم يحترمونها احتراماً يقرب من العبادة ويطيعونها طاعة صمياء »

وعلى هذه الصورة كان نابوليون وهو حدث يضع أساس نظام وضعه موضع الاجراء لما قبض بيده على أزمة السلطة العليا . وكان في الامتحانات التي اطاها في باريس يتفوق على أقرانه كما كان شأنه معهم في بران . وسنة ١٧٨٧ خرج من المدرسة الحربية برتبة ملازم ثان وانتظم في سلك فرقة مدفعي لا فير حامية غرينوبل



الفصل الثاني

— من دخول نابوليون بونابرت الجندية حتى حصار طولون —

وتعرف نابوليون بونابرت في أثناء اقامته بباريس وهو في الثامنة عشرة من عمره بالأب رينال ، فمكان يجاذبه أطراف البحث في المسائل التاريخية والقضايا الشرعية والشؤون السياسية بأسلوب يدل على تعمقه في هذه العلوم وطول باعه فيها .

ولما أرسل الى فالنسه للانضمام الى إحدى فصائل فرقته تعرف بأكرم أسرها وأفضل بيوتاتها ولا سيما أسرة عقيلة دي كولومبيه ، وهي سيدة ممتازة بأدائها ولطف أخلاقها ، ومعروفة باحياؤها روح الالفة الاجتماعية . وتعرف في منزلها بالمسيو دي منتاليفه الذي جعله وزيراً للداخلية عند صيرورته امبراطوراً . وكان لعقيلة كولومبيه ابنة متناهية في اللطف وآية في الجمال ، وهي أول من أضرمت في قلب نابوليون بونابرت نار الحب ، وشاطرته هذه العواطف الطاهرة . فكانا يجتمعان في الخلوة ويتشاكيان لوعة الغرام ، وقد قال نابوليون فيما بعد ان أكل السكرز كان كل ما فعلاه في خلوتهما

ولم يفكر أحد من الفريقين بالاقتران بالأخر حتى أن ألأم نفسها مع ما كانت تبديه من العطف نحو هذا الشاب الذي كانت تقدره حق قدره لم يخطر في بالها البتة أمر زواج ابنتها به خلافا لما زعمه بعضهم . وقد تنبأت هذه المرأة عن مستقبله المجيد ، وحين كانت على سرير الموت تجود بنفسها جددت هذه النبوءة لما أطلق عقال الثورة الفرنسية الكبرى وانفتح في وجه نابوليون طريق لاحب يستطيع المسير عليه للانتهاء الى انفاية التي كان يرمي اليها .

الا أن مشاغل بونابرت القلبية ونجاحه في الالفة الاجتماعية لم تحل دون استئنائه مزاولة دروسه الجدية والتعمق في البحث في قضايا الاقتصاد الاجتماعي المهمة . وقد زعم بعضهم أن بونابرت نال باسم مستعار الجائزة التي عينها ندوة ليون العلمية للمسألة التي اقترحها الأب رينال وهي : « ما هي المبادئ والقوانين التي يجب غرسها في أفئدة البشر ليصيبوا أعلى درجة من السعادة ؟ »

فأجاب بونابرت على هذه المسألة جواب تلميذ من تلامذة القرن الثامن عشر ، على أن الحقيقة هي ان القائلين انه نال تلك الجائزة قد ضلوا عن جادة الصواب . وفضلا عن ذلك لم يكن يسر في المستقبل بتلك الذكرى . فذات يوم في عهد الامبراطورية قدم له المسيو دي تاليران دفتراً منسوخاً فيه جوابه الآنف الذكر فبادر في الحال الى تمزيقه وطرحه في النار

ولما أصلت سيف الفتنة الفرنسية الكبرى كبر لها جميع الشبان المتنورين ، ولم تكن هذه الفتنة سوى ابراز المبادئ الفلسفية المشربة منها أدمغة دهاة ذلك العصر الى حين العمل ووضعها موضع الاجراء . إلا أن النبلاء المفاهرين بامتيازاتهم والمتباهين بألقابهم ، وهم كثيرون في الجيش ، لم يكونوا يرون ذلك الرأي ، على أن ذلك الروح أي روح الافتخار بالعظم الرميم لم يسهه أن يحرم ذلك العصر دهاء شاب كان باولي قد أصاب في وصفه بقوله عنه . « انه مجبول من طينة الأقدمين وانه من أمثال الرجال الذين يصفهم بلوطرخوس »

ولم يجر بونابرت مجرى السواد الاعظم من رفقاءه الذين شخصوا الى البلدان الاجنبية وأقاموا النكير على مريدي اصلاح شوءون وطنهم . على أن اعتبار حالة ثروته ومجده ساعد نفوذ آرائه ومبادئه ، وقد قال لرئيسه عند انضمامه الى حزب الاصلاح « ان الفتنة من أفضل الذرائع التي يتذرع بها الجنود الحاصلون على الحزم والاقدام » ولكن هل يكون هذا الكلام داعياً لنا لأن نجرد من كل غاية سياسية نبيلة محبته الشديدة لوطنه التي أظهرها قبل انفجار بركان الفتنة في أحاديثه وكتاباتاته ؟ ومن شاء التسلط على عواطف البشر والعمل على تحسين حظوظ الناس وجب عليه الا يباشر الشوءون العامة كما يباشرها أصحاب المذهب الفكري المجرد أو النساك المعتصمون بأهداب الزهد ونكران الذات . ولا يستطيع الانسان اتيان المشاريع الخطيرة وتحريك عوامل الهيئة الاجتماعية بتسببه بأسباب التجرد المطلق المبني على قواعد العجز . وقد أسعد الحظ فرنسا ان وجد فيها بين المشترعين والجنود المخلصين لاصلاح سنة ١٧٨٩ نفوس طامحة الى المجد الذي لا يقتنى الا بالخدم الجليلة ، وقلوب طامعة بالسلطة التي تسهل للدهاء تحقيق المقاصد . وقد أسعد فرنسا الحظ أيضا بأن يكون بين أولئك الطامعين الذين لا تكون بدونهم مأساة الثورة المجردة عن الحركة والمعراة من الحياة سوى

اجتماع من اجتماعات السكويكرس أو احتفال من احتفالات الجنسينيست جندي
مشتهر قادر على نيل الشهرة والسلطة الساميتين بأجرائه أعمالاً كبيرة تعود بالخط
الجليل من المنعم على المدينة الاوربية .

ولما انتصر بونابرت للحزب الشعبي كان يجري بموجب اعتقاده وبحسب
ما كان يتوسمه في المستقبل من يمن طالعه ، الا أن محبته الشديدة لوطنه لم تكن
تحول دون نفوره الغريزي من الفوضى ، فكان يشهد والحق ينفي في صدره
الاجتماعات المقامة لمناوأة السلطة التي كان مقدراً له أن يرثها يوماً من الايام .
وقد حدث في ٢٠ يونيو سنة ١٧٩٢ أنه كان في قصر التويلري على السطح
المشرف على النهر ، فابصر رجلاً من سوقه الناس يدنو من الملك لويس السادس
عشر ويضع على رأسه القبعة الحمراء ، فاحتدمت في بونابرت نار الحمية وصاح
بصوت عال . وكيف أباحوا لهذا الوغد دخول هذا المكان ، أما كان يجب أن
تطلق المدافع على أربع مئة أو خمس مئة من نظرائه فنكفي شر الباقين ؟

وشهد بونابرت حوادث اليوم العاشر من شهر أوغسطس ، وقد كان يتوقع
حدوثها كنتيجة مقررة لحوادث اليوم العشرين من شهر يونيو الآف الذكر ،
ومع أنه كان من أحلاف الثورة ظل ميالاً الى المحافظة على النظام واحترام
السلطة ، ففصل عن عاصمة فرنسا ميمما جزيرة كورسيكا ، فوجد باولي يعيث
فيها فساداً ويمخرق مدفوعاً الى ذلك بدسائس بريطانيا فاستاء من ذلك الأمر
كل الاستياء ولم يحجم من ذلك الحين عن السعي لتحطيم المعبود الذي كان
يحترمه كل الاحترام . فتولى زعامة إحدى الفرق في الحرس الوطني وأصلى ذلك
الشيخ الذي كان يعلن له الاكرام حرباً عواناً

ولما فاز الحزب البريطاني وختم فوزه بحريق مدينة أجاكسيو اضطرت
أسرة بونابرت بعد التهام النار لبيتها أن تهاجر الى فرنسا ، واتخذت مدينة
مرسيليا محلاً لأقامتها . ولم يطل بونابرت مكثه في هذه المدينة بل أسرع في
العودة الى باريس حيث كانت الحوادث تجري تباعاً بعنف وسرعة ، وكانت كل
يوم بل كل ساعة تبدو علامات لمعضلة جديدة . وجاهرت الانحاء الجنوبية
بالتحالف وأسلم الخونة مدينة طولون للبريطانيين . ففوض الى القائد كارتو



نابوليون بوناپرت في مدرسة بريان

ولد في اجاكسيو ١٧٦٩ و توفي في جزيرة القديسه هيلانه ١٨٢١

أن ينطلق إلى البروفانص ويعيدها إلى الحكومة الجمهورية منزلاً أشد العقاب
بالعصاة المارقين

ولما دخل هذا القائد مدينة مرسيليا يجر ذلال التيه والخيلاء أمر
بمحاصرة مدينة طولون ، فضى إليها بونابرت بصفة قائد المدفعيين . ولشرفي
أثناء ذلك الحين كتباً تحت عنوان «عشاء بوقير» لم يذكر شيئاً عنه في «مفكرة
القديسة هيلانة» ولكن المسيو دي بوريان يقول أنه تلقاه من بونابرت عينه
عند رجوعه من طولون . ويحتوي هذا الكتيب زبدة آرائه التي كان يجاهر بها
كوطني شديد العزيمة وجندي باسل ، ويتضمن أيضاً حكمه على الاضطرابات
والقلاقل الجارية في الجهات الجنوبية ، وعلى مسألة التحالف المار ذكره ،
مما يدل على ما كان عليه هذا الضابط الشاب من قوة المعارضة وسلامة
الدوق وهما الخلتان اللتان ظهرتتا في بونابرت بمظهر جلي عند ارتقائه إلى
عرش الامبراطورية



الفصل الثالث

حصار طولون وفتحها - ابتداء حروب إيطاليا - العزل

ولما وصل بوناپرت الى أمام اسوار طولون وجد جيشاً مؤلفاً من المتطوعين الاشداء ولكنه لم يجد قائداً هاماً يليق بأن ينهض بإعباء الرامة عليهم ، فان القائد كارتو المتظاهر بالابهة والعظمة اللتين لا تنطبقان على مبادئ الجمهورية كان على غاية الجهل ، وقد كان فتح طولون يفوق طاقته ، بيد أنه لم يكن يفقه هذا الامر . وكان بعكس ذلك يدعي انه ذو فكر سام ومقدرة عظيمة على اجراء مائتة ضحية الاحوال وهذه الدعوى جعلته يدبر خطة حربية قضت بان دعتة السلطة الى باريس ودونكم خلاصة هذه الخطة :

« مواظبة قائد المدفعية على اطلاق المدافع على مدينة طولون ثلاثة أيام ، والهجوم بعد ذلك على المدينة من ثلاث جهات وفتحها »
 وكان من حسن حظ ذلك القائد ان قد وجد الى جانبه ضابط أدنى منه منزلة بيد أنه يفوقه في الدهاء وفن الحرب . وكان هذا الضابط في الرابعة والعشرين من العمر . ولم يكن هذا الشاب يستطيع مع خمول ذكره وبساطة مركزه كتمان ما يشعر به من الاحتقار لمعظم الذين يقضي عليه النظام العسكري بأن يعتبرهم زعماءه مع ما كان في بلاهتهم من وخامة المغبة على الجمهورية . وقد جراه ذلك الاحتقار وشعوره بأفضليته على جميع المقيم هو بين ظهرانهم على مفاوضة زعمائه أنفسهم وتبصيره اياهم بسوء عواقب الأعمال التي يبتغون اتيانها . وكان من نتيجة مفاوضاته اليومية للقائد كارتو وانكاره الخطة التي رسمها قول زوجة القائد لرجلها . « دع هذا الشاب يعمل ما يرى عمله ملائماً فهو أوسع خبرة منك في الشؤون الحربية ، وهو لا يتقاضاك شيئاً ، ومرجع الفخر كله اليك »

وكان بوناپرت من وصوله الى المعسكر أمام مدينة طولون قد فهم بما أوتيته من سرعة الخاطر وبعد النظر في الشؤون الحربية أن طولون لا تؤخذ الا من جهة مدخل الميناء . فقال وهو يشير بيده في المصور الجغرافي الى هذا المدخل

« هذه طولون ». ولكنه عانى مشقة عظيمة لاقتناعهم بالعمل برأيه ، ولم يكن أحد يرى رأيه سوى قائد فرقة المهندسين ، ومع ذلك لم يكن هذا الامر كافياً لاقتناع القائد الاكبر واتفق أنه كان بين نواب الشعب رجل ذي الفؤاد رأى بمقابلة فطنته تحت شكل قائد المدفعية البسيط قائداً هماماً يركن الى رأيه ويعول على معارفه الحربية الواسعة . وكان من نتيجة ميل النائب الى قائد المدفعية البسيط وتقديره أهليته حق قدرها منح بونايرت سلطة واسعة كان محتاجاً اليها لضمان نجاح خطته ، فدعي كارتو الى باريس وطرده الاجنبي من طولون . وتذكر الظافر فيما بعد أن مرجع الفضل في القسم الاكبر من ظفوره هذا الى النائب الشعبي ، وقال ان غسباران (اسم النائب) هو الذي فتح في وجهه باب المستقبل

وكان بونايرت في أثناء الحصار مثالا لرباطة الجأش والاقدام ، فلم يكتف باظهار معرفته وبراعته في المجالس بل كان يتم بها في ساحة القتال حتى أن الجنود كانوا يعجبون ببسالته وصلابة عوده بقدر ما كان القواد يعجبون بحدة ذهنه وقوة عارضته . وكانت جرأته تحمله على خوض غمرات الحرب حتى أنه قتل تحته عدة جياد ، وقد جرح في نفذه اليسرى جرحاً بالغاً خيف بسببه على ساقه من البتر

وكان طبعه ينفر من معالجة القضايا العلمية المجردة ، ويعتبر تصور الشيء ووضعه في موضع الاجراء أمرين متلازمين ، ولو لم تكن له نفس كبيرة وصدر رحب وذراع متينة تعينه على قضاء حاجاته لسكان فكركه الواسع يثقل حاذه ويضيق صدره ويغل يده . وكان أنى سار يشعر بالحاجة الى العمل ، وقد بدأ من حديثه يشعر بهذا الأمر ، وظل يشعر به في جميع أدوار حياته . ولما خافه الحظ في ابراز هذا الشعور من حين الفكر الى حين الفعل فارقت الحياة ، ولما ألغى ذاته مضطراً الى حصر تلك القوة الفكرية في دائرة ضيقة بعد ما كان قد ملأ أوروبا بآثارها الهائلة قال على الدنيا السلام

ولم يكن عمل تلك الهمة الهائلة مقصوداً على مزاولة الشؤون الكبيرة بل كان يعد يده الى الشؤون الصغيرة نفسها حين كانت الأحوال تقضي عليه بذلك من دون أن يأنف من تمرسه بمثل هذه الأمور . فكان ذات يوم في ابان حصار

طولون واقفاً بين بطاريات المدافع يلاحظ بنفسه اجراء حركاتها فحدث أن أحد المدفعيين قتل ، ولما لم يكن على مقربة منه من يقوم مقام القتل عمداً بذاته الى اطلاق اثنتي عشرة قنبلة من المدفع ، وقد سرت اليه في ذلك الحين عدوى داء الجرب الذي كان المدفعي مصاباً به . وبعد ما جعل هذا الداء حياة نابوليون في خطر سبب له هزلاً ظل ملازماً له في خلال البعثة الى مصر وحروب ايطاليا ولم يبرأ منه إلا على يد كرفيزار بعد صيرورته امبراطوراً

ولم يكن جميع رؤسائه حسداً وبلهاً نظير كارتو ، فان القائدين دوتايل ودوغوميه أظهرتا له احتراماً شديداً واحتراماً عظيماً لم يتعودا اظهارها للأدنى ، وقد كان ذلك نتيجة معارفه الواسعة ودهائه الممتاز وتعجب دوغوميه من سماعه إياه يقول له بثقة تامة بعد فتح « جبل طارق الصغير » . « اذهب وخذ قسطك من الراحة ، فقد أصبح سقوط طولون في أيدينا أمراً مقرراً ، وسيتسنى لك الرقاد فيها بعد غد »

وحل الدهش محل التعجب لما تمت بالتدقيق هذه النبوءة ، وقد تذكر بونايرت في وصيته القائدين دوتايل ودوغوميه كما تذكر غسباران . وطلب دوغوميه من لجنة الأمن العام ترقية الضابط بونايرت الى رتبة أمير لواء ، ومن جملة ما كتبه في الرسالة التي سيرها الى اللجنة المذكورة « كافئوا هذا الشاب وقدموه ، فاذا عاملتموه بنكران الجليل استغنى عنكم وتقدم من ذاته . »

ونظر نواب الشعب بمقابلة الاعتبار الى هذا الطلب ورقوا بونايرت الى رتبة أمير لواء . فانضم بونايرت الى القائد دومربيون زعيم البعثة الفرنسية في ايطاليا ، وأبلى بلاء حسناً في فتح ساورجيو وفي انتصارات طانارو وأونايل . ان بونايرت مع اعتصامه بأهداف مبدأ الجمهوريين المتطرفين الذين كانوا يعملون في ذلك الحين على خلاص البلاد بصريمة مقرونة بالعنف والارهاب ، كان ينظر بطرف دهائه الى المواطنين والآراء المتصادمة ويسعى للتسلط عليها ، ومن ثم لم يكن يستعمل نفوذه وثقة القوم به الا لوقاية خصومه السياسيين من الاضطهاد ولانقاذ المهاجرين الذين ألقاهم العاصفة على سواحل فرنسا ، وكان من جملتهم أسرة شاربيليان . ولما انزلت حكومة الكنفسيون انتقامها بحلفاء الجنوب وضربت صميم تجار مرسيليا وأوسعهم ثروة وهو المسيو هوغ ذلك

الشيخ الجليل البالغ من العمر أربعاً وثمانين سنة بات بونابرت كالمنزول به وصاح قائلاً . « ظننتني بازاء هذا الحادث عند انتهاء العالم »

وكان بونابرت مع استغفائه لتلك الأعمال الهمجية يبرز أحكامه بكل سكينه وترو على أعمال المتسلطين في ذلك العهد لانهم لم يكونوا يرتوون من شرب الدم . وجاء في « مفكرة القديسة هيلانة » ان الامبراطور كان قد جعل روبسبيار يقول انه اطلع على رسائل ضافية الأذيل أنفذها نابوليون الى أخيه روبسبيار الشاب في جيش الجنوب ، وفيها ينكر بحدة تلك الأعمال الخارجة عن حد الاعتدال ويزعم أنها تسود صحيفة الثورة وتخنفها

وكان روبسبيار الشاب قد عرف كما عرف غسباران من قبله ذلك الرجل العظيم الحديث النشأة واحجب به كل الاعجاب ، وبذل المجهود عند دعوته إياه الى باريس ليقنعه بالحيي معه اليها ، وكانت ذلك قبل ٩ ترميدور بقليل من الحين . وقد قال بونابرت فيما بعد . « لو لم انبذ طلبه فن كان يعلم المصير الذي قيص لي المصير اليه بعد الخطوة الأولى ، والحظ الذي كان يتوقعي ؟ »

وتعرف في حصار طولون بدوروق وجونو وجعلهما يتعلقان به . ففتح الأول من ذات نفسه ، وأحب الثاني للحادثة الآتية :

كان أول شيء فعله قائد المدفعيين فور وصوله الى طولون تشييد طابية ، وكان يضطر الى الكتابة وهو في العراء قائم على ملاحظة مجرى الأعمال . فطلب سرجاناً أو كابوراً ليكتب له ما يمليه عليه ، فجاءه أحد الجنود لاجراء ما يبتغيه ، ولم يكذب يفرغ من كتابة الرسالة حتى سقطت على مقربة منه فنبلة أطلقها العدو خشت التراب على الورقة فقال ذلك الجندي برباطة جأش وثغر بسام . « لقد كفتني مؤونة تحفيف هذا المكتوب بالرمل . » وكان هذا الجندي يدعى جونو ، وقد كان ثبات جنانه كافياً لتوصية القائد به . ولم يكن فتح مدينة طولون وقد تم على يد بونابرت ليحمله بمعزل عن القلق الذي كان رجال الجندي يشعرون به من جراء تحامل رجال الكنفنسيون عليهم .

وكان قد صدر أمر بدعوة بونابرت واستجوابه عن بعض أعمال أجراها في تعزيز حصون مرسيليا ، الا أن هذا الامر لم يعمل بموجبه . وكان أحد نواب الشعب مستاء من طباع بونابرت فقد كانت تأتي الخضوع لئير الضيم ،

ومنكرًا انفته من الانقياد لاهوائه وأمياله ، فأصدر بحقه تلك الكلمة القتالة التي كان صدورها في ذلك العهد كافيًا لاهلاك المصادرة بحقه أي رفع حماية القانون عنه ، ولكن هذه الكلمة بقيت هذه المرة باطلة وخالية من المعنى .

وكان جميع أركان الجيش يميلون الى خطب مودة بونابرت حتى أن أحدهم ، وهو مقترن بامرأة ذات جمال رائع وأخلاق لطيفة أبدى له تعلقًا شديدًا وعامله في منزلة معاملة ذوي القربى . ويقال أن بونابرت هام بحب هذه المرأة الحسنة وكان بينه وبينها شأن يذكر حتى أنها كانت أول من لفتت أنظار حكومة الكنفنسيون الى أهلية فاتح طولون في ١٣ فندميّار .

ولقي بونابرت بعد ارتقائه الى عرش الامبراطورية هذه السيدة وكانت الاحداث والنكبات قد ذهبت بتلك المسحة من الجمال التي استهوت نابوليون في ماضى ، فقال لها الامبراطور . لماذا لم تستغني الفرصة من تعرفنا في نيس لتأتي اليّ ، فلي أصدقاء كثيرون أعرفهم من عهد بعيد ، وقد أصابوا جميعهم منزلة رفيعة ولم يقطعوا علاقاتهم بي . فأجابته « واحسرتاه يامولاي ، لم يبق بيننا معرفة منذ حللت في المركز الاسمي ، ومنذ صرت منكودة الطالع . » وكانت قد فقدت بعلمها وباتت في حالة من الشقاء يرثى لها ، فنهجها نابوليون سؤالها . ولما كان نابوليون يتذكر تلك الايام كان يقول . كنت في عنفوان الشباب وكنت أتباهى باستمالة تلك الحسنة اليّ ، ولذلك كنت أحب أن أظهر ذلك بكل ما يمكنني اظهاره وستعلمون مما سأرويه لكم ما يكون من العواقب الوخيمة لمن يسيء استعمال السلطة وما يكون من حظ البشر . كنت ذات يوم اتزده معها في الموضع المبنية فيه استحكاماتنا في ضواحي مضيق طنند بغية تفقد الاحوال . فخطر لي بغية أن أجعلها تشهد صورة حرب صغيرة ، وأمرت بالهجوم على المقدمة . فاتصرنا ولكن لم يكن لنا من وراء هذا الامر من نتيجة ، فقد كان الهجوم هوى من الأهواء ومع ذلك قتل في أثناءه بضعة جنود ، وكلما كنت أذكر هذا الحادث فيما بعد كنت أحيّل على نفسي باللأئمة لاجرا في اياه »

ان حوادث ٩ ترميدور أوقفت بونابرت وقتيًّا في الطريق الذي كان قد تخير انتهاجه وأصاب فيه بعض النجاح . وسواء أكانت علاقته مع روبسبيار الشاب قد جعلت بعض الناس يسيئون الظن به أو أن حاسدي مجده التلبد قد

تذرعها بهذه الذريعة أو بغيرها ليهلكوه ويتخلصوا منه فقد كفت يده عن العمل وألقي القبض عليه بأمر أصدره ألبيت ولا بورت وساليسي فانهم اعتبروا رحلته الى جنوى جرماً كبيراً بحسب الانباء التي وردت اليهم من رصيفهم ريكور .

ولما أعلن أن القائد بونايرت غير جدير بثقة الجيش به وتقرر مشوله أمام لجنة الامن العام لم يذعن بونايرت لهذا الاعلان وهذه التهمة ، فحبر في الحال مذكرة رفعها الى النواب الذين أصدروا الأمر بالقبض عليه ، وكانت هذه المذكرة مكتوبة بعبارة مقتضبة يشتم منها رائحة الانفة والشدة ، وهي تعتبر توطئة للخطب والكتابات التي عود نابوليون الناس سماعها وقراءتها فيما بعد . ودونكم بعض فقرات من المذكرة .

« كفتم يدي عن العمل ، والقيتم القبض علي ، وقذفتوني بالتهمة »
« وها انذا أصبحت ملطخ بردة الشرف من دون أن أمثل أمام القضاة للمحاكمة ، وقد حكم علي من دون ان تسمع مدافعاتي »
« في البلاد المفتحة فيها أبواب الثورة فئتان من الناس . المشتبه بهم والوطنيون . . . فمن أي فئة تريدون أن تعتبروني ؟ »
« أولم أكن شديد الاعتصام بمبادئ الثورة من نشأتها ؟ »
« أولم يروني دائماً في ساحة القتال أواقع الاعداء الداخلين وأنزع الاعداء الخارجيين ؟ »

« ضحيت بلذة المقام في مسقط رأسي ، وهجرت مقتنياتي ، وفقدت كل شيء في سبيل الجمهورية . ؟ »

« وخدمت بلادي من ذلك الحين أمام مدينة طولون خدمة جرت الي أسباب الافتخار ، واستوجبت في جيش ايطاليا شطراً من غار المجد المحرز في فتح ساورجيو واونايل وطانارو . . . »

« ولما حسر القناع عن مكيدة روبسيار سلكت مسلك رجل لا يجري الا الى غاية مبادئه . »

« فلا يستطيع أحد والحالة هذه أن يضمن علي بقلب « وطني »
« فلماذا اذن يعلنون أنني من المشتبه فيهم قبل أن يسمعوها مدافعاتي ؟ »

« انابريء ووطني وموشى بي ، وكيفما كانت التدابير التي تتخذها اللجنة بحقي لا يسعني الا التظلم منها .
 « فاذا شهد ثلاثة شهود بأني أتيت جناحاً فلا أستطيع الشكوى من القضاة الذين يبرزون الحكم عليّ
 « وهل يليق بنواب الشعب أن يسوقوا الحكومة الى ارتكاب المظالم والجنوح عن الخطّة السياسية المثلى ؟
 « انصتوا اليّ ، وحطّموا قيود الحيف التي تكبلني ، وأعيدوا الي احترام أبناء واطوى .

« واذا طلب الاشرار حياتي بعد ذلك بساعة من الزمان بذلتها لهم مرتاحاً ولم أعتبرها شيئاً مذكوراً ، وقد سبق لي في مواقف عديدة أن غررت بها . . .
 على أن التصور الوحيد الذي يجعلني أعتقد بأن الوطن لا يزال محتاجاً اليها يجعلني على تحمل عبئها بالشجاعة والصبر الجميل .
 وكان ان هذا الاحتجاج المبني على قواعد الأنفة والنبالة مع ما هو مقرون به من البساطة جعل النواب يتأملون ويعلمون أنهم تمسوا برجل راجح الحصاة شديد الصرامة ، وانهم لا يتسنى لهم اخضاعه لنير الاستبداد والاضطهاد من دون أن يستهدفوا لنبال مقاومة شديدة منه . وحينئذ أهاب التعقل بالبيت وسالستي بالاتفاق مع الجنرال دومريون الى الغاء قرارهم وقتياً واصدار الأمر باطلاق سراح الجنرال بونايرت المأمول أن يكون من وراء معارفه الحربية والوطنية فائدة للجمهورية .

وألقت حادثة ترميدور في أثناء ذلك بمقاليذ ادارة الشؤون الحربية الى قائد من قواد المدفعيين يقال له أوبري ، فقوض الى بونايرت قيادة المشاة المعينين للخدمة في الفنده . فاستاء بونايرت كل الاستياء من هذا الأمر وبادر عند وصوله الى باريس الى رفع ظلامته الى اللجنة الحربية باسطقاً لها شكواه بكلام شديد اللهجة ، الا أن أوبري أصر على رأيه وقال لبونايرت انه لا يزال شاباً وانه يجب عليه أن يجعل القدماء يتقدمونه من باب « ان الفضل المتقدم » فأجابه بونايرت . ان الانسان يشيخ في وقت قريب في ساحة القتال وانه قد أدرك هذا الأمر . ولم يكن رئيس اللجنة الحربية قد شاهد نيران الحرب في حياته .



نابوليون بوناپرت ملازم فى المدفعية فى التويلرى « ١٠ اغسطس سنة ١٧٩٢ »

الا ان هذا الاحتجاج العنيف لم يجعل أوبري يرمي عن غيه بل جعله يزداد تشبثاً برأيه . وحينئذ لم ير الشاب الثابت العزم مندوحة عن الاستقالة ، فأثرها على الاذعان لمقتضيات الظلم .

الفصل الرابع

— الاستقالة — ١٣ فنديميار — جوزفين — الزواج —

انه لا أمر غريب أن نرى هذا المرء الذي دوخ فيما بعد أوروبا يثبط عن مواصلة السير على المنهج الذي اختطه لنفسه ، وأن يضطر الى الاستقالة فيحذف اسمه من جدول القواد الفرنسيين العاملين بموجب قرار وقعه مرلين ودواي وبرليه وبواسي دانغلا وكباساريس الذين صاروا فيما بعد يتزاحجون على نيل ابتسامة رضى من هذا الضابط الشاب الذي أساءوا معاملته .

إلا أنه كان بين مدبري حوادث ترميدور رجل لم يشأ أن يدع الدهاء الذي أظهره بونايرت في طولون يذهب سدى ، وكان اسم ذلك الرجل بونتيكولان وقد خلف أوبري في منصبه ، فانه من دون أن يبالي بعلامة الحزب السائد وانكاره عمله فوض الى بونايرت وضع الخطط الحربية .

وكان ذلك المركز الخامل الذي لا يلائم أخلاق جندي يري الحركة والمجد والضوضاء شروطاً لازمة لوجوده معتبراً مركزاً عالياً لذلك الضابط الشاب الذي شأوا الوقوف في وجه حظه رغبة في تضييطة عن المسير في جادة العلياء . وحدث بعد ذلك أن جعل ليتورنور دي لامانش خلفاً لبونتيكولان في رئاسة اللجنة الحربية ، وكان هذا الرئيس الجديد يبغيض بونايرت بغضاً شديداً ، فحينئذ فقد بونايرت مركزه ، وقنط من التغلب على ما كانوا يظهرونه له من الحسد والبغض ، فحول أنظاره عن الأرض الأورباوية الى الشرق مؤملاً أن يلتقى فيه مجالاً فسيحاً لدهائه وأهليته .

ونظم مذكرة بين فيها للحكومة الفرنسية انه من مصلحة الجمهورية عضد الباب العالي وتوفير وسائل الدفاع لديه ليتمكن من الوقوف في وجه مطامع

دول أوروبا ، وكان من جملة ما قاله في هذه المذكرة . « ان الجنرال بونايرت خدم المدفعية من حداثته وتولى شؤونها في حصار طولون وفي معركتين في ايطاليا وهو يقدم ذاته للحكومة لينطلق الى بلاد الدولة العثمانية بمهمة من لدن حكومته ...

وسيكون من وراء عمله هذا جر مغرم لوطنه ، واذا تمكن من تعزيز قوة الترك واحكام الدفاع في حصونهم المنيعة ، وبناء قلاع جديدة فيكون قد أدى « خدمة جديدة لبلاده » .

وقال المسيودي بوريان . « لو كان أحد كبار رجال الجندية قد ذيل مذكرة بونايرت بكلمة « فليعمل بموجبها » ، لكانت هذه الكلمة قد غيرت وجه أوروبا . ولكن لم تذيل المذكرة بالكلمة المذكورة ، فان مشاغل الاحزاب السياسية الداخلية وتطاحناتها حالت دون اهتمام الحكومة بهذه الخطة الحربية لانها لم تكن على ثقة من نجاحها . فلم يجد بونايرت بداً من البقاء في باريس بلا عمل .

الا أن الثورة لم تجعله ينتظر مدة طويلة ، فان الحزب الملكي هب من سباته وقد جرأته حوادث ترميدور ، فتدخل مع الاحزاب الباريسية محرضاً اياها على التمرد على حكومة الكنفنسيون فأصاب الثائرون الظفر في بدء الامر لان الجنرال مينو المتهم بالخيانة والعجز عن النهوض باعباء مهمته سهل للثائرين سبيل الفوز وقد كان مفوضاً اليه أمر مقاتلتهم وتمزيق ثملهم . وتذكر رجال حكومة الكنفنسيون أنهم أبعدوا عدداً كبيراً من الوطنيين المتهمين بنار الفيرة الوطنية ، وفصلوا من مناصبهم فريقاً آخر منهم ، والقوا في ظلمات السجن جماعة أخرى منهم ، ومع ذلك لبى الجمهوريون المضطهدون نداء مضطهديهم وهبوا الى حمل السلاح لدفع الخطر العام ، ولكن كان الجيش المتألف خفاة يعوزه قائد بعد اخفاق مينو والقاء القبض عليه . فاختير باراس قائداً الا أنه لم يكن قادراً أن يتولى القيادة أسمى ، وكان هو نفسه يدرك هذا الامر ، فأتخذ له معاوناً قائداً خبيراً بفن الحرب ، وكان هذا القائد نابوليون بونايرت . فجاز الكنفنسيون هذا الاختيار باصداره قراراً سمعه بونايرت وهو قاعد في المجلس في الموضوع المخصص لعامة الناس . وجاء في « مفكرة القديسة هيلانة » ان بونايرت

بقي نحواً من نصف ساعة يفكر في أمر قبوله أو رفضه المنصب الذي انتدبوه اليه . فلم يكن ميالا الى مقاتلة رجال القنده أو عاقداً عروة عزمه . بلا تردد على محاصرة الداريسيين ولكنه قال في نفسه . لو سقط الكنفنسيون فاذا يكون من أمر مبادئ ثورتنا الكبرى ؟ فان انتصاراتنا العديدة ودماعنا الغزيرة المسفوقة في معارك كثيرة لا تبقى معتبرة سوى أسباب تبحر الينا الذل والعار ، فالأجنبي الذي ظفرنا به غير مرة ينتصر في نوبته ويحجزنا كؤوس المهانة والاحتقار . . . وعليه فان فشل الكنفنسيون ينيل الاجنبي فوزاً مهيئاً ويكيل الوطن بأدام العبودية والصغار . وحينئذ صمم بونابرت على خدمة الكنفنسيون مدفوعاً الى ذلك بعوامل شبيبهه وثقته بنفسه واستسلامه الى حظه

وكان عزم بونابرت على الانتصار للحكومة وخيم التبعة على مثيري القلاقل ، فتقطع نظام الجيش الباريسي بعد عراك دام بضع ساعات وأخذت نائرة الفتنة

وكافأ الكنفنسيون مخلصه بتسميته اياه قائداً أكبر للجيش الداخلي ومن ذلك اليوم صار بونابرت يرى ان القوة الجنديّة في فرنسا أصبحت في قبضة يده وانه ابتداءً يصعد أول درجة من السلم التي ارتقى عليها الى العرش بتوليّه لقيادة العليا في العاصمة

فما كان أعظم ما طرأ على حظه من التغير في أربع وعشرين ساعة ! فقد كان في ١٢ فنديميار من المنضوب عليهم وقد ألم به القنوط لاضطراره الى حصر قوة عقله في داخله ، وجعلته المصاعب والمراقيل يشك في أمر مستقبله . وزح تحت انقال المتاعب السياسية فاستهوته راحة الحياة البيئية ولذتها . ولما انتهى اليه نبأ اقتران أخيه يوسف بكريمة أكبر تاجر في مرسيليا قال . هنيئاً ليوسف !

وفي ١٤ فنديميار تغلبت قوة ارادته على ضعفها وثابت اليه شدة صميمته ، فان المنضوب عليه بالامس أصبح صاحب الامر والنهي في الغد ، وصار النقطة المركزية لجميع الدسائس والمطامع كما كان روحاً لجميع الحركات . ولا يخفى ان الظافر بالاحزاب الباريسية كانت فرنسا الجديدة ترفع رايته ، وحيث لم يكن فوقه سوى جماعة شاخ أفرادها بسرعة باتيان الحركات الخطيرة وتسخير المقصلة

لا هوأئهم وأميا لهم علق على طالعهم الميمون حظ الثورة التي لم يبق نجم الكنفنسيون المائل الى الافول يهديها بمثل البهاء الذي كان يهديها به في صدر عصر الحرية وكان أول أمر باشره بونايرت انقاذ حياة مينو وقد كانت الاحزاب تريد اهلاكه. ومع ما كان عليه بونايرت من الاعتدال في أعماله لم يستطع المغلوبون ان يفضوا النظر عن فشلهم ويصفحوا عنه لانه كان المسبب لخذلانهم ، وقد اقتصر انتقامهم منه على اطلاقهم عليه تهكما لقب « المدفعي »

وكان الشعب الباريسي قد جرحت عواطفه وأصابه ذل شديد وتلت تلك الحوادث مجاعة زادت في طنبور استيائه نغمة وجعلته ينفر من رجال الجندية لأنهم أوصلوه الى هذه الغاية . وروى المسيودي لاس كاس انه حدث ذات يوم ان توزيع الخبز قل عن المادة المألوفة فتجهمر القوم على أبواب الافران ، وكان بونايرت ماراً ومعه بعض نفر من أركان حربه تفقداً للراحة العامة ، فاحتشد حوله جمع غفير ومعظمه من النساء ووقفوا في طريقه طالبين منه الخبز ، وكان الهياج يزداد والجمهير تكثر وفي الافواه الفاظ التهديد ، فحسب بونايرت لذلك الامر الف حساب ، وقد استازت من بين تلك الجوع امرأة بصخبها وبذاءة لسانها ، وكانت على جانب عظيم من السمن فجعلت تصيح بملء شديها وهي تشير بيدها الى بونايرت ورجاله وتقول « ان جميع هؤلاء الجنود يهزأون بنا . فحسبهم ان يأكلوا ويشربوا ويتنعموا ويسمنوا ولا يهمهم شيء سواء أعاش الشعب أو مات من الجوع » فانتهرها بونايرت قائلاً لها « ياخاله انظري الي ، من من الاثنين أسمن من الآخر ؟ » وكان بونايرت هزيعاً لا حاري الاشاجع ، وقد قال هو عن نفسه « انه لم يكن فيه سوى الجلد والعظم . » ولما سمع القوم كلام بونايرت قهقهوا ضحكاً وتفرقوا ، واستأنف بونايرت ورفاقه مسيرهم

وكانت خطورة الحركات الثورية في شهر فنديميار ووفرة التذمر الذي كان يرتفع من كل جهة من جميع الاحزاب ضد حكومة الكنفنسيون داعياً الى نزع السلاح من القوم . وبينما هذه الامور تجري جاء فتى في نحو الثانية عشرة من عمره والنمس من القائد الاكبر ارجاع سيف أبيه اليه . وكان أبوه من قواد جيوش الجمهورية . واسم الفتى أوجين دي بوهارنه فأجاب بونايرت طلبه وأحسن معاملته . فبكى الفتى من فرط سروره وأخبر والدته ما كان من صنيع

ذلك القائد معه ، فرأت من باب اللياقة أن تمضي اليه وتسدي فروض الشكر له . وكانت عقيلة دي بوهارنه فتية وحسنة . فلم تخفى في تلك الزيارة المحاسن التي كان القوم يقدرونها حق قدرها في جميع الاندية الباريسية . فكان لتلك الزيارة وقع عظيم في قلب بونابرت حتى انه صمم على توثيق عرى المودة بينه وبين تلك السيدة ، فكان يقضي عندها جميع سهراته ، ويجتمع في ناديا بكثيرين من بقايا النبلاء الذين كانوا يسرون كثيراً بمعاشرته ذلك الشاب ، ويلقبونه بالمدفعي الصغير . ولما كان الساهرون يبرحون منزل عقيلة دي بوهارنه ويبقى فيه بعض الاصدقاء الحميمين كالسيو دي منتسكيو الشيخ والدوق دي نيفرنه كانوا يدرون رضى الحديث سراً على البلاط القديم وينتقلون بالفكر الى فرسايل . ومن الغريب أن يكون بينهم ذلك الشاب ، ولكن يتعجب الذين لا يعلمون ما كان يجريه منذ ذلك الحين من جهة الرسميات مع أنه لم يكن قد تغير عما كان يشعر به من الاحتقار الذي أوحته اليه الفلسفة لمثل تلك الاشياء ، وكان يقذف الذعر على فؤاد الارستوقراطية الاوربية بصفة كونه ممثل الثورة الفرسوية الكبرى .

ولم تكن علاقة بونابرت بجوزفين دي بوهارنه علاقة صداقة محضة ومعرفة بسيطة ، فقد دخل على قلبه حب شديد لتلك السيدة ، واعتبر زواجه بتلك المرأة التي كانت يحبها مجلبة للهناء اليه . فاقترن بها في ٩ مارس سنة ١٧٩٦ . وكانت احدى الزنجيات قد تنبأت لجوزفين بأنها تصير ملكة ، وهذا ما كانت جوزفين تحب دائماً أن تروييه من دون أن تظهر أنها لا تعتقد صحته . وكان اقترانها ببونابرت خطوة أولى أدتها من تميم تلك النبوءة .



الفصل الخامس

— حرب إيطاليا الأولى —

وكان شهرار القائد الاكبر لجيش إيطاليا قد عرض قوة الجمهورية وشرفها للفشل بما أبداه من سوء الإدارة والضعف في ميدان الحرب ، فهلك ما كان عنده من الجياد لنفاد العلف ولاحتياج الجيش الى كل شيء ، ولم يبق قادراً على البقاء في جنوى . فعمد الديركتوار الى اصلاح ذاك الخلل بارساله اليه قائداً جديداً يغنيه عن المؤونة والمال وكثرة الرجال ، وكان ذلك القائد نابوليون . بونابرت ، فسددهاؤه مسد كل شيء

وخرج بونابرت من باريس في ٢١ مارس سنة ١٧٩٦ تاركا قيادة جيش الداخلية لقائد طاعن في السن يقال له هاتري

وكانت خطته الحربية مدبرة ، فأزعم دخول إيطاليا بطريق الوادي الفاصل بين جبال الالب وجبال الابنين ، والتفريق بين الجيش النمساوي السرديني باكرامه الجنود الامبراطورية على الدفاع عن ميلانو ، والعساكر البيامنتية على الذود عن عاصمتهم . ووصل الى مدينة نيس في آخر شهر مارس ، فنقل الى البمنا مركز أركان الحرب العام الذي كان في نيس منذ ابتداء القتال . ولما عرض بونابرت الجيش للمرة الاولى خاطبه قائلاً .

« أيها الجنود ، أنتم عريانون وجائعون ، الوطن مدين لكم بأشياء كثيرة ولكنه عاجز عن امدادكم بشيء . فصبركم وما أظهرتموه من البأس بين هذه الصخور يقضيان بالعجب العجيب ، الا انهما لا يستطيعان ان يحجرا اليكم شيئاً من الفخار . وقد أثبت لامضي بكم الى أخصب أرض في المعمورة ، وستقع في أيدينا أقاليم غنية ومدن عامرة فتصيبوا فيها ثروة واسعة وشرفاً سامياً ومجداً أتميلاً . فياجنود إيطاليا هل تموزكم البسالة والشجاعة ؟ »

فكان لذلك الكلام هزة طرب ورنه ابتهاج في الجيش ، وأحيا موات الامل في الافئدة . فاعتنم نابوليون الفرصة من تلك الحماسة ليخاطب مجلس الشيوخ في جنوى بلهجة غنيمة طالباً منه الترخيص لرجاله بعبور البختا وتسليم مفاتيح غافي . وفي ٨ ابريل كتب الى الديركتوار ما يأتي :

« لم أجد الجيش محتاجاً الى كل شيء خُشب بل وجدته خالياً من روح النظام ومرتداً على رؤسائه . وقد بلغ منه الاستياء مبلغاً عظيماً جعل بعض الاوشاب يدخلون عليه مبادئ مخالفة لمبادئنا . فانشأت بينهم فصيلة سميت باسم ولي العهد ، وصاروا يتغنون بأناشيد مخالفة للروح الجمهوري . . . وثقوا الآن بأن السلام والنظام سيعودان الى مجراها . وحين يصل اليكم هذا الكتاب نكون قد أصلينا نار الهيجاء . »

وجرى كل شيء على ما زعمه بونابرت وجا هو به ، وكان جيش الاعداء يقوده بوليو وهو قائد هام أصاب شهرة بعيدة في حروب الشمال . فلما انتهى اليه أن الجيش الفرنسي الذي كان حتى ذلك الحين قد لازم بجهد وعناء خطة الدفاع انتقل فجأة الى خطة الهجوم ونهياً للعبور بجرأة بمدخل ايطاليا ، بادر الى مغادرة ميلانو والاسراع الى نجدة جنوى . فنزل في نوفي حيث أقام أركان حربه ، وقسم جنوده الى ثلاثة فيالق . وأذاع نشرة أرسل القائد الفرنسي نسخة عنها الى الديركتوار قائلاً انه سيجابو عليها في غد اليوم الذي تنشب فيه المعركة بين الجيشين .

ووقعت تلك المعركة في ١١ ابريل في منتنوت ، ونال فيها القائد الجمهوري انتصاره الاول المنتمي اليه أصل شرفه .

ولم تكن المعارك الاخرى التالية سوى سلسلة انتصارات باهرة . ففي ١٤ ابريل انتصر في مليسيمو ، وفي ١٦ منه في داغو ، وقد أصاب ثلاثة انتصارات في أربعة أيام ، ونظم في مساء اليوم الذي جرت فيه واقعة داغو تقريراً بين فيه للديركتوار وقائع أعماله المجيدة والسريعة منوهاً بالأعمال الخطيرة التي أنأها رفاقه كجوبير وماسينا وأوجرو ومينار ولاهارب ورامبون ولان الخ ، ومن جملة ما جاء في ذلك التقرير الفقرات التالية .

« أسرنا في هذه الموقعة ٧ آلاف الى ٩ آلاف مقاتل بينهم ليوتنان جنرال وعشرون أو ثلاثون كولونيلاً أو ليوتنان كولونيل .

« ويتفاوت عدد قتلى العدو بين ألفي محارب وألفين وخمسة مئة محارب .

« وسأبسط لكم في أول فرصة تفصيل حوادث تلك الموقعة المجيدة ذاكراً أسماء الابطال الذين امتازوا فيها »

« وأنفذ الجنرال كولي قائم ميمنة الاعداء كتاباً الى بونابرت يطلب به منه اطلاق سراح سفير كان قد أرسله اليه ، وهو مهاجر فرنسوي يدعى مولان ، وتوعده بأن يلتقم لذلك المهاجر من الضابط برتلبي الذي سقط أسيراً في أيدي النمساويين . فأجابه الجنرال الفرنسي قائلاً . « ان المهاجر يعتبر مرتكباً جناية القتل بحق أبيه الذي هو وطنه ، وعليه فلا تدفع عنه العقاب أدنى صفة من الصفات ولعمر الحق ان من أنفذ الميسو مولان سفيراً له يكون قد خالف أصول الشرف . ولم يرع حرمة الشعب الفرنسي . فأنت خبير بقوانين الحرب ، ولا أعتقد انك تضع موضع الاجراء تهديدك إياي بالانتقام من الضابط برتلبي أسيركم . وان أنت تجاوزت من هذه الجهة حدود الشرائع المسنونة للحرب أنزلت أنكا العقوبة بجميع النمساويين الاسرى عندنا ، وإن أكن أحترم جميع ضباطكم احترامى للجنود الشجعان »

ولم يكن تهديد بونابرت كلمات فارغة ، فقد كان في حوزته عدد كبير من النمساويين الاسرى . وكان جوابه لكولي في ١٨ ابريل

وكان من نتيجة الاعمال الباهرة التي اشتهرت فيها للمرة الاولى اسماء جوير وماسينا وأوجرو تقطيع نظام مؤخرة الاعداء التي يتولى قيادتها بروفيرا واجبارها على التسليم ، والحيولة دون انضمام النمساويين الى البيمنتيين ، وفتح طريقي ميلانو وطورينو في وجه جنود الجمهورية

ولما بلغ القائد الفرنسي الاكبر مرتفعات منتيزيموتو التي احتلها أوجرو في اليوم نفسه الذي اضطر فيه سروريه القائد كولي الى مغادرة سيفيا التي كان قد اتخذها معسكراً له ، دل جيشه من ذلك المكان على القمم الشاخنة المغطاة بالثلج والمشرقة على سهول البياضات الخصيبة ، وقال وهو يشير بيده الى تلك القمم . « حنبيعل اجتاز جبال الانب ونحن درنا حولها . »

وفي ٢٢ ابريل انتصر بونابرت انتصاراً جديداً ، فعبر نهر طانارو واستولى على حصن بيكوك وغنم مندوفي ومخازنها . وفي ٢٥ منه سقطت شيراسك في أيدي الجيش الفرنسي ، وكان فيها مدافع فعزوا حاميتها . وفي ٢٨ منه تم توقيع هدنة حربية

وكان الجنرال بونابرت قد جاب في ٢٤ منه الجنرال كولي بهذا الكتاب :



نابوليون بوناپرت قائد جيش ايطاليا

« ان حكومة الديركتوار الاجرائية قد احتفظت لنفسها حق عقد الصلح ،
فبناء عليه يجب على المندوبين المفوضين من لدن الملك مولاك ان ينطلقوا
الى باريس أو ان ينتظروا في جنوى وصول المندوبين الذين تسلمهم اليها
الحكومة الفرنسية »

« ان موقف الجيشين الحربى والأدبى يجعل توقيف رحى القتال توقيفاً
مجرداً وبسيطاً في حكم المستحيل ، وإنى مع اعتقادى بأن حكومتى تمنح ملككم
شروطاً شريفة للصالح لا أستطيع توقيف زحفي بجنودى استناداً الى تخمينات
مبهمة . ومع ذلك لدينا واسطة تمكننا من الانتهاء الى غايتك وهي ملائمة لمصلحة
حكومتك ومن شأنها حقن الدماء التي أصبح سفكها على غير جدوى وصار مخالفاً
لاسباب الحرب وقوانينها . وذلك بأن تسلمني حصنين من الحصون الثلاثة وهي
حصون كوني والاسكندرية وطرطون ، ولك الخيار في ذلك . »

وكان بعد ذلك ان قد أسلم حصنا كوني وطرطون للجمهوريين وأضيف
اليهما حصن سيفا ، وحينئذ عقدت الهدنة .

ما أكرر الحوادث التي جرت في خلال شهر من الزمان ! فلم تبق الجمهورية
خائفة على ثغورها وحدودها ، بل صارت تقذف الذعر على الملوك الذين كانوا
يهددون في ماضي الحين . وسأقت اليهم الرعب وهم في عواصمهم . وقد تم ذلك
التغير بسرعة عجيبة من دون ان يد بونا بورت بنجديات جديدة ، فانتصر بذلك
الجيش الذي كانت المشقات قد أنهكته والذي لم يكن عنده مدافع وفرسان
وذخاير ومؤن كافية . وكان ذلك الامر بمثابة معجزة أتاها دهاء ذلك الرجل
العظيم ، وحسنة من حسنات الحرية التي قدمت له جنوداً وقواداً جديرين به

وبهت الاجانب عند رؤيتهم تلك الأعمال الكبيرة . وكان الجيش الفرنسي
المعجب بقائده الشاب قلقاً من جهة مستقبله مع جره ذلال الانتصار الذي
لم يسبق له نظير ، وقد فكر بضعف الوسائل التي لديه والتي يقضى عليه بالتخاذه
لاستئناف المسير على الطريق الذي خطه له الحظ ، ومعالجة فتح ايطاليا مع
ما يصحب تلك الحال من المضاعب التي لا تذلل . فعمد بونا بورت الى ازالة تلك
الخواف واضرام نيران الحماسة في قلوب رجاله ، فأذاع وهو في شيراسك
النشرة الآتية .

« أيها الجنود ، لقد أصبتم في خمسة عشر يوماً ستة انتصارات ، وغنمتم احدى وعشرين راية وخمسين مدفعاً ، وفتحتم مواقع عديدة حصينة ، واستوليتم على أخصب بقعة من قطعة البيامنت ، وأسرتم خمسة عشر ألف جندي ، وقتلتم وجرحتم أكثر من عشرة آلاف مقاتل ، ولكنكم لم تحاربوا حتى الآن الا لاحراز صخور صماء لاتفيد الوطن شيئاً ، وقد ضارعتكم ببسالتكم الجيش الذي دوخ هولندا وأنحاء الرين . ومع احتياجكم الى كل شيء استغنيتم بجهراؤكم عن كل شيء . انتصرتم في المعارك ولا مدافع معكم ، عبرتم الأنهار وليس عليها جسور ، جريتم مسافات طويلة وأنتم خفاة ، نزلتم المعرّس وليس عندكم خمر وفي غالب الأحيان لم يكن عندكم خبز ، ولا يستطيع ان يحتمل مثل هذا النوع من شظف المعيشة إلا جنود الجمهورية وجيش الحرية

« الوطن المعترف بالجميل مدين لكم بشطر من هنائه وراحته . وان كنتم عند فتحكم مدينة طولون قد أملتُم نيل انتصار باهر كالذي اصبتموه في معركة سنة ١٧٩٣ وقد خلدت اسمكم ، فانتصاراتكم الحالية تجعلكم تعملون النفس بأمل الحصول على انتصارات أعظم وأكبر

« ان الجيشين اللذين كانا في ماضي الحين يقاثلانكم بكل جرأة وبسالة يهربان الآن أمامكم وهما لا يوليان على شيء . وان اللثام الذين كانوا يهزأون بشقائكم ويسرون في قلوبهم بانتصار اعدائنا خذلوا وباتوا والرعب ملء جلودهم ولكن اعلموا أيها الجنود أنه لا ينبغي لي أن أكنتم عنكم شيئاً ، فأقول لكم انكم لم تفعلوا شيئاً حتى الآن ، فقد بقي أمامكم أشياء كثيرة لاندحة لكم عن قضائهم . فلاطورينو ولا ميلانو تخصانكم . ولا يزال سفاحو باسفييل يدوسون بأقدامهم رفات غاهري تركينوس

« وقد كنتم في بدء هذه الحرب مفقدين الى كل شيء ، فأصبح الآن كل شيء متوفراً عندكم ، فالتخازن التي غنمتموها من أعدائكم كثيرة ، وقد وصلت اليكم مدافع الحصار ومدافع القتال . أيها الجنود يحق للوطن أن ينتظر منكم أمورا خطيرة ، فهل تحقّقون انتظاره ؟ أجل . ان اعظم المصاعب ذلت ، ولكن بقي عليكم معارك عديدة لابدلكم من خوض غمراتها ، ومدن كثيرة يجب عليكم فتحها ، وانهار يقضى عليكم عبورها . فهل بيننا من يرق جانبه ، وهل بيننا

من يؤثر الرجوع الى قم الأبنين والالب لتجرع كؤوس المذلة من ايدي أولئك الجنود الاجلاف ؟ لا لعمرى ، ما من احد من مثل هؤلاء بين المنتصرين في معارك منتوت ومليسيمو وداغو ومندوفي . فالجميع على السواء ملتهبون بنار الرغبة في حمل مجد الشعب الفرنسي الى الاقاليم البعيدة المزار ، والجميع يعملون الى تحقير أولئك الملوك المتفطرسين الذين تجرأوا على التفكير باعداد قيود العبودية لنا ، والجميع يريدون أن يجبروا العدو على ابرام أسباب صلح مجيد يكون فيه تعويض للوطن عما ناله من فادح الخسارة . أيها الاصحاب اني اعدكم بنيل هذا الفتح المبين ، ولكن تحت شرط لا بد لكم من التقيد به . وهو ان تحرموا الشعوب التي تنقذونها من نير العبودية ، ولأننا نأشأ شيئاً من السلب والنهب شأن الاوشاب الذين يحرشهم اعداؤكم على اتيان مثل هذه الاعمال المنكرة وان اتم فعاتم غير ذلك لاتكونون مخلصين لأولئك الشعوب بل تكونون ضربات شديدة عليهم ، ولاتكونون فخراً للشعب الفرنسي بل تجعلون هذا الشعب يتبرأ منكم فنفقد جميع ثمار انتصاراتنا الباهرة وبسالتنا المشهورة ونجاحنا الممتاز ودماء اخواننا المسفوكة في ساحة الوغى وشرفنا وفخرنا اللذين نضن بهما . وانا والقواد الذين أحرزوا ثقتكم تحمرو وجوهنا خجلاً من تولي قيادة جيش نبذ النظام وراء ظهره ولم يعرف له حدا يقف عنده وقانوناً يسير عليه غير قانون القوة . وسأندرع بالسلطة الوطنية واستمد القوة من العدالة والشرعية واجعل تلك الفئة الصغيرة من الناس الخالين من الشجاعة ونبالة المقاصد تحترم شرائع الانسانية وقوانين الشرف التي كانت تدوسها بأقدامها . فلا طيق ابدا ان اشاهد الاوغاد تدنس غبار المجد الذي اصبتموه ، ولا تردد عند مسيس الحاجة في وضعي موضع الاجراء القانون الذي سننته . فالتهايون ينصبون هدفا للرصاص وقد اجريت حكم هذا القانون بحق اشخاص جنحوا عن الطريقة المثلى ، فتنسى لي ان لاحظ والهجة تفيض من فؤادي ان الجنود الابل كانوا يتسابقون لاجراء الاوامر الصادرة لهم بهذا الشأن

« يا شعوب ايطاليا ، قدم اليكم الشعب الفرنسي لتحطيم الاغلال التي ترسفون بها . فهو صديق لجميع الشعوب نخفوا بكل ثقة لملاقاته واكرام وفادته ، فتحترم املاككم وديانتكم وعاداتكم . ونحن نحارب كاعداء كرام ولا نتمتع الاذنى الا

للطغاة الذين يستعبدونكم ويستذلونكم»
وكانت هذه اللهجة تدل على ان بونابرت كان اكثر من قائد عظيم فانه
كان داهية من دهاة السياسة المحنكين يشعر بانه مقدر له ان يكون فاتحاً
ومشترعاً، وان يبذل المجهود لاستشارة الميل اليه في أفئدة الشعوب بمقدار
ما كان يستثير فيها من التعجب منه والاعجاب به ، وذلك بأن يذيع ان جلّ
غايته من تلك الحرب انقاذه اياهم من أيدي الظلام ، ومعاقبته العتاة ، واحترامه
لديانتهم وعاداتهم

وكان بونابرت على بعد عشرة فراسخ عن مدينة طورينو حين كان يتكلم
بمثل هذا الكلام المعتبر بمثابة مفتاح فتح في وجهه أبواب إيطاليا . فأثر في
فؤاد ملك سردينيا حتى انه فاوضه مفاوضة علنية بعقد الصلح ، وقد ابتدأت
تلك المفاوضة عند سلاطوريس قيم قصر الملك . ولما صار نابوليون امبراطوراً
جعل سلاطوريس قيماً لقصره . وعقدت في شيراسك الهدنة التي مر الكلام
عليها ، ومن جملة شروطها ان ملك سردينيا ينسحب في الحال من المحالفة
ويرسل الى باريس سفيراً مفوضاً اليه ابرام أسباب الصلح النهائي . فأجرى ملك
سردينيا ذلك الشرط بالحرف ، لان جيش الجمهورية كان يضايقه عن كشب
ولا يدع له مجالاً للاخلاف بوعده . فأنفذ الكونت ريفل الى باريس مزوداً
اياهم تعليمات سامية . وأمضى بونابرت من قبله الضابط مورات الى باريس مفوضاً
اليه ابلاغ أخبار الانتصارات المعتبرة مقدمة للحرب . وكتب الى الديركتوار
« اعتقدوا الصلح مع ملك سردينيا بشروط الغالب على المغلوب . . . فان
نؤيتم خلعه عن العرش فأهلوه عدة أيام توقفوني في أثناءها على ما تكونون
قد صممتم على اجرائه ، وأنا أفتح فالنسه وأزحف الى طورينو . وحين أظفر
بيوليو أسير اثني عشر الف مقاتل الى رومية . . . »

واستقبل نواب الأمة هذه الرسالة بمنتهى الابتهاج والارتياح ، وقرروا
للمرة الخامسة في خلال ستة أيام ان جيش إيطاليا استوجب الشكر والمنة من
الوطن . وزاد في الفرح العام عقد الصلح مع ملك سردينيا في ١٥ مايو بشروط
ملائمة كل الملائمة للمصالح الفرنسية
ولما لم يبق أمام بونابرت سوى الجنود الامبراطوريين ليصلبهم الحرب

راجع رأيه فيما اذا كان يجب عليه ان يحفظ خط تيزين أو ينتقل الى الاديح
بالسرعة والجرأة اللتين القتا اليه بمقاليده أفضل المقاطعات في مملكة سردينيا في
بضعة أيام وقد ذكر في «مفكرة القديسة هيلانة» الاسباب التي كانت عواملها
تتجاذبه من كل جهة من الجهتين المذكورتين . فالرأي الاول مع انبثائه على
قواعد الحكمة والتعقل لم يكن ملائماً لموقف الجمهورية الحديثة النشأة التي لم
تكن تلقى منتدحاً عن التهويل على المحالفة الا بضربات متوالية ، واثيان
معجزات حربية متواصلة ، ولا لموقف القائد الشاب الذي كانت أخلاقه ومطامعه
تجعله يعقد عرى العزم على اتيان أمور تقتضي همة طالية واقداماً شديداً ،
وتسهل له تمهيد العقبات القائمة في وجهه . وزحف بونابرت بجنوده الى الامام
بعد ما كتب للديركتوار ، « غدا سأزحف لمقاتلة بوليو ، وسأضطره للعودة
على أعقابيه واجتياز نهر البو ، وسأعبره على أثره ، واستولي على لمبارديا كلها .
والامل اني سأصل الى جبال الطيرول قبل شهر من الزمان للانضمام الى جيش
الرين والعمل معه على محاربة بافاريا . »

وكتب في ٩ مايو الى كارنو أحد أعضاء الديركتوار

« عبرنا نهر البو ، وبأشرنا الموقعة الثانية ، فتوزعت بوليو المخاوف وصار
يخطيء في حسابه ، وينشب اني سار في الفخاخ المنصوبة له . وقد يكون ان هذا
الرجل يريد ان يوقد سعير معركة جديدة ، لان لهذا الرجل جرأة الحق وليس
جرأة الدهاء ومتى أوتينا النصر هذه المرة أيضاً نكون قد استولينا
على جميع ايطاليا . . . وما غنمناه من العدو لا تحصى قيمته ولا يحصر ثمنه . . .

وهاءنذا مرسل اليك عشرين صورة من صنع الكوريج وميكال انجلو

« أسدي لك الشكر على عنايتك الخاصة بزوجتي ، فانا أوصيك بها لانها

معروفة بصديق وطنيتها واخلاصها ، وأنا أحبها محبة تقرب من الجنون . »

وأصاب بونابرت في غد اليوم الذي خط فيه هذه الرسالة الانتصار الذي
كان يتوقعه والذي كان ينتظر من ورائه امتلاك ايطاليا . وقد صير هذا

الانتصار اسم لودي أشهر من نار على علم

وكان هذا الانتصار بمثابة مقدمة لفتح لمبارديا . فسقطت في بضعة أيام في

أيدي الجنود الفرنسيين بتزييفيتون وكريمونا وجميع المدن الكبيرة في مقاطعة ميلانو.

وكان بونابرت وهو يسمع في معسكره قعقة السلاح يهتم بالفنون من دون أن يرزح تحت أثقال الاعمال الحربية والسياسية ، ويطلب من الديركتوار ارسال مفوض من الصنائع ليسلمه الكنوز الفنية الثمينة التي دخلت بالفتح في حوزته . وقد نبذ فيما بعد هذه الكنوز التي كان يستطيع الاستئثار بها . ولم يقصر اهتمامه على الفنون وازدهارها بل كان يعنى أيضاً بكل ما يتعلق بنتائج العقل ومزاولة الآداب والعلوم ، ويعزز العمران الحديث وبعد عبوره نهر البو بخمسة عشر يوماً بين دوي مدافع لودي ودخان معركة مانطو انسحب من بين جنوده الذين كانوا يتزاحمون على تهنيئته واكرامه في ميلانو وكتب للعالم أورباني المشهور بمعارفه الهندسية الرسالة التالية :

« الى الوطني أورباني ،

» يجب أن يخصص محل في الحكومات الحرة للعلوم التي تشرف العقل البشري والفنون التي تزين الحياة وتنقل الاعمال العظيمة من الساف الى الخلف . فيعتبر جميع أصحاب الدماء ، وجميع الذين أصابوا مكانة في جمهورية علم الادب اخواناً بقطع النظر عن البلاد التي نشأوا فيها

» لم يكن العلماء في ميلانو متمتعين بما يستوجبونه من الاكرام بل كانوا معزولين في مختبراتهم ، وكانوا يعدون أنفسهم سعداء حين كانوا ينجون من شر الملوك وخدام الدين . وقد تغيرت الاحوال الآن وأطلق الفكر من عقالة في الديار الايطالية ، وأصبح ديوان التفتيش والاستبداد والتعصب الديني أترا بعد عين . فادع العلماء الى الاجتماع وبسط آرائهم في الذرائع المقضي عليهم التذرع بها ، أو الحاجات التي يفتقرون اليها لاهياء موات العلوم والفنون الجميلة ولينهجوا منهاجاً جديداً . وجميع الذين يميلون منهم الى انتجاع فرنسا تستقبلهم حكومتها على الرحب والسعة ، فالشعب الفرنسي يؤثر نيله عالمك رياضياً ومصوراً بارعاً ورجلاً ممتازاً . هما كانت الحرفة التي يزاولها على امتلاكه مدينة مشهورة بالعمران وكثرة السكان .

« فكن يا حضرة الوطني ترجمانا لهذه العواطف للعلماء الاعلام الذين في مقاطعة ميلانو — بونابرت — »

وكان القابضون بأيديهم على أزمة الشئون في الحكومة الجمهورية ينظرون بمقلة التحذر الى ما كان بونابرت قد أوثيه من الحكم الصائب والذوق السليم والاستعداد الطبيعي الممتاز والهمة العالية مما يتناول كل شيء ويدل على دهاء واسع ، مع ان أصدقاء فرنسا كانوا ينظرون الى تلك الصفات بطرف الاعجاب وأعداءها بعين التعجب . وكان الديركتوار يرى خلفاً له في ادارة الاحكام في شخص المنتصر في منتنوت ولودي ، ويبدل المجهود لا بعد العهد الذي يتم فيه ذلك الامر وجرى في وهم الديركتوار انه يدرك غايته بضمه قائداً ثانياً الى ذلك القائد الداهية الذي برهن بسلسلة انتصارات غير منتظرة انه يستطيع العمل والانتصار وحده . ولم يخطئ ظن بونابرت في ما كان الديركتوار ينويه بتعيينه كرمان معاوناً له ، وقد جاهر باستيائه من هذا الامر بكتاب سيره الى عضو من أعضاء الديركتوار كان هو يحترمه ويقدر أخلاقه وخدمه ومعارفه حق قدرها . ومن جملة ما كتبه في هذا الكتاب الذي أنفذه الى كارنو ما يأتي ، « لا أمري البتة في أن ضم كرمان الي في ايطاليا يفضي الى فقدان كل شيء ، فلا أستطيع أن اضطلع بالخدمة مختاراً بالاتحاد مع رجل يزعم أنه أول قائد في أوروبا ، وفضلاً عن ذلك اعتقد أن قائداً واحداً ضعيفاً يفوق قائدين محنكين فالحرب كالحكومة مسألة حكم صائب وذوق سليم »

وظل بونابرت بعد ارساله هذه الرسالة يعمل بما توحى اليه افكاره ، ويجري ما يرى اجراءه ملائماً . ودخل مدينة ميلانو في ١٥ مايو باحتفال باهر نادر المثال حين كانوا يوقعون في باريس وثيقة الصلح التي أكرهت حكومة سردينيا على عقدها بعد معارك منتنوت وداغو ومليسيمو ومندوفي

ولم يجرؤ الديركتوار على وضع مقاصده موضع الاجراء بضم كرمان الى بونابرت في تولي قيادة الجيش بل سمى كرمان حاكماً للاقاليم التي ضمت الى فرنسا بالوثيقة المبرمة بين الجمهورية الفرنسية وملك سردينيا وبقي بونابرت وحده مستقلاً بقيادة جيش ايطاليا

وكان اول أمر صرف بونابرت العناية اليه نقل مركز الحركات الحربية الى

الآديج واقامة الحصار حول مانطو . ولم يكن عدد الجنود الفرنسيين يزيد على ثلاثين ألفاً بيد أن جرأة قائدهم قذفت الذعر على افئدة رجال الحكومة النمسوبة ، ففكرت حكومة فيينا في الایعاز الى وزمر بترك ضفاف الرين والانطلاق الى ايطاليا بنجدة قوامها ثلاثون الف جندي من أفضل جنوده

ولم يكن بونابرت يجهل ان المعارك اليومية والامراض المختلفة تودي بحياة فريق كبير من جيشه وتقلل عدده وتضعفه ، فكان يبسط بالاسهاب واقع الحال في التقارير التي يمضيها الى الديركتوار طالباً منه ارسال مدد اليه ، واصدار الاوامر الى جيش الرين باجراء حركات حربية خطيرة تلهي النمسيين عنه . وكتب بونابرت بعد انتصاره في لودي الى كارنو . « كنت أظن ان رحى القتال دائرة على الرين ، ولو طال اجل الهدنة لهلك جيش ايطاليا على بكرة ابيه ، فيجدر بالجمهورية ان توقع الصلح في قلب بافاريا او النمسا المدهوشة مع الجيوش الثلاثة المنضمة »

وكان يحق لبونابرت ان يطلب مناصرة جيشي الرين وسامبر وموزله لانهم كانوا قد وعدوه عند مغادرته لباريس بأن ذينك الجيشين لايقومان بهذه المناصرة في منتصف شهر ابريل ولسكنهما لم يتحركا الا في أواخر شهر يونيو ، على أنه لو أجرى ذانك الجيشان حركاتهما الحربية قبل ذلك الحين لما تسنى لورمسر أن يرح المانيا ويصل الى ايطاليا بالنجدة التي قدمت معه .

ولم يصل الى بونابرت ما طلبه من المدد ، ويعزى السبب في تأخره الى عجز حكومة الديركتوار عنه أو الى سوء نيتها ، وحينئذ لم يلق القائد الفرنسي ندحة عن مقاتلته بثلاثين ألفاً جيشاً مؤلفاً من مئة الف محارب ، وقضت الحال عليه بأن يجد الوسائل التي تمكنه من اضعاف قوة العدو الكثير العدد ، فالتى في دهائه وحظه أكبر نصير في مثل ذلك الموقف الحرج . فتفنن في خطته الحربية من زحف وانسحاب وهجوم وتقهر وحركات تدل على الجرأة والسرعة كان يأمل أن يفرق بها بين الجيوش الثلاثة ثم يضم اليه متفرق شمله ويقاقل كل جيش منها على حدة فيظفر به . وكان الفوز التام نتيجة لتدابير ذلك القائد الكبير وتحقيقاً لآماله . وقد عضده في أعماله القواد والجنود الجمهوريون بما أوتوه من الدهاء والشجاعة . وبينما ورمسر يظنه أمام مدينة مانطو خلى حصار



صورة رمزية للنصر يكلل نابوليون بوناپرت

هذه المدينة وانتقل بسرعة البرق من البو الى الاديج ومن الكيازا الى المنشيو ، فسكأنه يتوزع ويوجد في الوقت عينه على التقريب في مصادمة جميع فرق العدو . وقد وفق الى تمزيق شمالها والظفر بها ظفراً مبيناً في وقائع متوالية أطلق عليها اسم « حرب الايام الخمسة » وجرت في صالو ولونادو وكستليونه الخ . وكان كوزنادوتش قائداً للنمسيين في معظم هذه الانكسارات ، وقد انكسر ورمسر عينه في وقعة كستليونه

واليك تفصيل هذه الحرب على ماخصها القائد الظافر وهو في ساحة القتال وأرسلها الى الديركتوار في ١٩ ترميدور من السنة السادسة (٦ أغسطس سنة ١٧٩٦)

« وصل من أيام العشرون الف رجل المرسله من جيش الرين النمسيو نجدة لجيش ايطاليا ، فأصبح هذا الجيش منيع الجانب بانضمام هذه الجنود اليه والى عدد كبير من الفصائل القادمة من النمسا . وقد قام في ذهن السواد الاعظم من الناس ان النمسيين لا يلبثون أن يدخلوا مدينة ميلانو . . .

« ولما انحدر الاعداء من الطيرول بطريق بريسيا والاديج أحاطوا بي من الجانبين ولا يخفى أن الجيش الجمهوري وان يكن ضعيفاً الى درجة لا يتسنى له معها مصادمة فرق العدو كان يستطيع أن يواقع كلا منها على حدة . فقضت على الاحوال أن يكون مركزي في الوسط . وكان ميسوراً لي بتقهقري بسرعة تطويق فرقة الاعداء النازلة من بريسيا وأسرها والظفر بها ، والعودة من هناك الى المنشيو لمقابلة ورمسر واجباره على العودة الى الطيرول الا أن اجراء ذلك كان يقتضي رفع الحصار عن مانطو بمدة اربع وعشرين ساعة وكانت هذه المدينة قد اوشكت أن تسقط في حوزتنا ولم يكن من سبيل للتأخرست ساعات . وكان ذلك الأمر يقتضي عبور المنشيو في الحال والحيلولة دون تمكين فرق العدو من الاحاطة بي . وأتى الحظ ذلك التدير فكان من نتيجته معركة دزنتزانو ومعركة صالو ومعركة لونادو ومعركة كستليونه . . .

« والتقينا بالعدو في ١٦ منه عند الفجر . وتلقى الجنرال غيو في ميسرتنا أمراً بالهجوم على صالو . وكان مقضياً على الجنرال ماسينا في الوسط ان يهجم على لونادو وأوعز الى الجنرال أوجرو في الميمنة بأن يهجم على كستليونه .

وهجم العدو على طليعة ماسينا في لوندو بدلا من ان ينتظر الهجوم عليه . وكانوا قد أحاطوا بها وأسروا الجنرال دييجون وغنموا منها ثلاثة مدافع من البطاريات التي تجرها الخيل ، فتألفت حينئذ من نصف الفصيلة الثامنة عشرة والفصيلة الثانية والثلاثين كتيبة متلازمة ، وبينما نحن نهجم على العدو مبتغين خرق صفوفه كان هذا العدو يمتد شيئا فشيئا ليكتنفنا ، وقد بانت لي حركاته ضامنا حقيقيا لنيل الغلبة ، وسبر ماسينا بعض الرماة الى جناحي العدو ليثبطه عن التقدم ووصلت الكتيبة الأولى الى لوندو وأغارت عليه ، وهجمت الفصيلة الخامسة عشرة من الدراغون عليه واسترجعت منه مدافعنا . وما عم ان أصبح ممزق الشمل ، فأراد ان ينسحب الى المنشيو ، فأمرت في الحال جنودنا حاجي بأن يتعقبه زاحفا اليه بفصيلة الهداة حتى يدركه في دزنتزوانو ، فالتقى بالكلول بندر وقسم من فصيلته وهجم عليه ولكنه لم يشأ ان يضيع الوقت بالهجوم على مؤخرة العدو بل دار حوله من جهة اليمين وأغار على المقدمة فخرح الكلول بندر وهم بأسره ولكنه أبصر العدو يحيط به ، فتلقاه بقلب كالجمود وقتل منه بيده ستة جنود ، وخانه الجد فسقط في أحد الخنادق مصابا بستة جروح بالسيف ، وقد أخبرت انه لا يزال حيا يرزق .

« وكان العدو ينسحب نحو صالو ، وحيث ان صالو كانت في حوزتنا تمكنا من أسر تلك الفصيلة الهائلة على وجهها في الوهاد والآكام . وكان أوجرو في أثناء ذلك الحين يزحف الى كستليونه فاستولى عليها وظل سحابة نهاره يواقع عدوا تفوق قوته ضعفي قوته . وقد قام المدفعيون والمشاة والفرسان خير قيام بأعباء الواجب عليهم ، وانكسر العدو شر كسرة في كل جهة في ذلك اليوم المشهور ، وفقد عشرين مدفعا ، والني رجل الى ثلاثة آلاف رجل بين قتيل وجريح ، وأربعة آلاف أسير بينهم ثلاثة قواد . »

« وكان ورمسر سحابة اليوم السابع عشر مهتما بلم فلول جيشه ، وايصال الجند الاحتياطي ، واخراج ما يمكن اخراجه من مدينة مانطو ، وصف رجاله للقتال في السهل بين قرية سكانلو حيث كانت ميمنته وانكيازا حيث كانت

ميسرته

« ولم يكن حظ ايطاليا قد تقرر بعد نهائيا ، فجمع فيلقا قوامه خمسة

وعشرون الف محارب ، وعددًا كبيراً من الفرسان ، وتوهم انه لا يزال قادراً على التمرس بالبيخت . فأصدرت الأوامر بضم متفرق جميع كتائب جيشنا .

« وتوجهت بذاتي الى لوناو لارى ما يمكنني أخذه منها من الجيش . ولشد ما كان دهشي عند دخولي هذا المكان حين وافاني مندوب من قبل العدو يدعو قومندان لوناو الى التسليم مهولاً عليه بأحاطة جيش العدو به من كل جهة . والحق يقال ان ديادبة فرساننا أخبروني ان عدة كتائب من الاعداء كادت تتمرس بخفرائنا ، وان طريق بريسيا عند لوناو كان مسدوداً في جهة جسر سان ماركو . فخال في خاطري على الفور ان أولئك الجنود لم يكونوا سوى فلول الفصيلة المتقطع نظامها وانهم بعد ما تاهوا ضموا متصدع شملهم وعمدوا الى اخراق صفوفنا مجتازين الى الوجهة التي توخوا المسير اليها

« وأبهم عليّ الأمر لانه لم يكن معي في لوناو سوى الف ومائتي رجل ، فأمرت بالمندوب ان يمثل أمامي وعلى عينيه عصابة ، وقلت له . اذا كان قائدكم يطمع بالقبض على قائد جيش ايطاليا فما عليه الا أن يسرع في التقدم وبحجب عليه ان يعلم اني أنا الآن في لوناو لان جميع الناس يعلمون ان جيش الجمهورية فيها ، وان جميع قوادكم وضباطكم مسؤولون عن الاهانة الشخصية التي وجهها قائدكم الاكبر اليّ . وقلت له أيضاً ، اذا لم تسلم فرقتكم سلاحها في خلال ثماني دقائق فلا أشفق على أحد منها .

« فدهش المندوب من رؤيتي في ذلك المكان ، وما كان الا دقائق حتى سلمت تلك الفرقة سلاحها ، وكانت مؤلفة من أربعة آلاف جندي معهم مدفعا وخمسون فارساً ، وقد قدمت من غافاردو باحثة عن معبر تنجو به . ولما لم يتيسر لها العبور بطريق صالو في الصباح تخيرت العبور بطريق لوناو .

« وقابلنا الاعداء عند فجر اليوم الثامن عشر وكانت الساعة السادسة صباحاً ومع ذلك لم يكن أحد يتحرك . فجعلت جميع الجيش يتقهقر رغبة بمجر العدو اليّنا ، وجاء في خلال ذلك الحين من مركاريو الجنرال سروريه وكنت أنتظر قدومه ، ودار حول ميسرة ورمسر . وكان من وراء تلك الحركة قسم من النتيجة المنتظرة فكان ورمسر يميل الى ميمنته ليراقب حركاتنا .

« ولما لمحنا فصيلة الجنرال سروريه بقيادة الجنرال فيورلا تهجم على الميسرة

أمرت الجنرال فرديار بالهجوم على حصن شيده العدو في وسط السهل دفاعاً عن ميسرته . وأوعزت الى مرمون حاجبي أن يصوب على الاعداء عشرين مدفعاً من المدافع الخفيفة ، ويضطرمهم الى ترك ذلك الموقع الخطير . واضطرت ميسرته الى الانسحاب بعد اطلاق القنابل عليهم اطلاقاً عنيفاً وهجم أوجرو على وسط جيش العدو الحامي ظهره ببرج سلفرينو ، وهجم ماسينا على الميمنة ، وزحف الجنرال لكرك بنصف الفرقة الخامسة لنجدة نصف الفرقة الرابعة .

« وزحف جميع القزسان بقيادة الجنرال بومون الى الميمنة لنجدة المدفعية الخفيفة والقزسان ، وكان النصر محالاً لنا في كل مكان

« وغنمنا من الاعداء ثمانية عشر مدفعاً ومئة وعشرين صندوقاً من الذخائر ، وتقدر خسارتهم بألفي رجل بين قتيل وأسير . وقد انكسروا انكساراً تاماً ، الا أن جنودنا الراحين تحت أثقال الاعداء لم يتمكنوا من تعقبهم أكثر من ثلاثة فراسخ . وقتل من جيشنا الجنرال فرونتان وهو يبلي بالاعداء بلاء حسناً »

« وانجزنا أيضاً حرباً جديدة في مدة خمسة أيام ففقد ورمسر في أبنائها سبعين مدفعاً وجميع صناديق مشاته ، وأسر من رجاله أئنا عشر ألفاً الى خمسة عشر ألف جندي ، وقتل وجرح منهم ستة آلاف ، وفقد على التقريب جميع الجنود الذين قدموا من الرين وفضلاً عن ذلك تمزق شمل عدد كبير منهم ، ونحن نعد عليهم في أثناء تعقبنا لهم وقد أبدى جميع الضباط والجنود والقوادش جاعة عظيمة في موقفنا الحزج . . . »

وامارات تلك الحوادث الغربية دفين الحماسة في قلوب الايطاليين الذين اظهروا ميلاً شديداً الى الثورة الفرنسية . وانخلعت قلوب انصار النمساويين الذين جاهدوا بالابتهاج عند قدوم ورمسر ، وشاطروا الامبراطورين تشاغلهم واتكلوا على وفرة عددهم وجعلوا يحتفلون قبل الميعاد بظفرهم واخراج الفرنسيين من ايطاليا . وكان الكردينال ماتاي رئيس اساقفة فراري من جملة اولئك المغترين ، فلم يقف عند حد الابتهاج بقدوم النمساويين وانكساراتنا الوهمية التي كانوا يعملون النفس بها بل جعل القوم الممتدة فوقهم ألوية سلطته السلبية يأتون اعمالاً عدائية نحو الجيوش الفرنسية . وبعد معركة كستليونه امر بونا بارت بتوقيفه وارساله الى بريسيا . ولما أخفقت مساعي ذلك الكردينال الثورية

واندحر أصحابه تذل أمام الظافر وطلب منه الصفح والمغفرة . فنحبه بونابرت
سؤله واكتفى بحبسه ثلاثة أشهر في مدرسة أكليزيكية ، وكان ذلك الكردينال
قد ولد أميراً رومانياً . وخوله الكرسي الرسولي من ذلك الحين سلطة واسعة
في طولنتينو .

ولم يكن كبار رجال الدين في ايطاليا ينظرون الى فرنسا بالعين التي كانت
الامة الايطالية تنظر بها اليها ، وقد لقيت الثورة الفرنسية عدداً كبيراً من
الانصار في البيامنت والمبرديا واليفاسيون ، وأظهر الميلانيون ميلاً شديداً الى
الراية المثلثة الالوان ، فقابل القائد الفرنسي الاكبر ذلك الميل بالشكر وكتب
اليهم ما يأتي :

« لما انسحب جيشنا الى وراء توهم بعض مريدي النمسا وأعداء الحرية انه
هلك ولم يبق من أمل بنجاته . وحين لم يكن مستطاعاً لكم أن تتوهموا بأن
ذلك الانسحاب لم يكن سوى خدعة حربية أبدتكم تعلقاً بفرنسا وحبا للحرية ،
وغيره ومروءة استوجبنا لكم الاحترام من الجيش والحماية من الجمهورية
الفرنسية ، ويزداد استحقاق شعبكم للحرية كل يوم ، ويقتبس نشاطاً كل يوم ،
وسيفظهر يوماً من الايام بمجد عظيم على ملعب العالم . فاقبلوا فائق رضاي
وتمنيات الشعب الفرنسي الصادقة ليشاهدكم راتين في بحبوحة الحرية والغبطة »
ولم يقف بونابرت عند هذا الحد بمجاهرتة لهم بالتماني بل استفاد من
حماسهم وحسن استعدادهم حباً لمصالحهم ومصالحة الجمهورية الفرنسية ومصلحة
التحرير العام بتنظيمه الثورة في ما وراء الالب وأنشأ جمهوريتين في هاتيك
الاصقاع . ولم تثبطه هذه الانشاءات المهمة التي كان يجريها على عجلة بانتقاله من
ميدان الى آخر عن مواصلة الحرب بشدة عظيمة ، ولم يكدينجو من الجيش
الهام الذي فوضت اليه حكومة فيينا طرد الفرنسيين من ايطاليا حتى شدد في
محاصرة مانطو من دون أن يتمكن ورمس من نجدها بالجنود والذخائر إلا في
اليوم الذي استولى فيه الفرنسيون على لينياغو (في ١٣ سبتمبر) بعدما اندحر
في عشر وقعات . وهي في ٦ أغسطس في بسشيارا ، وفي ١١ منه في الكورونا ،
وفي ٢٤ منه في برغو فرني وغوفرنالو ، وفي ٣ سبتمبر في سرافالي ، وفي ٤ منه

في روفيريدو، وفي ٥ منه في ترني ، وفي ٧ منه في كوفولو، وفي ٨ منه في باسانو، وفي ١٢ منه في سركا .

وفي غد اليوم الذي دخل فيه ورمسر مانطو تمزق شمل بقايا جيشه في دوي كستلي ، واجهزت معركة ساف جورج في ١٥ سبتمبر على ما بقي من الجيش الامبراطوري .

ولم تهمل حكومة فيينا ورمسر في موقفه الحرج فقد كان العاهل النمساوي بعده من أشد قواده حنكة وأكثرهم خبرة ، وكان يعلم أيضاً أن مانطو مفتاح ولاياته ، وبذلوا من جراء ذلك في فيينا منتهى الجهد للتعويض عن النكبات التي توالى على البعثة الاولى ، وأرادوا أن يدبروا بتخليص مانطو ورمسر ما كان يسميه الملوك وأنصار الارستوقراطية في أوروبا « خلاص ايطاليا » .

وتألف جيش امبراطوري جديد قوامه ستون ألف مقاتل خف لنجدة مانطو بقيادة المارشال، دالفنزي .

ولما انتهى الى بونايرت نبأ زحف ذلك الجيش جعل يتذمر بمرارة من عدم اكتراث حكومة الجمهورية للعمل بأرائه في جهات الرين حيث كانت قوات الجمهورية كافية لالهاء الامبراطوريين . وكان قد كرر طلب ارسال النجدة اليه من دون أن يستجاب طلبه . ورأى مع دوام ثقته بنفسه وبجنوده أنه يجب عليه أن يوقف الديركتوار على مخاوفه من نتيجة الحرب الجديدة ليفهم الحكومة الفرنسية بصريح العبارة تقصيرها الفاضح نحو جيش ايطاليا باهمال أمره وهو في عنقوان انتصاراته العديدة :

« من المقضي عليّ أن أؤدي لكم حساباً عن الحركات التي جرت من اليوم الحادي والعشرين من هذا الشهر ، فإن لم تجدوا ذلك على ما تبتغون فلا ينبغي لكم أن تنسبوا سبب التقصير الى الجيش ، ان قلة عدده وهلاك عدد كبير من رجاله الاشداء يحملاني على الخوف عليه ، وقد نكروا أو شكنا أن نفقد ايطاليا ، فلم تسافر نصف الفرقة الثالثة والثمانين حتى الآن ، وبقيت جميع النجدة الآتية من الولايات في ليون وخصوصاً في مرسيليا . وهم يظنون انه لا بأس من بقائهم هناك ثمانية أيام أو عشرة أيام ، ولا يعمون أن حفظ ايطاليا وأوروبا يتقرر هنا في أثناء الوقت المذكور . فقد تحركت الامبراطورية جميعها

ولا تزال متحركة ، وتجعلنا المهمة التي صرفتها حكومتنا في مفتتح الحرب تتصور ما هو جار الآن في فيينا . فلا يمضي يوم الا ويصل فيه الى هنا خمسة آلاف جندي من النمساويين ، وقد بسطت من شهرين حقيقة حالنا وحاجتنا الى المدد ومع ذلك لم يصل اليّ سوى فصيلة واحدة من السكتيبة الاربعين مؤلفة من جنود لم يتعودوا خوض غمار الحرب ، وأما جميع جنودنا الأقدمين الذين أوقدوا سعيهم الهيجاء في ايطاليا فانهم يقضون أوقاتهم في الراحة في الفصيلة الثامنة . أنا أقوم بأعباء ما يجب عليّ ، والجيش ينهض بما انتدب اليه . ونفسي تتوزعها المخاوف بيد ان ضميري مستريح . المدد ، المدد ! أرسلوا الي مدداً . لم يبق من وجهه للاستخفاف بالأمر ، فنحن لا نحتاج الى جنود ليس لهم من الجندية سوى الاسم ، بل نحن محتاجون الى جنود تعودوا لقاء الاعداء . تلبثوني انكم مرسلون اليّ ستة آلاف رجل ووزير الحرب ينهى أيضاً انه مرسل ستة آلاف جندي عاملين وثلاثة آلاف جندي تحت السلاح وسيصبح عددهم عند وصولهم الى ميلانو ألفاً وخمسمائة رجل ، وعليه لا يزيد عدد نجدة الجيش على ألف وخمس مئة رجل .

« الجرحى نخبة الجيش ولم يبق ضباطنا وقوادنا المجرّبون قادرين على مباشرة القتال ، وجميع الذين ترسانوهم اليّنا متناهون في البلاءه ، والجنود الذين عندي غير واثقين بكفائتهم . وكاد جيش ايطاليا بعد ما نقص عدده نقصاً عظيماً يصير الى الفناء ، وابتغالت المنية فريقاً من الابطال الذين اشتهروا في لودي ومليسييمو وكستليونه وباسانو فقتلوا شهداء في سبيل الوطن ، والفريق الآخر ملقى على الاسرة في المستشفيات ، ولم يبق عندنا منهم سوى شهرتهم وأنقذتهم وقد جرح جويزر ولان ولانوس وفكتور ومورات وشارلوت ورمبون ودوبوي وبيجون ومينار وشبران . وتركنا في أقصى ايطاليا ، وكان لي جر مغنم من وراء الدعوى بأننا أشداء ، وينشرون في باريس نشرات رسمية تدل على اننا لسنا سوى ثلاثين ألفاً

« فقدت في هذه الحرب عدداً نزرأ من الناس ولكنهم جميعهم من نخبة الرجال ويتعذر علينا ان نلقى من يسد مسدحهم . والذين بقوا من الشجعان ينشرون الموت قادمًا اليهم ولا محالة في المعارك المتوالية . اننا من القرائن النادرة .

وربما دنت ساعة أوجرو الشجاع وماسينا الباسل وبرتیه و . . . فإذا يلم بهؤلاء الاسود ؟ ويجعلني هذا التصور كثير التحفظ ويثبطني عن التعبير بنفسی ومصادمة الحام لثلا يكون مصرعنا سيبكاً لقنوط ونكبة الذين التمس منهم امدادنا بالنجدة اللازمة

« وسنفرغ بعد أيام مجهودنا في مقاتلة الاعداء ، فاذا افتر لنا ثغر الحظ سقطت في أيدينا مانطو ومعها ايطاليا . ولا أدع شيئاً من الاشياء الا وأعالجه بمعاونة جنودي المحاصرين . ولو كانت الفصيلة الثالثة والثمانون قد وصلت الي وقوامها ثلاثة آلاف وخمس مئة جندي وجميعهم من الرجال المجريين لكنت بلغت بهم غاية أمانی ، وقد لا تكفيني بعد أيام قليلة نجدة مؤلفة من أربعين ألفاً الا ان المخاوف التي كانت تجول في خاطر بونا برت لم تتحقق ، فشاء الحظ ان يخالسه هذه المرة أيضاً

وقد سهل على بونا برت ان يهدم في بضعة أيام صروح الامال التي بنتها المحالفة الجرمانية على شهرة دالفنزي وكثرة عدد جنوده فتسمرت مواقد معركة دامت ثلاثة أيام وانتهت بالانتصار الباهر في أركول ، وقد امتاز الجنود الفرنسيون بشجاعة فشل من توخي فلّ حدها من قواد وجنود النمسا الذين شابت نواصيرهم في ساحة القتال . ورأى بونا برت رجاله في هذه المعركة يترددون هنيئة من الزمان في اقتحام نيران العدو المحتل مراكز منيعة ، فترجل وتناول راية واندفع على جسر أركول المتكدسة فوقه جثث القتلى وصاح بملء فيه . « أيها الجنود أولستم أبطال لودي ؟ الحقوني ! » وحذا أوجرو حذوه . ولم يكن عمله هذا خالياً من التأثير في جنوده ، فغنموا من العدو ثلاثين مدفعاً وأسروا منهم خمسة آلاف جندي وقتل من رجال دالفنزي ستة آلاف مقاتل . وأجبر داويداش على التقهقر الى التيرول ، وورس على العودة الى مانطو .

وها نحن نبسط كيف كان ذلك الظافر في جميع الحروب الالمانية يبدى مسرته وابتهاجه بأعماله ، وكيف كان يروح الخاطر من متاعبه وعناء انتصاراته باظهاره لزوجته حناناً شديداً . وهذا ما كتبه الى جوزفين وهو في فيرونا

« يا جوزفين المحبوبة ! قد تمكنت أخيراً من الانتعاش ولم يبق الموت نصب غيبي بل صار المجد والشرف يفعمان فؤادي ، فقد انكسر العدو في اركول ،



نابوليون بوناپرت علی جسز ارکول

وسنصلح غدا ما أفسده فوبوى بتركة ريفولى . وستصبح مانطو بعد ثمانية أيام في حوذتنا ، وسأبرهن لك عن قريب بأنواع شتى وأنا بين ذراعيك عن محبتي الشديدة لك ولا أناخر عن التوجه الى ميلانو حالما تمكنني الاحوال . أشعر بشيء من التعب ، وقد انتهت الى رسالة من أوجين وهورتنس ، فهما ولدان متناهيان في اللطف . وحين ينضم الى أعضاء بيتي المتبدد ثملهم أبادر الى ارسالهم اليك »

« لقد أسرنا خمسة آلاف رجل ، ولا يقل عدد قتلى الاعداء عن ستة آلاف . الوداع يا جوزفين المحبوبة ، أكرهى من الافتكاري ، فان أنت لم تحب اخيلك ، وان بردت محبتك له استوجبت النفور وركبت مركب الظلم ، ولكنني موقن بأنك ستظللين خليلتي كما أني سأظل خليلك . فالموت وحده يستطيع أن يصرم أسباب الاتحاد التي ابرمها بيننا الوداد والحب ولطف المواظف ، واصليني بأخبارك ، واقبلي مني ألف وألف قبلة »

وأنفذ ذلك القائد الطاهر في اليوم عينه وهو اليوم التاسع والعشرون من شهر برومار (في ١٩ نوفمبر) أي في اليوم الذي نشبت فيه معركة أركول رسالة الى الديركتوار أوقفه فيها على ماجرى في ذلك اليوم المشهور :

« ظن العدو ان مصلحته تقتضي اخلاء قرية اركول ، فتوقعنا عند تملج الفجر أن يهجم علينا جيشه برمته لتوفر الوقت له لاجراج امتعته وهدافه والرجوع الى وراء اللاتاتنا .

« واشتباك القتال عند تباشير الصبح في كل جهة بعنف شديد ، فهزم ماسينا الذي كان في الميسرة العدو وتعقبه حتى أبرأب تكاير . والجنرال روبر الذي كان في الوسط بفصيلته الخامسة والسيرش العدو بالرب وتقطع نقالا ، بعد ما غطى وجه الارض بالجثث وأمرت الماجور فيال أن يسير على شاطئه الاكيج بنصف فصيلة ليدور حول ميسرة العدو ، ولكن لقينا في هذه البلاد مصاعب يعز تذليلها ، فقد غاص هذا الضابط الشجاع في الماء الذي كان يضر ، حتى العنق من دون أن يجني من وراء ذلك الامر فائدة تذكر ، ومن دون أن يلهم العدو كما كان المأمول منه . وأمرت في ليل ٢٦ الى ٢٧ ببناء جسورة على النرع والمستنقعات ، فعب عليها الجنرال أوجرو بفصيلته . وانضم ثملنا في

الساعة العاشرة صباحاً فكان الجنرال ماسينا في الميسرة ، والجنرال روبير في الوسط ، والجنرال أوجرو في الميمينه . وحمل العدو حملة صادقة على الوسط فتزلزلت أقدام جنودنا ، فأخذت القصفيلة الثانية والثلاثين من الميسرة وأقامتها كميناً في الاحراج . ولما هجم العدو بشدة على الوسط وكاد يحيط بميمينتنا خرج الجنرال غردان من كمينه حاملاً على كشح العدو وقتل منه مقتلة عظيمة . وأما ميسرة العدو فانها كانت مستندة الى مستنقعات ، وكانت كثيرة العدد ، فتهيبتنا ميمينتنا . فأوعزت الى الوطني هرقل ضابط هداتنا بأن ينتخب خمسة وعشرين رجلاً من قصفيلته ويسير على شاطئ الآديج مسافة نصف فرسخ دائراً حول جميع المستنقعات المستندة اليها ميسرة العدو ، ويهجم عليه من الوراء شأنها الغارة ونافخاً بأبواق عديدة . فكان من وراء تلك الخدعة نجاح باهر ، فتضعض المشاة وتمكن الجنرال أوجرو من اغتنام الفرصة من تلك الحركة ، ومع ذلك نابروا على الدفاع وهم ينسحبون ، وكنت قد سبرت من بورتو ليناغو قصفيلة مؤلفة من ثمان مئة رجل الى تسع مئة رجل ومعها أربعة مدافع وأوعزت اليها أن تحتل موقعا وراء العدو ، فأجهزت هذه القصفيلة عليه وهزمته .

« إلا أن الجنرال ماسينا الذي حمل على وسط العدو زحف توجاً الى قرية ار كول واستولى عليها ، وتعقب العدو حتى قرية بونيفاسيو ولكن حال دخول الليل دون مواصلة توغلنا

» وأبدى قواد وضباط أركان الحرب إقداماً وبأساً نادرين . فقتل منهم اثنا عشر رجلاً أو خمسة عشر رجلاً . وكانت تلك المعركة هائلة جداً ، وقد تمزقت ثيابهم بالقنابل .

وعالج دالفنزي النهوض من كبوته ، فعاد ومعه بروفيرا بطريق مضائق الطيرول إلا أن هذه الحركة الجديدة لم تكن سوى وسيلة أخرى لانتصار الجيش الفرنسي وقائده . فظل النصر في معركة رينفولي ووقعتي سانت جورج والفافوريت موالياً للرأية الجمهورية ، فأكره بروفيرا وفيلقه على التسليم أمام عيني ورمسر الذي سلم مدينة مانطو بعد قليل من الحين وخرج منها .

واليك ما كتبه بونابرت بهذا الشأن الى أركان حربه في روفربلو بتاريخ

٢٨ و ٢٩ نيفوز سنة ٥ (١٧ و ١٨ يناير سنة ١٧٩٧) .

« مدة العدو نجاة في ٢٤ نيفوز جسراً على انغياري ، فعبرت عليه طلائعه على مسافة فرسخ من بورتو ليناغو . وأخبرني الجنرال جويير ان كتيبة كثيرة العدد من كتائب الاعداء كانت تزحف بطريق منتانا مبتغية الاحاطة بطليعة فصيلة في الكورونا . وبانت لي دلائل عديدة جعلتني أدرك غاية العدو الحقيقية ، فلم أبق مرتاباً البتة في انه طامع بالهجوم بقواته العظيمة على خط ريفولي ليتمكن من الوصول الى مانطو ، فسيرت في الليل معظم فرقة الجنرال ماسينا وسريت بنفسي الى ريفولي فبلغتها بعد نصف الليل بساعتين . وجعلت في الحال الجنرال جويير يحتل موقع سان ماركو المنيع ، ونصبت المدافع على بطاح ريفولي ، وهيأت كل شيء يسهل علي عند طلوع النهار الهجوم على العدو هجومًا هائلاً

« والتقت ميمنتنا عند تبشير الصباح بميسرة العدو على مرتفعات سان ماركو فكان القتال عنيفاً . وكانت رحي الحرب قد دارت من ثلاث ساعات ولم يقابلنا العدو بجميع قواته . فزحف تواء الى ريفولي للاستيلاء عليها فيلق من العدو سار على ضفة الادييج تحميه مدافع عديدة ، وهددنا بأن يحيط بميمنتنا ووسطنا ، فأمرت لسرك قائد الفرسان بأن يهجم على العدو اذا تمكن هذا من الاستيلاء على بطاح ريفولي ، وأرسلت لاسال بخمسين فارساً من الدراغون لمهاجمة كشيخ مشاة العدو وكانوا يقتتلون وسطنا وأزل الجنرال جويير من مرتفعات سان ماركو بضع فصائل كانت منتشرة على بطاح ريفولي ، فرأى العدو وقد أوغل في تلك البطاح انهم يهاجمونه من كل جهة ، وانه خسر عدداً كبيراً من القتلى وشرطاً من مدفعيته ، فعاد الى وادي الادييج وتهيأ في الحين عينه للقتال وراءنا الفيلق الذي كان يزحف من وقت طويل ليحيط بنا ويقطع علينا خط الرجوع من كل جهة . وكنت قد ادخرت الكتيبة الخامسة والسبعين للاحتياط فلم تكثف بالقاء الهيبية في قلوب الاعداء بل هجمت على ميسرتهم لما تقدمت وهزمتها في الحال ووصلت في أثناء ذلك الحين نصف الفصيلة الثامنة عشرة وكان الجنرال راي قد احتل به موقعاً من المواقع خلف الفيلق المحيط بنا . فأطلقت لساعتي على العدو مدافع من عيار ١٢ ، وأمرت بالهجوم ، فأسر ذلك الفيلق المؤلف من أربعة آلاف رجل في أقل من ربع ساعة .

« وكنا في كل جهة نتعقب الأعداء المتضعضع نظامهم ، فكانوا كل الليل

يأتوننا بالأسرى ، وقد هرب بطريق الغاردا الف وحس مئة رجل فالتقاهم
خمسون رجلا من الفصيلة الثامنة عشرة ، ولما عرفوهم حملوا عليهم بجراً وأمرهم
ب طرح سلاحهم

« وكان العدو باقياً في الكورونا بيد اننا لم نكن نخشى شره ، وكانت
الحال تقضي علينا بالاسراع في الزحف الى فصيلة الجنرال بروفيرا وقد عبرت نهر
الاديج في ٢٤ عند انغياري . فأمرت الجنرال فكتور بالسير بالفرقة السابعة
والخمس المشهورة بالبسالة والاقدام ، وجعلت الجنرال ماسينا ينسحب ، وكان
قد وصل في ٢٥ الى روفربو بقسم من فصيلته

« وأمرت الجنرال جويرير عند انطلاقي بأن يهجم عند طلوع الفجر على
العدو حين يرى ان الجراً تدفعه الى البقاء في الكورونا

« وسرى الجنرال مورات الليل كله ومعه نصف فرقة من المشاة السريعي
السير ليتمكن من الوصول عند الصباح الى مرتفعات منتيمالدو المشرفة على
الكورونا . ودحر العدو بعد عراك عنيف وأسر منه من نجوا من معركة اليوم
السابق ، ولم ينج الفرسان الا باجتيازهم نهر الاديج سباحة ، وقد غرق كثيرون
منهم فيه

« وأسرا ثلاثة عشر الف مقاتل في اليومين اللذين أصلينا فيهما العدو
ناراً حامية في ريفولي وغنمنا منه تسعة مدافع »

وأودع بونايرت تقريره هذا بيان ماجرى في وقعتات سان جورج وانغياري
والنافوريت مع الجنرال بروفيرا : « وفي معركة انغياري الثانية دنا قائد من
قواد النمساويين من إحدى فرق كوكبة الدراغون التاسعة وجعله التصادف المألوف
عند بني قومه يخاطب الفرنسيين صائحاً بملء فيه . « ساموا » فأوقف دوفيفيه
جنوده وقال للقائد النمساوي . اذا كنت شجاعاً فادن مني وألق القبض علي .
فوقف الجيشان ونزل القائدان للمبارزة ، فجرح القائد النمساوي جرحين بسيف
القائد الفرنسي ، فاشتبك الفريقان ودارت الدائرة على النمساويين فسقطوا
أسرى بأيدي خصومهم . . .

« وهجم الاعداء على النافوريت قبل طلوع فجر اليوم السابع والعشرين
بساعة من الزمان حين كان ورمسريهجم على خطوط الحصار من جهة سان انطوان .

وكان الجنرال فكتور وهو في مقدمة نصف الفرقة السابعة والخمسين يبطش بكل من يعثر عليه في طريقه . ولم يكدر ورمس يخرج من مانطو حتى أكره على العودة اليها بعد ما ترك في ساحة القتال عدداً كبيراً من القتلى والأسرى . وأمر سروريه الجنرال فكتور بأن يتقدم بنصف الفرقة السابعة والخمسين ليتسنى له التضييق على بروفيرا في دسكرة سانب جورج وابقاؤه اياه محصوراً فيها . وكان الاضطراب سائداً في صفوف الاعداء فاختلفت الفرسان والمشاة والمدفعيون بعضهم ببعض الآخر ، ولم يكن شيء من الاشياء قادراً على الوقوف في وجه نصف الفرقة السابعة والخمسين ، فغنمت من الجهة الواحدة ثلاثة مدافع ، والجأت من الجهة الاخرى كوكبة فرسان هردندي الى التسليم ، فحينئذ طلب الجنرال بروفيرا الاستسلام مشكلاً على كرم اخلاقنا ، فلم يخب ظنه ، وقد رضينا بالتسليم بالشروط المرسلة اليكم صورة عنها . وأصبنا في ذلك اليوم المشهور ستة آلاف أسير بينهم جميع متطوعي فينا ، وغنمنا عشرين مدفعاً

« وانتصر جيش الجمهورية في خلال أربعة أيام في معركتين منظمين وست وقعت ، واسر نحو خمسة وعشرين الف جندي بينهم قائما جنرال وجنرالان وكولونيل ، وقتل وجرح نحو ستة آلاف رجل

« ولم يلق ورمس بداً من التسليم بعد جميع النكبات التي لقيها فعلم أن حصار مانطو سينتهي كما انتهت جميع أعمال جيش الجمهورية
« ولما دار البحث على تسليم المدينة المحاصرة أنفذ القائد النمساوي حاجبه الأول الجنرال كلينو الى مركز الجنرال سروريه في روفرلو ، الا أن الجنرال النمساوي لم يشأ الخوض في مجال البحث في أمر من الامور من دون استئصال القائد الاكبر عن رأيه فيه

« وشاء بونابرت أن يشهد تلك المناوضة وهي متناكر ، فجاء الى روفرلو متحلياً برأيه ، جلس دلي منضدة وجعل يكتب وقت ما كان كلينو وسروريه يتفاوضان . وكان يكتب الشروط على الهامش مضيئاً اليها اقتراحاته على ورمس . ولما فرغ قال للجنرال النمساوي الذي كان يظنه كاتباً من كتاب أركان الحرب .
« اذا كان عند ورمس مؤونة لا تكفيه أكثر من ثمانية عشر يوماً أو عشرين

يوماً ، وكان يطلب الاستسلام فلا يستوجب والحالة هذه أقل مراعاة في استسلامه
فاليك الشروط التي أضعها له »

« قال بونا برت هذا الكلام وناول سروريه الورقة التي كان يكتب عليها »
ثم التفت الى كليانو وقال له . « ستقرأ فيها أن حريته الشخصية تكون مضمونة
له ، فأنا أحترم شيخوخته ومناقبه ، وأحاذر أن أجعله هدفاً لسهام ذوي
الدسائس العاملين على هلاكه في فينا . فاذا فتح أبوابه غدا كانت له الشروط
التي كتبها وإذا تأخر عن ذلك خمسة عشر يوماً أو شهراً أو شهرين كانت له
الشروط نفسها ، وعليه يمكنه من الآن أن ينتظر ريثما تنفذ آخر كسرة من الخبز
عنده فأنا منطلق الساعة لأعبر نهر البو زاحفاً الى رومية . وأنت تعلم اذن
ما صحت عليه عزمي ، فامض واخبر قائدكم بكل ماتدريه من أمرنا »

فدهش كليانو من رؤيته ذاته ماثلاً في حضرة القائد الاكبر ، وأبدى علامات
التعجب ومعرفة الجليل مما سمعه ولم يسمعه إلا الاعتراف بأنه لم يبق من المؤونة
عند رومسر الا ما يكفيه ثلاثة أيام . ولما أحاط ورمسر علماً بما جرى في مفاوضات
روفريلو أكبر شهامة القائد الفرنسي وقابل عواطفه النبيلة بالمثل بإيقافه
بونا برت على سر مكيدة دبرت لاغتياله في رومانية وتولى سروريه في أثناء
تغيب القائد الفرنسي الاكبر مراقبة اجراء الشروط المقررة لتسليم مانطو ،
وكان ذلك في أول فبراير سنة ١٧٩٧

وطرأت بعد تسليم مانطو بثلاثة أيام أمور جعلت بونا برت يستاء من
تصرف البابا ، فأرسل فيلثاً من جنوده الى رومية . وفي ٦ فبراير سنة ١٧٩٧
أصدر عن بولونيه نشرة تبثديء بالعبارات الآتية :

« ان الجيش الفرنسي مصمم على دخول ممتلكات البابا ، وقد تحرى ان
يرعى حرمة الدين ويصون كرامة الشعب »

« يحمل الجندي الفرنسي باليد الواحدة الحسام الضامن له النصر ، ويقدم
باليد الاخرى السلام والحماية والامن للمدن والقرى ، فالويل لمحتكري تقدمته
والمنخدعين بسلامة قلوبهم بدهاء أهل الرثاء والشر ، فقد جلبوا على مواطنهم
الحروب وآفاتهما وانتقام جيش تمكن في مدة ستة أشهر من أسر مئة ألف جندي

من أفضل الجنود الامبراطوريين ، وغنم أربع مئة مدفع ومئة وعشر رايات ،
وبدد شمل خمسة فيالق . . »

ولم يكن الكرسي الرسولي يستطيع ان يبدي مقاومة جدية .
فلما رأى بيوس السادس ذاته مهدداً في عاصمته تجاوز عن نفوره من تلك
الاعمال وأغضى جفنه عن عواطفه العدائية ، فبادر الى طلب السلام من القائد
الجمهوري ، فأجاب هذا طلبه بوثيقة عقدت في ١٩ فبراير بالشروط التالية :

- ١ — يتنازل البابا عن جميع حقوقه بافيمينيون وأملاكه في فرنسا
- ٢ — يتخلى للجمهورية الفرنسية تخلياً دائماً عن بولونيه وفراري ورومانيه
- ٣ — يتخلى أيضاً عن جميع المصنوعات الفنية التي طلب بوناپرت احرازها
كتمثال أبولون بلفيدير وصورة التيجلي لرافيل الخ .
- ٤ — يعيد المدرسة الفرنسية في رومية ، ويؤدي اعادة حربية قدرها
ثلاثة عشر مليون فرنك نقوداً وتحفاً

وأضاف بيوس السادس الى هذه الوثيقة براءة باباوية ممتازة أطلق فيها على
بوناپرت لقب « ابنه العزيز »

ان النكبات المتوالية التي نالت الجيوش النمسية ذلت المحالفة وأدخلت
عليها الخشية من دون ان تستأصل شأفة القلى الشديد الذي كانت تشعر به نحو
الثورة الفرنسية ، ومن دون ان تجعلها تميل الى السلم . وكانت تلك المحالفة
المنهكة القوى بالحروب المتواصلة مصرة على اقتحام الأهوال والمثالب بما بقي
لها من الجيوش الجرارة ، ومواقعة الدولة المنتصرة التي مزقت شملها بسهولة
وضمضت أركانها وقت ما كانت في أوج عظمتها وشيخ سطوتها . فأوفدت
الارشيدوق شارل الى ايطاليا ليتولى قيادة الجيوش الامبراطورية ويعالج اصلاح
ما أفسده الذين تقدموه في الزحامة . وكان القائد النمسي الجديد يعتقد ان بوناپرت
انطلق بشطر كبير من جنوده لمحاربة البابا ومعاقبته على نقضه وثيقة بولونيه ، فعزم
على انتهاز الفرصة من تغيبه ليهجم على رجاله ، وأمر الجنرال غويو بعبور نهر البرنتا .
الا انه ما عثم ان عرف انه في ضلال ميين ، فعاد بوناپرت الى البرنتا ولم يكن قد أخذ
الى رومية سوى أربعة آلاف أو خمسة آلاف مقاتل وجعل في أول شهر مارس
مركزه في باسانو ، وأذاع النشرة الآتية

« أيها الجنود

» ان فتح مدينة مانطو أنجز حرباً خولتكم ألقاباً خالدة يعترف لكم بها الوطن . قد انتصرتكم في أربع عشرة معركة منظمة وسبعين وقعة ، وأسرتكم أكثر من مئة ألف رجل ، وغنمتم من العدو خمس مئة مدفع من مدافع البر والتي مدفع ذات عيار كبير وأربعة أجهزة من أدوات الجسورة

» ان الضرائب التي وضعت على البلدان التي فتحتموها أنفقت على غذاء وحاجات الجيش في أثناء الحرب ، وفضلاً عن ذلك أرسلتم ثلاثين مليوناً من الفرنكات الى وزارة المالية اعانة للخزينة

» وأغنيتكم متحف باريس بأكثر من ثلاث مئة تحفة من المصنوعات الثمينة المعتمدة نتاجاً للفن في ايطاليا القديمة والحديثة ، والمقتضي إيجادها نحواً من ثلاثين قرناً من الزمان .

» وفتحتكم للجمهورية أجمل الاقاليم في أوروبا ، فالجمهوريات المباركية والترانسبادانية مدينتان لكم بحريتهما ، والراية الفرنسية تخفق للمرة الاولى فوق شواطئ بحر أدريا بازاء مقدونية القديمة وعلى بعد أربع وعشرين ساعة بحراً عنها . وقد انفصل ملكا سردينيا ونابولي والبابا ودوق بارما عن مخالفة أعدائنا وجدوا وراء صداقتنا . طردتم الانكليز من ليفورنو وجنوى وكورسيكا . ولكنكم لم تنتهوا الى الغاية التي تتوخونها ، فأمامكم مجال كبير لتبارى فيه جيااد الحفظ ، وقد علق الوطن عليكم أعز آماله فيكونوا جديرين به .

» لم يبق أمامكم من بين الاعداء الكثيرين الذين تحالفوا لخلق الجمهورية في مهدها سوى الامبراطور الذي هبط عن مقامه كصاحب دولة عظيمة مستسلماً لتجار لندرة . ولم تبق له ارادة أو سياسة إلا ارادة وسياسة أولئك الجزائريين الذين تفتت ثغورهم برؤيتهم مصائب الحرب تتوالى على القارة الاوربية مع بقائهم بعيدين عنها .

» ولم تدخر حكومة الديركتوار الاجرائية شيئاً لالقاء السلام في أوروبا ، ولم يكن لاعتدالها في اقتراحاتها تأثير في قوة جيوشها ، فلم تستر شجاعتم بل اقتصرت على استثارة عواطف الانسانية والرغبة في إعادتكم الى موطنكم . ولم يكن لصوتها صدى في فينا ، وعليه لم يبق من أمل في الصلح إلا بمعالجة



نابوليون بوناپرت، عند سفره الى مصر

في مدى أربع وعشرين ساعة، وينبغي لكم ان تعملوا اننا لسنا في عصر شارل الثامن وان أنتم خالقم رغائب الحكومة الفرنسية وألجأتموني الى محاربتكم فلا يقع في نفوسكم ان الجنود الفرنسيين يتصرون الجنود الذين سلحتموهم ويعيثون فساداً في أرض شعب آمن منكود الحظ، فأنا أذود عنه واجعله يبارك اليوم الذي أخرجتم فيه الجيش الفرنسي ليأتي أصحالا فظيمة تنجني هذا الشعب من نير حكومتكم الجائرة »

وفي ٧ ابريل عقدت هدنة حربية في جودنبورغ ، وكان البرنس شارل قد الى ذاته عاجزاً عن مداومة القتال والاحتفاظ بمضايق نيومارك وهندمارك التي احتلها ماسينا ، وعلم ان اصرار حكومته على مواصلة الجيوش الفرنسية لم يكن صواباً . وكان قد انتهى الى بونابرت المتشكل على موافاة جيش سامبر وموز المناصرته نبأ يفيد ان هذا الجيش لم يتحرك ولن يتحرك من مركزه ، ومن ثم لم يتجراً على تجاوز سيمرنغ لثلاثي تغل في البلاد الألمانية من دون ان يكون له ما يستند اليه فيها . ولما وردت اليه رسالة من الديركتوار تلبئه رسمياً بأن جيشي الرين وسامبر وموز لا يستطيعان الهاء الاعداء على ما بين ضرورة ذلك الامر وأهميته بادر الى امضاء رسالة الى الارشيدوق شارل يقترح عليه فيها مشاطرته الفضل بالقاء السلام في أوربا ووضع حد لما تتجشمه النمسا وفرنسا من الخسارة الفادحة الناشئة عن الحرب الطاحنة . وقد قال له في رسالته « ان الجنود الشجعان يباشرون القتال مع رغبتهم في السلم . أفلا يكفيننا ماقتلناه من البشر، وما جلبناه من الشر على الانسانية التاعسة ؟ . . . فأنت الذي يدنيك أصلك وفصلك من العرش ، وأنت الذي ترفع عن الاهواء الحقيرة التي تعبت بالوزارات والحكومات هل تشاء ان تستحق لقب المحسن الى الانسانية جمعاء ومخلص ألمانيا الحقيقية ؟ . . . واذا كان اقتراحي هذا يحضرة القائد الاكبر من شأنه ان ينقذ حياة انسان واحد فاخرت بذلك التاج السلمي الذي استحققت نبيله على مفاخرتي بالمجد الزائل الذي أجني ثماره من دوحة الانتصارات الحربية »

وما عتقت الاقتراحات السلمية التي حواها ذلك الكتاب ان اشتهرت في فينا ، فسكنت قليلا مخاوف القوم لدنو الراية الجمهورية منهم ، وبادر المعامل الى انفاذ فالو النابولي تاني سفيراً الى بونابرت ، فكانت هدنة جودنبورغ نتيجة

للمفاوضة. وابتدأت بونابرت الفرصة من الهدنة ليتظلم للديركتوار من تصرف جيوش ألمانيا في خلال محاربته في إيطاليا بمساكر قليلة العدد جميع قوى الدولة النمساوية المتألمبة. على أن بونابرت مع قلة أكثرائه الماضي وكان يذكره بلا تأسف كان يهتم بالمستقبل ويزيد الحاحاً بطلب مناصرة مورو له طمعاً بنيله شروطاً أفضل من وثيقة الصلح، أو فوزاً مضموناً عند تجديد القتال بين رجاله والعساكر النمساوية. وهذا بعض ما جاء في رسالته للديركتوار

« حين يعتمد الإنسان مباشرة القتال لا يستطيع شيء من الأشياء تثبيطه عنه، ولم يرو لنا التاريخ قط أن نهراً من الأنهر صد جيشاً من الجيوش عن التقدم. فلو شاء مورو اجتياز نهر الرين لاجتازه، ولو كان قد اجتازه لكننا قد صرنا الى موقف يمكننا من التحكم في شروط الصلح تحكم الغالب بالانلوب، ولكن الذي يخشى أن يضع المجد يضيعه ولا محالة. عبرت جبال الألب اليولبانية والنورية سائراً فوق ثلوج تباع سماتها ثلاث أقدام الخ. ولو لم تكن الغاية التي أرمي اليها سوى راحة الجيش ومصالحتي الشخصية لكنت خيمت في ما وراء الايرنيزو بيد أنني أوغلت في ألمانيا طمعاً بتضييع جيش الرين ومنع العدو من مهاجمته. وصلت الى أبواب فينا وقد أرسلت الى الحكومة النمساوية المتعظمة المتعطسة مفوضين من لدنها. ان جيش الرين ليس في عروفا دم ولا محالة، فاذا ظل معرضاً عني وتاركاً اي وحدي اضطرت الى العودة الى إيطاليا وحينئذ يبرز الملاء الاوربي طراً حكمه على الفرق بين الجيشين »

وبوشرت المفاوضات في ليوبين في ٢٦ جرمينال ووقعت مقدمات الصلح في ٢٩ منه. وقال بونابرت للمفوضين النمساويين « ان حكومتكم أرسلت قبلاً لمقاتلي أربعة جيوش بلا فائد، والآن ترسل اليّ قائداً بلا جيش. » ولما أراه المفوضون أن من جملة مندرجات الوثيقة المنظمة اعتراف طاهلهم بالجمهورية الفرنسية، قال لهم بونابرت بصوت جهوري. « اسدقوا هذا البند، فالب وجود الجمهورية كالشمس في رابعة النهار، ولعمر الحق ان مثل هذا البند يوضع للعميان »

وكانت الساعة قد دنت للافتسكار بجمهورية البندقية، فان هذه الجمهورية سعت من تلقاء نفسها الى المتالف التي كانت تتوعدها. وكان نبلاؤها الموالين

لنمسا ينتظرون مكافئتها ونجاتها من ذلك الفاتح العظيم الذي ظفر بكل من واقعه . وانضم اولئك النبلاء الى خدام الدين الايطاليين ، وأناروا السكاف الجبال المقيمين على شواطئ بحر ادريا ، وقتلوا في فيرونا في أثناء الاحتفالات بعيد الفصح مقتلة عظيمة من الفرنسيين وكان خدام الدين قد نسوا مهمتهم السلمية والحبية وحرضوا القوم على القتل مزينين لهم ان قتل أشياخ الفتنة الفرنسية فعل من الافعال التي يثاب عليها فاعلوها

وأسرع بونابرت في الشخصوس الى فيرونا لحقن الدماء وإخماد نائرة الفتنة ومعاينة حكومة البندقية أزجر عقوبة . وقال بونابرت لبوريان كاتبه الخاص في مساء اليوم الذي هب فيه الشعب على الفرنسيين : « قر عيناً فسنةمتص من هؤلاء الطغام ، وقد قضي على جمهوريتهم » وبعد أيام كتب للديركتوار : « ان المنهج الوحيد الذي لابد من الجري عليه هو تقويض أركان تلك الحكومة الهمجية السفاحية ، ونحو اسم البندقية عن سطح المعمورة »

وذهبت سدى مساعي الحكام في بروسيا وبرغام وكريمونا لاثارة خواطر القوم وحملهم اياهم على الاعتقاد بأن الفرنسيين كانوا سبباً للنكبات التي دهمتهم فسكندهم بونابرت تكديماً صريحاً بنشرة كانت ضربة قاضية على الارستقراطية البندقية وقد ختمت هذه النشرة بالعبرة الآتية :

« ان القائد الأكبر ينذر وزير فرنسا لدى جمهورية البندقية بالخروج من المدينة المذكورة ، ويأمر مندوبي جمهورية البندقية في لمبرديا وجميع أملاك البندقية بأن يخرجوا منها في مدى أربع وعشرين ساعة ، ويأمر جميع قواد جيشه بأن يعتبروا جنود جمهورية البندقية أعداء لهم ، وأن يحطموا أسد القديس مرقس في جميع مدن هذه الجمهورية . »

وقد وضعت هذه الاذاعة موضع الاجراء من جميع أطرافها ، فدخل الرعب على مجلس البندقية الأكبر فاستقال وألقى بمقاليد السطة الى الشعب وهذا أسند الاحكام الى المجلس البلدي . وفي ١٦ مايو نسب الجنرال باراغواي ديليه الراية المثلثة الالوان فوق ساحة القديس مرقس . وحدثت فتنة ديمقراطية شديدة في جميع الاقاليم التابعة لحكومة البندقية ، فانثدب للزعامة في أثناء

تلك الفتنة دندولو محامي البندقية وأحد الشخصين الفاضلين اللذين عثر عليهما بونابرت في إيطاليا . ونقل أسد القديس مرقس وخيل كورنثوس الى باريس لتزيين قوس النصر في ساحة كروسل

وفي إبان المفاوضات الدائرة مع النمسا انتهى الى بونابرت أن هوش ومورو اجتازا نهر الرين ، بعد ما كان الديركتوار قبل ذلك الحين ببضعة أيام أنباء بأن عبور هذا النهر قد لا يمكن أن يتم . ولما كان تمنع جيش الرين عن مناصرته قد حداه على توقيف رحي الحرب والوقوف أمام أسوار فيينا ألتي ذاته مقضيا عليه بأن يشهد ، وسيفه في غمده وقد قيدته شروط الهدنة ، الحركات الحربية التي التمسها على غير طائل مدة شهرين ، وكان من شأنها أن تساعد على رفع الراية الجمهورية فوق عاصمة النمسا . ولا يخفى أن انتصاراته السريعة أقلقت خاطر الديركتوار فصار اعضاؤه الخمسة يرون شخص العاهل في شخص فاتح إيطاليا . وهو ذاته اعترف في جزيرة القديسة هيلانة بأنه منذ اليوم الذي اصاب فيه النصر في لودي جال في خاطره انه يمكنه ان يصير ممثلا فعليا على ملعب السياسة ، وقال في هذا الصدد ، « في ذلك الحين نشأت في الشرارة الاولى للعطامع البعيدة المنال »

وكان أن رجال حكومة الديركتوار الذين لمحوا تلك الشرارة وأوجسوا خيفة من امتدادها والتهامها صرح الجمهوريين المتربعين هم في قته ، عمدوا الى الحيلولة دون امتدادها مدفوعين الى ذلك العمل بعوامل الحسد الشخصي والدفاع عن مبادئ الديمقراطية . وكان يشق عليهم أن يشاهدوا اعتراف الوطن بالجميل واعجاب أوروبا ينحصران في شخص واحد ، ولم يشاءوا أن يوجدوا لهذا الشخص السبيل المؤدي الى تعلق الناس به بدخوله فينا وهو يجر ذلاذلا الانتصار في مقدمة جميع جيوش الجمهورية وعرفهم بونابرت كما عرفوه فلم يكتف استيائه من ذلك الأمر بل جاهر به في رسائله وأحاديثه . وتمكن الديركتوار من كتمان الاسباب الحقيقية التي جعلته ينهج ذلك المنهج حتى أن الجنرال بونابرت الذي أسندت اليه قيادة جيش الداخلية بعد شهر فنديمار رسم خطة حربية تعين مدة الحرب وعقد الصلح على قمة سيمرنغ ، وقد بقي رسم تلك الخطة محفوظا في وزارة الحرب . وبني هو نفسه الحاجز الذي يطمع

الآن باجتيازه ، الا أن قاهر البرنس شارل كانت له أفكار أوسع وأنظار أبعد من أفكار وأنظار قاهر الشعب الباريسي
 وكان بونابرت في جزيرة في التاليامنتو لما جاءه البريد نبأ عبور مورو لنهر الرين ، فقال دي بوريان . « لا استطاع وصف التأثير الذي اصاب الجنرال عند قرأته تلك الرسائل . . . فقد بلغ منه الاضطراب مبلغاً عظيماً حتى انه خطر له ان يهرب الى ضفة التاليامنتو اليسرى وينتحل له عذراً لقطع اسباب المفاوضات السلمية . . . وكان يقول : ما كان اعظم الفرق بين المقدمات لو كان هذا الامر قد حدث قبل الآن »

ومن المحقق ان بونابرت ما كان ليظهر تلك الاميال السلمية التي ابداهها في رسالته للبرنس شارل لو كان يستطيع الاعتماد على مناصرة جيوش المانيا له . فـكان فتح فينا يبتسم له على ان فتح رومية لم يكن ليستغويه كثيراً . ولم تكن خيانة الديركتوار مع ما يخامرها من الحسد والظنون السيئة تمسكه هذه المرة من ارواء غليل مطامعه

وكان في المفاوضات السلمية مماطلات ومماحكات ، فاغتنم القائد الاكبر الفرصة من الهدنة الحربية ويم لمبرديا ولايات البندقية لتنظيم الحكومة فيها . وكان يبحث على غير طائل عن الرجال الاكفاء ليسند اليهم المناصب ، ويقول : « يا لله ما اندر الرجال ؟ ففي ايطاليا ثمانية عشر مليون نسمة ومع ذلك لا القى بينهم سوى رجلين وهما دندولو وملزي »

ولما ضاق صدر بونابرت عن احتمال دسائس الجمهورية ومساعدتها لاجباط اعماله ، وتبرم من مفاوضة المباطلين النمساويين ، قال انه يبتغي الاستقالة من قيادة جيش ايطاليا والاعتزال عن معاشر البشر ليزدوق في الوحدة طعم الراحة التي كان بحسب زعمه شديد الاحتياج اليها . على أن ذلك الزعم لم يكن سوى تهويل وهمي لا يشاء البتة وضعه موضع الاجراء . ولم يعتقد أنهم يستطيعون الاستغناء عنه بعد الخدم التي اداها لبلاده ، وأسرار المقدرة الغربية التي نم بها ، والميل الشعبي الذي تمكن من اصابته . وكان متحققاً ان نبأ استقالته سيكون له شأن سياسي مهم ينكر الشعب على الحكومة التي سببته باعتسافها وقبلته مدفوعة اليه بعوامل نكران الجميل والحسد ، الا أن ذلك الامر لم يكن

سوى مخاوف فارغة . فاقصر على التظلم بشدة متخذاً لهجة العنف والاستعلاء في رسائله الرسمية . وبعد ما قال انه بالنظر الى واقع الحال اصبحت المفاوضات مع اهل النمسا حركة من جملة الحركات الحربية مما يجعل السلم والحرب رهن اشارته ويعدده لذلك الموقف الخطير مع اعتبار حظ الجمهورية متعلقاً بحظه ، زعم أنه شبع من المجد وهو يرمي بذلك الكلام الى افئاع المعجبين به وخصومه واعدائه بان المحرك الوحيد للهمة العالية التي ركب مركبها كان مصلحة فرنسا وليس مصلحته الشخصية ومن اقواله في ذلك الصدد « زحفت الى فينا واصبت من الفخر اكثر مما يلزمني لاظفر بالسعادة ، وغادرت ورائي سهول ايطاليا الخصبية كما فعلت في مفتتح الحرب الاخيرة حين كنت اطلب الزاد للجيش الذي لم تكن الجمهورية قادرة على القيام بأوده

وكانت سياسة فرنسا الداخلية تعضد الديركتوار في حسده الذميم ومخاوفه المنكرة ، فان حركة ترميدور احييت موات الأمل في افئدة الملكيين وقد نهضوا في الانتخابات من العشار الذي اصابوه في شهر فندميار . وكان من الطبيعي ان يحسب حزب الارتجاعيين الف حساب لنفوذ القائد الذي خلص الجمهورية بانتصاراته الخسنة التي نالها ، وكانت اسباب شهرته ومجده وكيانه مقرونة بخلاص الثورة ونجاحها

وانتهز خطباء هذا الحزب وكتابه الفرصة من حرية اللسان والقلم المطلقة لينشروا جميع الاراجيف ويلقوا في القلوب الظنون المختلفة عن أخلاق بونايرت ومطامعه ، على ان الديركتوار مع ما كان بينه وبين حزب الملكية من الخصومة الشديدة أغضى الطرف عن أقوال هذا الحزب وأفعاله بحق بطل لودي وأركول بعد ما ساءت شهرته السريعة أعضاء حكومته وأعضاها . فأذيع في الصحف وفي منشورات خاصة ، وكثر تحدث القوم في الاندية الخاصة والعامة ان حكومة البندقية ذهبت فريسة لخيانة القائد الفرنسي ومسايعه السرية ، وان جميع تلك المجازر التي قام وقعد لها الملاء السياسي وأزلت بقايلها عقوبة زاجرة لم تسكن سوى حوادث دبرها دهاء القائد الجمهوري وأركان حربه . وألقى دومولار أحد زعماء الحزب الملكي خطبة دس فيها عبارة تشتم منها رائحة الظنون التي خالجت قلوب ألسنا . مجلس الشيوخ عن الأسباب التي دعت الى



نابوليون بوناپرت قائد اكبر لجيوش الجمهورية الفرنسية

اهتضام حقوق الام في البندقية . ولما وقف بونابرت على جميع تلك الدسائس والمفاسد المراد بها الغض من كرامته وتحقير منزلته وسوق الأذى اليه كتب الى الديركتوار يقول « يحق لي بعدماعقدت الصلح خمس مرات وضربت المحالفة ضربة قاضية ان أقضي عيشة راضية واستذري بكف كبار الحكام في الجمهورية ، هذا اذا لم يكن يحق لي التمتع بالانتصارات السلمية ، والاكن أراني وقد حل بي الاذى ، ونزل بي الاضطهاد ، وسودت صحيفتي بجميع الوسائل المصحوبة بالخزي مما تجره السياسة الى ايقاع المضرة . . .

» لقد فتك بنا الخونة فهلك منا أكثر من أربع مئة رجل ، ولعمر الحق ان كبار حكام الجمهورية يجنون عليها لاعتقادهم ان أولئك الرجال من مرتكبي الجرائم .

» وأنا أدري ان قوماً يقولون « وهل هذا الدم حر ؟ » لا أشكو من الطغام ومن ماتت في نفوسهم عواطف الوطنية والمجد الوطني لتفهمهم بمثل هذا الكلام ولا أكثر لهم ولكن يحق لي ان أتظلم من كبار حكام الجمهورية لتحقيرهم مكانة من عظموا مجد الاسم الفرنسي وشرفوه

» يا أعضاء الديركتوار ويا أركان الوطن ، أكرر عليكم تقديم استقالتي ، فأنا محتاج الى قضاء عيشة راضية ساكنة على شريطة ان تنبؤ عن حياتي مدى كليشي

» فوضتم اليّ أمر المفاوضات السلمية وأنا لا أصلح لها

وكان قبل ذلك الحين بمدة قصيرة قد كتب الى كارنو بطريقة خاصة ما يلي .
 « يا حضرة العضو ، انتهى الي كتابك وأنا في ساحة القتال في ريفولي فعلمت ما كان من شغشة لسانهم بحقي فرثيت لهم . وكل منهم يجعلني ألق على هواه ، وأظن انك تعرفني حق المعرفة ، وانك لاتتصور البتة أنني أرضى بأن يتسلط أي كان على أفسكري . لقد سبق لك ان جعلتني أطيل دائماً لسان الثناء على علائم الصداقة التي أبديتها نحوي ونحو ذوي ، وسأدخلك شكراً حقيقياً عليها . ان قوماً لا يلقون لهم بدأ من البغض وحيث لايتسنى لهم هدم صرح الجمهورية يكتفون بالقاء بذور الشقاق والخلاف أيا ن ساروا ، ومهما قالوه عني فلايستطيعون إلحاق السوء بي فلا يهمني سوى احترام بعض نفر من الناس ممن هم على شاكتك

وإكرام رفاقي والجنود، وفي بعض الأحيان اعتقاد الأجيال الآتية بي، وفوق ذلك كله راحة ضميري وسعادة وطني»

وقد شاء بونابرت أن يحجب بذاته على ما كان حزب الملكية يبثه من الراجيف عن البندقية فأذاع في الجيش نشرة مغفلة ضمنها دحضاً لا كاذب ذلك الحزب وتخريصاته وبيانا للحقيقة. ولم يكن بونابرت صادقاً في تقديم استقالته. وأما قوله بأنه لا يصلح للمفاوضات السامية فهو مردود بالحادث الآتي بيانه المتعلق بمفاوضات كمبيو فرميو، وقد رواه بونابرت نفسه في جزيرة القديسة هيلانة «كان المسيودي كوبنزل رجل الامبراطورية النمساوية روح مقاصدها وأعمالها ومدير سياستها. وقد تولى السفارات الخطيرة في عواصم أوروبا، وأقام مدة طويلة لدى كاترين قيصرية الروس، ونال عندها حظوة خاصة. وكان يتباهى بمقامه وأهميته، ولا يرتاب في أن رفعة مركزه وسمو أطواره وتعوده الرשמيات تجعله متفوقاً على قائد خارج من الجيوش الجمهورية

فدنا باستخفاف وخفة من القائد الفرنسي، إلا أن هيئة هذا الأخير وكلماته الأولى جعلت ذلك الرجل يدرك خطارة موقفه ويأبى الخروج منه. وقال المسيودي لاس كاس أن المفاوضات دارت في بدء الأمر بسطء وكان المسيودي كوبنزل على عادة الحكومة النمساوية يظهر براعة في المماطلة بمجرى الأحوال بيد أن القائد الفرنسي صمم على إنجازها، وكانت الجلسة التي قرر بأن تكون خاتمة المفاوضات ممتازة عن غيرها بشدة اللهجة، ولما أبى المنفوض النمساوي العمل باقتراح بونابرت نهض هذا وفي عينيه شرر الغضب وصاح بصوت جهوري. «أنتم تريدون الحرب، فليكن ما تريدون!» قال هذا الكلام وقبض بيده على ابريق من الخزف كان المسيودي كوبنزل يتهخر كل يوم بقوله أن هذا الابريق هدية من القيصرية كاترين الكبيرة، وطرحه على الأرض بكل قوته فتحطم تحطماً، وصاح حينئذ به فائلاً «هكذا تصبح مملكتكم النمساوية قبل ثلاثة أشهر» ثم انه خرج مسرعاً من الردهة، ولبت المسيودي كوبنزل كالمنزول به. وكان معاونه ألطف أخلاقاً منه فصحب القائد الفرنسي حتى مركبته وهو يعالج ابقاءه ومنعه عن الذهاب. وقال الامبراطور «انه كان يحيني بقبعته مرات عديدة بهيئة تستدعي الشفقة حتى اني مع ما كنت أشعر به من

الغضب الشديد لم أكن أستطيع الامتناع عن الضحك في الداخل » على ان الطريقة التي توخاها بونابرت في المفاوضات مع ما كان يزعمه من عدم صلاحه لها انتهت الى الغاية التي كان يرمي اليها ، فقد كان التهويل في مثل ذلك الموقف أفضل من الملاينة ، وكانت الحال تقتضي مثل ذلك التصرف ليسهل وضع حد لمظاهرات النمساويين ومراوغاتهم ، واضمار حكومتهم أفكار السوء وراء تلك الظواهر الخداعة ، فأراد بونابرت التعميل للوصول الى غايته بتعطيله على الصورة التي مر بيانها هدية القيصرة للمسيو دي كوبنزل . وقد كانت طريقة العنف هذه المرة أجدى نفعا للصالح الفرنسي وأشد فعلا من سياسة اللين التي يتحداها من شابت نواصيهم في التمرغ على أعقاب البلاط . وكان بونابرت يعرف الحين الذي يلائم فيه الظهور بمظهر الغضب ، ويمكن القول بأنه اذا كان ذلك الداهية قد تعدى حدود اللياقة وخالف أصول الرهيمات المرعية فما ذلك الا الخدمة وطنه والانسانية بتعجيله في ابرام أسباب الصلح

وبينا بونابرت يتوقد من الحنق في ايطاليا من جراء المماطلة في المفاوضات السياسية، وحالة السكون التي أوصلته اليها مقاصد الديركتوار السيئة ، والاهانات التي كانت توجهها اليه الاحزاب الداخلية من جميع الجهات بواسطة المهاجرين والمراسلين المجاورين ، كانت الاكثريّة من الحزب الملكي في المجلسين تهدد كيان الديركتوار ، وكان اليوم الثامن عشر من شهر فركتيدور (٤ سبتمبر سنة ١٧٩٧) يقترب .

وكان ان جيش ايطاليا المنتصر في معارك عديدة تحت ظل الراية الجمهورية ، والقائد الهام الذي تنقل به من انتصار الى انتصار لفتا انظار الفريقين ، فأثارا دفين الخوف في صدر هذا وانعشا ذابل الآمال في فؤاد ذلك . وقد رأى بونابرت بعد ما كان في الماضي لا ينجو من وقية الحزب الملكي والديركتوار جهاراً وسراً ان القوم في كل جهة يبحثون عنه ويسعون وراء التقرب منه ، حتى ان طرنسون دو كودراي أحد مشاهير الخطباء الملكيين لم يأنف من اطلاق لقب « بطل » على مدفعي ١٣ فندمي يارقائلا عنه انه امتاز بالمواهب التي يؤتاها من تولى المفاوضات السلمية بعد ماضاهى في فن الحرب أشهر القواد في مدة ثمانية أشهر

الا ان هذا المديح الصادر لغايات في النفس عن رجل داهية لم يكن من شأنه ان يخجىء القلى الذي كان حزبه يشعر به نحو بونايرت وينفث سموه على صفحات جرائده وفي أنديته ، وكان أوبري عدو بونايرت القديم زعيما من زعماء هذا الحزب ، فاستند الى مظاهره بعض الخطباء المتطرفين وطلب فصل بونايرت من منصبه والقاء القبض عليه وقد كان ذلك الامر كافياً لحل بونايرت على تخير الجهة التي يميل اليها ، بيد انه كان يحتمل الديركتوار ، ولم يكن يرى بين أعضائه من يستحق الاكرام سوى كارنو المشهور بما أوتيته من المقدرة السياسية والادارية ، وما أداه لوطنه من الخدم الجليلة ، وما امتاز به من كرم الاخلاق وعلو الهمة

وانفصل كارنو عن الاكثرية في المجلس مراعاة للعبادىء الدستورية التي كان الحزب الآنف الذكر من أشد المعارضين لها ، ومع ذلك كان نفوذ بونايرت وقد ناله بأعماله الماضية وبعد نظره في العواقب وذكري ما آتت أفعوى من احتقاره لباراس واحترامه لكارنو

وكان حين صمم فيه بونايرت على الزحف الى باريس ماراً بمدينة ليون بخمسة وعشرين ألف مقاتل ، ولو بقيت الاقدار مهادنة للملكيين في العاصمة لكان قد وضع ماقصده موضع الاجراء ، على ان الامر الذي جعله يسخر بنوع خاص حسامه لخدمة الديركتوار ومناوأة الاكثرية في المجلس هو اكتشاف خيانة بيشغرو زعيم هذه الاكثرية ، فاكتشفت علاقته بالاجانب وقت ما قبضوا على أوراق السكونت دنتراغ أحد أصحاب الدسائس في الحزب الملكي فألقي القبض على ذلك النبيل في ولايات البندقية بعد ما كانوا أطلقوا له الحرية على ان يظل مقيماً في ميلانو ، بيد انه فر الى سويسرا وطبع نشرة ضمنها من لواذع الكلام بحق بونايرت ما تنبؤ عنه الاتماع مع انه كان من المقضي عليه ان يطيل بحق قائد جيش ايطاليا لسان المدح بدلا من لسان القدح

وجاش صدر بونايرت غيظا من جراء تلك الامور ، وجعل يكسر الارباط على الاجانب ، فأنفذ باسم جيش ايطاليا رسالة ملؤها التهويل على المجلسين وتسكين بال الديركتوار ، ومن جملة ما قاله في تلك الرسالة . « هل تتوهمون أن طريق باريس اوعر من طريق فينا ؟ فسيفتحه لنا الجمهوريون المحافظون

على عهد الامانة للحرية ، ومضى انضم شملنا نستطيع الذود عن حياضها والتكميل بأعدائنا

« ان قوماً من الألى جلهم العار ، واشراأت أعناقهم الى الانتقام ، وتحمت نفوسهم من الجرائم يتحركون في باريس ويفسجون برود الدسائس ، ونحن نظفر بالاعداء أمام أسوار فيينا . . . فيا من جعلتم الاحتقار والشنار والمذلة والموت من نصيب المدافعين عن كرامة الجمهورية ، ارتعدوا . فن الأديج الى الرين والسين خطوة واحدة ، ارتعدوا . فظالمكم محصاة ، وعلى أطراف نصالنا العقاب عليها . »

واختار بونابرت لحل تلك النشرة أوجرو وهو أحد معاونيه ، وهذا لم يكن يخطر بباله قط أن يشغل المحل الاول ويكشف شمس القائد الاكبر . وأما المال الذي طلبه بارس بلسان بوطوكاتبه لكي يسهل له سبيل النجاح في اليوم المنتظر فقد اكتفى بونابرت بأن يعده به من دون أن يؤديه له البتة . وأنفذ الى باريس حاجبه لافاليت متكللاً على غيرته وألمعيته ليوقفه على كل شيء ، ومنووضاً اليه العمل بحسب مقتضيات الأحوال

ويبتدىء من هذا الحين تاريخ العلاقات بين بونابرت وديزه ، فقد كان ديزه وهو في جيش الرين يتتبع عن بعد والتعجب بالغ منه الانتصارات التي اصحابها قائد جيش ايطاليا الاكبر ، فاغتم الفرصة من هدنة ليوبن وجاء ليتأمل عن كثب ذلك القائد العظيم . ولم تكده عين الواحد منهما تقع على الآخر حتى تفاهما وتحابا . وكان في احدى محادثتهما ان بونابرت اراد ان يستودع صديقه الجديد سر خيانة بيشغرو ، فأجابه ديزه : ولكننا عرفنا ذلك من ثلاثة أشهر ونحن على الرين ، فقد غنمنا من الجنرال كلنغلن مركبة عثرنا فيها على الرسائل المتبادلة بين بيشغرو وأعداء الجمهورية . فقال بونابرت أولم يبلغ مورو ذلك الامر الى الديركتوار ؟ فقال ديزه . لا فقال بونابرت : لقد ارتكب جريمة فظيعة فالصمت في مثل هذه الحال يعد مشاركة في الخيانة ومسبباً لاستهداف الوطن لسهام المخاطر . ولما صدر الامر بنفي بيشغرو بعد ١٨ فركتيدور بادر مورو الى كشف أمره بطريقة فاضحة فقال بونابرت . « انه بتأخره عن

الشكوى منه خان الوطن ، وبتكلمه عنه متأخراً جعل ذلك التاعس يرزح تحت أثقال العقاب »

وسر بونابرت سروراً عظيماً لما انتهى إليه نبأ فشل الحزب الملكي وصدور الاحكام العرفية بحقه ، فقال له اوجرو . ياسيدي القائد ، نهضت بأعباء مهمتي وانجزت هذه الليلة مواعيد جيش ايطاليا .

ولما سقط عن الديركتوار النظر في امر الممسكين ثاب اليه حسده الخفي لبونابرت ، ومع معرفة الديركتوار ما كانت أفكار القائد عن ١٨ فركتيدور بعد جميع الرسائل التي جاءته منه وتضمنته من الالحاح الشديد بوجوب اجراء تلك الضربة العنيفة أذاع في باريس أن رأي بونابرت في حوادث ذلك اليوم كان مخفوقاً بالشك ، وكان الديركتوار ينوي نشر هذا الامر بين الجيوش ، ففوض الى اوجرو أن يوجه الى جميع القواد النشرة التي كان مقضياً على القائد الاكبر أن يوجهها اليهم ، وحين وقف بونابرت على جميع تلك التدابير عمد الى اظهار استيائه وحنقه بكتابته الى الديركتوار ما يلي :

« من الثابت أن الحكومة عاملتني على التقريب بالمعاملة نفسها التي عاملت بها بيشغرو بعد شهر فنديميار من السنة الرابعة

» ارجو ان تقبلوا استقالي وتسموا خلفائي ، فلا تستطيع قوة ارضية ان تجعلني اواصل الخدمة بعد ما اظهرته لي الحكومة من نكران الجميل وان لم اكن اتوقعه . فصحتي المعتلة تقتضي الراحة والسكينة . وحالة نفسي محتاجة الى معايشة بني وبنات لتتقوى ، فارى من وقت طويل سلطنة عظيمة ملقاة مقلينها الي ، وفد زاولت هذه السلطنة في جميع الاحوال في سبيل مصلحة وطني . فليخسأ الذين لا يعتقدون بالفضيلة والذين يرتابون بفضيلتي . خبير جزاء لي هو راحة ضميري وماتظنه الاجيال الآتية عني . . .

« وثقوا بأنه اذا ما كان الوطن معرضاً للخطر كنت في مقدمة الناهضين للدفاع عن الحرية ودستور السنة الثالثة »

ولم يشعر الديركتوار من نفسه بمقدرة على مقاواة ذلك الجندي المصور مقاواة ظاهرة وموجهة اليه رأساً ، فظل دافئاً لسره وبادر الى ارسال الايضاحات والاعتذارات اليه تسكيناً لغضبه ، وقال له « خف من المتآمرين

الملكيين فانهم وهم يدسون السم لهوش يعالجون أن يدخلوا عليك النفور والتحفظ مما يقول إلى حرمان وطنك جهد دهائك »

ولم يكن بونابرت في الحقيقة متبرماً من قيادة الجيش كما كان يريد ان يتظاهر به . فظهر رضاه عن تلك الايضاحات ، وجعل يرسل بطريقة خاصة بعض الوزراء وبعض اعضاء الديركتوار عن حوادث الحرب وشروط الصلح واهم مسائل السياسة العامة . وقال انه يميل من ذلك الحين الى الاعتدال والرفق لزوال المخاطر وقتياً عن الجمهورية في الداخل والخارج . وكتب الى فرنسوى دي نوشاتو يقول له « ان حظ أوروبا معلق بما تبديه الحكومة من الاتحاد والحكمة والبأس ، ففي الامة فئة صغيرة لا بد من قهرها على يد حكومة صالحة .

» ان قرار حكومة الديركتوار الاجرائية يززع العروش . . . فذار ان تجعلوا الكتبة المأجورين والمتعصبين الطماعين المتسترين بهراقع مختلفة يقذفون بنا الى تيار الثورة »

وكان رجل قد امتدت شهرته منذ التثام الجمعية الدستورية ، وظلت تتعاطم من ذلك الحين بمشاطرته دهاء بلاده تأليف أنواع الحكومات التي جعلت فرنسا تثقل من طور الى آخر ، وبتقويضه أركان تلك الحكومات حتى صارت فرنسا الى حالتها الحاضرة . وكان ذلك الرجل يقال له تاليران ولم يكن همه الاتحبة الشمس المشرقة .

فسعى في ذلك الحين لفتح أبواب المفاوضات مع بونابرت . وكان يبعث اليه بتقارير سرية . وكتب اليه عدة رسائل عن ١٨ فركتيدور بلهجة تمحكي لهجة رجل ثوري مغال في الثورة . فذلك الرجل الذي بذل المجهود فيما بعد ليجلس على العرش فرعي سلالة البوربون ، وتظاهر بشدة الميل الى سلالة ارليان ، كان يبين بكل حماسة لامباطوره المستقبل والمعبود الذي قدم له البخور ثم سحقه أنه قد صدر الحكم بالموت السريع الذريع علي كل من يسعى لاعادة الملكية ودستور سنة ١٧٩٣ أودستور أرليان

وانتهت الى بونابرت هذه المقدمات من زعيم الحزب الذي كانوا يسمونه « حزب الدستوريين والسياسيين » فاستقبلها وهو شديد الرغبة في اعداد

المعدات للطعام العظيمة التي كانت رياحها تهب في صدره، وكان يشعر بأن ساعته لم تكن بعد قد دنت، وأنها أوشكت أن تدنو، فاستفرغ الوسع لاستمالة دهاة السياسة اليه ليجعلهم يتحركون على هواه وقت ما تصير الاحوال مؤاتية له. - وحين نرجع بالفكر الى القوضى التي كانت ضاربة أطناها في فرنسا قبل ١٨ فركتيدور وبعده، ونذكر سقوط هيبة أعضاء الحكومة، وفساد بعضهم وضعف البعض الآخر نطن أن بونابرت كان شديد التحفظ أو كثير الجبن، وأنه لم يكن معتقداً أن نفوذ اسمه وملالة الاحزاب يكفيان لأن يجعلاه يقدم على العمل الخطير الذي كان يتوخى اجراءه والذي ظفر به فيما بعد، وكان يتراءى له أن شهرته يجب أن تتمزز بما أثر جلية جديدة وازدياد نفور سوقة الناس من مساوئ الديمقراطية. وقد يكون افتكاره بحملة مصر ينتمي الى ذلك الحين، وهذا ما افتكر به كثيرون من الناس بعد قراءتهم للنشرة التي أذاعها في ١٦ سبتمبر سنة ١٧٩٧ على بحارة أسطول الاميرال برويكس، ونوه فيها بانتصار الديركتوار على الخونة والمهاجرين الذين تربعوا في دست المنبر الوطني فقال فيها لأولئك الشجعان البسل. « لا نستطيع بدونكم أن نبلغ بمجد الاسم الفرنسي الا الى زاوية صغيرة في أوروبا، وبكم نجتاز البحار رافعين الراية الجمهورية فوق بلدان بعيدة المزار »

الا أن تحقيق تلك المقاصد الواسعة كان يقتضي عقد الصلح في أوروبا فلم يبق للنمسا بعد جبوط آمالها في ١٨ فركتيدور من وسائل للماطلة في المفاوضات الساسية، وأبدى الديركتوار المنتفخ بانتصاراته على الملكيين محالفي الامبراطور ميلا الى الحرب فكتب الى بونابرت :

« لا تراع للنمسا جانباً فان خيانتها وعلاقاتها بالمتأمرين في داخل البلاد قد ظهرت كالصبح لذي عينين » ولم تكن مقاصد الديركتوار منطبقة على مقاصد القائد الاكبر فان الدنو من فصل الشتاء جعله يعجل في عقد الصلح. وقال لكتابه. « وهب أقبل الآن جيش الزين لنجدي فقد لا يصل الي قبل شهر من الزمان وستسد الثلوج الطرق والمعابر بعد خمسة عشر يوما. قضي الامر وصممت على عقد الصلح، وستدفع البندقية نفقات الحرب، وسنجعل نهر الزين تخمها لبلادنا. فليقل الديركتوار والمحامون ما شاءوا »



نابوليون بوناپرت في المالميزون

ووقع وثيقة الصلح في كنبو فرميو في ٢٦ فنديميار « ١٧ أكتوبر سنة ١٧٩٧ » ، وكان من أول شروطه اطلاق أسرى أولمز وهم : لافايت ، ولاتور موبورغ ، وبورودي بوزي . وألح نابليون كل الالحاح لنيل هذا الأمر بناء على تعليمات الديركتوار .

الفصل السادس

— السفر الى راستادت — العودة الى باريس — السفر الى مصر —

ولما فرغ بونابرت من الحرب والمفاوضات السلمية لم يبق له من «سوتغ» للبقاء على حدود النمسا ، فجعل يحول في الاقاليم التي فتحها ويتفقد بلاد المبرديا وكانت قد استقبلته كمنخلص لها . وكان أنى سار يكبر له الشعب ، وحين وصل اليه أمر من باريس بالمضي الى راستادت لتولي شؤون الوكالة الفرنسية فيها استقبل بحماس واعجاب عظيمين في جميع بلاد سويسرا عند مروره بها من جنيف الى بال . وأرسل قبل مزايلته لميلانو مع جوير الى الديركتوار راية جيش ايطاليا ، وقد كتب على أحد وجهيها خلاصة جميع المعجزات التي أتاها ذلك الجيش ، وعلى الوجه الآخر هذه الكلمات « الى جيش ايطاليا من الوطن المعترف بالجميل » وعند مروره في المرة الاخيرة بمدينة مانطو أقام جنازاً لهوش ، وألح بالاسراع في انجاز الأثر المنوي تشييده لفيرجيل .

وكان من المعجبين به في ذلك العهد رجل حاد الذهن حديد الفؤاد بعيد النظر في العواقب ، وقد نشر ما ارسله من الملاحظات الى باريس في صحيفة صدرت في شهر ديسمبر سنة ١٧٩٧ وهذه فقرات مما جاء في تلك الجريدة . « شاهدت باهتمام عظيم وانتباه شديد ذلك الرجل الغريب الذي أتى امورا خطيرة ، وكأني به لم ينته بعد من مهمته . ووجدته مشابها كل المشابهة لصورته اي وجدته صغير القامة ، نحيل الجسم ، اصفر اللون ، تبدو عليه علامات التعب من دون ان يكون مريضاً كما اذاعوا عنه وكأني به يصغي لمن يخاطبه بقصد التسلية اكثر مما يصغي اليه باهتمام ، وكان يهتم بما يفتكر به اكثر مما يهتم بما يقولونه له ففي هيئته ذكاء شديد ، وكأنه دائم التأمل من دون

ان ينم بشيء مما يجري في داخله . ففي ذلك الدماغ المفكر ، وفي تلك النفس الصليبية العود يستحيل على المرء ألا يزعم ان فيهما أفكاراً جريئة من شأنها التأثير في حظ اوربا »

وبيناهم مجتازون سهل مورات الذي نكل فيه السويسريون بجيش شارل الجريء سنة ١٤٥٦ قال لانّ ان فرنسوي هذا العصر أفضل من فرنسوي تلك الايام في الحروب فقطع عليه بونابرت الكلام قائلاً له « لم يكن البرغونيون فرنسويين في ذلك العهد »

ولما وصل بونابرت الى راستادت رأى ان منصبه الجديد لا يلائمه ، فلم يكن ذلك الرجل العجيب يلقي منصباً يليق به الا في باريس وهي الوسط الذي تدور عليه رحي السياسة ، او في مقدمة جيشه او على صهوة جواده . الا انه لم يضطر الى التماس العودة الى العاصمة فالديركتوار نفسه أنفذ اليه رسالة يدعوه بها الى باريس ، وكان المسيو دي بوريان كاتبه الخاص يخاف أن يصحبه اليها ، وهو لا يدري ان اسمه محي من جدول المهاجرين . فأراد البقاء في المانيا فقال له بونابرت . « تعال معي واعبر الرين غير هياب ، وأنا أضمن لك أنهم لا يفصلونك عني »

وكان استقبال شعب باريس لنابوليون على ما كان يتوقعه منهم في مقابل ما أحرزته له أعماله العالية، على ان الديركتوار لسان حال الأمة ونائبها في اظهار عواطف معرفة الجميل كتم مخاوفه وحسده ، وأقام احتفالات باهرة لفتح ايطاليا في جديقة الاسكسبور ، وقدم تاليران بطل فرلسا لهيئة الديركتوار ، وألقي في تلك الحفلة خطاباً طامحاً بالمبادئ الجمهورية الراسخة الاركان فقال . « لا بد من ان يلاحظ القوم بشيء من التعجب كل ما أبذله من الجهد الآن لاصغر مجد بونابرت ، وهو لا يستاء من ذلك ، وقد دخلت علي الخشية حيناً من الزمان وساورني القلق وهو يطرأ كثيراً في جمهورية حديثة النشأة ويجعل القوم يوجسون خيفة من كل ما يبين مناوئاً للمساواة ، ولكنني كنت مغروراً . فلا تمس العظمة الشخصية المساواة بل تعتبر فوزاً مبيناً لها . ويجب على الجمهوريين الفرنسيين في هذا اليوم ان يكونوا جميعهم رجالاً عظاماً »

فأجاب بونابرت بالكلمات التالية ، وقد أطلق للمرة الاولى لقب « كبرى »

على الامة الفرنسوية

« يا أعضاء الديركتوار الوطنيين »

« قضي على الشعب الفرنسوي بأن يحارب الملوك ليظفر بحريته ،
« وكان ينبغي له ان يناوىء ثمانية عشر قرناً من الاوهام ليصيب الدستور
المبني على العقل .

فقد ذلتم بدستور السنة الثالثة جميع المصاعب القائمة في وجوهكم وان
الديانة وحكومة أصحاب الاقطاعات والملكية قد تولتا على التعاقب من عشرين
قرناً ادارة الشؤون في أوروبا ، وينتمي عهد الحكومة النيابية الى الحين الذي
عقدت فيه الصلح .

« تمكنتن من تنظيم الامة الكبرى التي لاحد لمتمسكاتها الا الحدود التي
وضعتها لها الطبيعة .

« وقد فعلتم أكثر من ذلك

« ولا يخفى ان القسمين الجليلين اللذين يفوقان سواهما في أوروبا واللذين
اشتهرا في خالي الحين بالعلوم والفنون ، ونبغ فيهما رجال عظام ينظران بعين
الآمال الى روح الحرية تنبث من قبور الجدود .

« وأتشرف بأن أقدم لكم الوثيقة المعقودة في كعبو فرميو وقد وقعها جلالة
الامبراطور

« وحين تبني سعادة الشعب الفرنسوي على أفضل الشرائع المنظمة تصبح
أوروبا جمعاء رائعة في بحبوحة الحرية »

وكان بوناپرت قد اتخذ لهجة الملاينة حين نسب الى الديركتوار الفضل في
عقد الصلح ، وفضلا عن ذلك كانت أحوال اللياقة تقتضي المجاهرة بمثل ذلك
الاكرام الرسمي . على ان الموجه اليهم هذا الاكرام لم ينخدعوا بتلك الظواهر
كما ان موجه الاكرام المذكور لم يكن منخدعاً في نوبته . ومن ذلك الحين
صادر بوناپرت بالفعل في موقف حكومة الجمهورية بازاء السياسة الاوربية .
فكانت الحكومة متجسمة فيه ، وكان يجعل فرنسا تتخذ الهيئة واللهجة اللتين
تدلهما عليهما مطامعه النبيلة ونهيته الحصيفة ، صارفاً النظر عن تعليمات الديركتوار
وعاملاً على اعتبار تينك الحاليتين جديرتين بذلك الشعب العظيم وملائمتين للمقاصد

التالية التي عقد عليها ذلك الرجل العظيم عري عزمه فقد سعى في وقت دخوله إيطاليا ، وبعبارة أخص من وقت معركة لودي ، لتعرية السياسة الفرنسية من الصفة العنيفة التي منحها إياها حادثة سنة ١٧٩٣ . ولم يكن يبتغي ان يصيب بطل ثورة الشعب الهائلة صلحاً مجيداً لبلاده وشهرة واسعة لنفسه ، وقد أدرك انه أذف الحين لتسكين ثائر التعصب الثوري الذي كان يرى ضرورته في الماضي ويشعر بوجوب تعزيزه ، فأظهر في المفاوضات مع ملك سردينيا والبابا والامبراطور ميلا الى المساومة والتساهل يمتاز به الرجال العظام بترفعهم عن أهواء الاحزاب ، ولكنه شاء خصوصاً في المؤتمرات التي أفضت الى وثيقة كنبو فرميو ان يبين لملوك أوروبا ان الجمهورية الفرنسية عدو كريم الاخلاق لا يدع البغض يعمي بصيرته ، ولا يجعل لمبادئه ومشوراته سبيلاً لتهديد الحكومات الاجنبية في المستقبل . وقد جاهر بهذا الامر في جزيرة القديسة هيلانة حين قال « ان المبادئ التي وضعت لتنظيم شؤون الجمهورية قررت في كنبو فرميو . ولم يكن للديركتوار يد فيها » هكذا كانت القوة الحقيقية التي زاوها ذلك الرجل ولم يكن الديركتوار يجسر ان يطلب منه تأدية الحساب عن احتقاره له وجرأته عليه

ووجه اليه جهاراً بلسان رئيسه اطراء سدهاء الفلوقلمته المبالغة ، مع انكار بونابرت لسلطة الديركتوار السامية واختلاسه لوظائفه ، وكان مما قاله باراس في جوابه للجنرال بونابرت « ان الطبيعة التي تضمن بمعجزاتها لا تلتج الا بين فترات بعيدة رجالا عظاما في الارض وقد تولتها الفيرة بأن تفتتح عصر الحرية بمثل هذا الحادث ، وكان من المقضي على فتنة الشعب الفرنسي الكبري التي لم يسبق لها نظير في تاريخ الامم أن تنشئ داهية في تاريخ مشاهير الرجال »

ولعمر الحق ان هذا التلق والتزلف للذين لم يأنف منهما الحسد لدى تأثير الرأي العام يدلان على ما كان بونابرت قد أصابه من سمو المكانة عند قومه ومما يقضي بالعجب ان نرى زعيم الحكومة الجمهورية مضطراً الى مخاطبة قائد بسيط من قواد الجنود باللهجة نفسها التي خاطبه بها بعد رئيس مجلس الشيوخ في الامبراطورية أو كبير خدامه

وكانا بالباريسيين من أهل النسيان، فقد محت شهرة بطل أركول ذكر مدفعي
فنديمار . فسكانوا أيا ن وقعت نواظرهم على بونابرت يكبرون له ويهللون ،
حتى ان القوم في الملاعب حين كانوا يعلمون ان بونابرت بينهم يرفعون أصواتهم
من كل جهة ، وتدعوه كل فئة الى الجلوس معها على ان تلك التظاهرات وان
تسكن تسره في الباطن كانت سبباً لافساد أمره عليه ، وقد قال ذات مرة « لو
كنت عالماً بأن المقصورات في الملاعب مفتوحة على هذه الصورة لما كنت دخلت
ملعباً قط »

ورغب بونابرت يوماً من الأيام في ان يشهد التمثيل في ملعب سري كان
الناس يؤمنونه زرافات زرافات ، وكان في مقدمة الممثلين والممثلات فيه عقيلة
سان أوبان وأليفيو ، فطلب ان يجرى التمثيل في ذلك الملعب بقوله . « اذا كان
ذلك ممكناً » فأجابه المدير برشاقة وخفة روح . « وهل من شيء غير ممكن
لقاهر ايطاليا وقد نسخ من مدة طويلة لفظة « مستحيل » أو « غير ممكن » من
متون اللغة »

ولا يخفى ان بونابرت مع ما كان القوم يبدونه من الاحتفاء به لم يسكر
بخمرة التبجيل والاطراء ، بل نظر الى موقفه بمقالة التروي والتؤدة ، وخشي ان
يكون بقاؤه مدة طويلة بلا عمل مدعاة الى نسيان ذكرى خدمه القديمة وناسخاً
لهوس الناس به ، فقال في هذا الصدد « لا يذخر المملأ الباريسي ذكر شيء ،
فان أنا مكثت هنا مدة طويلة بلا عمل لم آمن من الهلاك ولا محالة ، ففي بابل
هذه الكبيرة تخلف الشهرة الحديثة الشهرة القديمة ، فلا يروني ثلاث مرات في
الملعب حتى يتبرموا مني ولا يكثرثوا لي ، وعليه لا أغشى الملعب الا نادراً »
وكان يتمثل بقول كرمول حين كانوا يقولون له ان رؤيته تمحرك ساكنات
الحاسة في الجمهور « ان الشعب يزدهم أيضاً ازدحاماً أمامي حين يراني سائراً الى
المنطق » وأبى بونابرت ان يشهد حفلة تمثيل شائقة كانت ادارة الملعب تعدها
اكراماً له ، ولم يكن يجلس في الملعب الا في مكان يرى منه القوم ولا يرونه
وصار أصحاب المسكايدين يسجون برود الدسائس لاغتيا له ، فأشعرته احدى
النساء بأنهم يبتغون قتله بالسم ، فأوقف الشخص الذي حمل اليه ذلك الخبر

وساروا به ومعهم شيخ المحلة الى المرأة التي صدر عنها ذلك الانذار. ولشدها كان تأثرهم حين شاهدوا تلك المرأة التاسعة مضرجة بدمها ، فان السفاحين لما علموا انها سمعتهم يدبرون المكيدة ، وباحت بسرهم عمدوا الى ارتكاب جريمة أخرى بالفتك بها ليؤمنوا تبعة شهادتها عليهم . ولما التى بونايرت ذاته مبعداً عن الديركتوار أراد الانتظام في سلك الندوة العلمية مع أنه كان محتاجا الى معالجة غير الشؤون العلمية والمسائل الادبية ، فقبل فيها خلفاً لكارنو بعد ما خرج هذا منها في حادث ١٨ فركتيدور ، فانضم الى الفئة التي تعنى بالعلوم والفنون. وهانحن ذا كرر صورة الكتاب الذي أنقذه بهذا الشأن الى الرئيس كاموس .

» حضرة الرئيس الوطني

» ان قبول الاشخاص الممتازين الذين يؤلفون هذه الندوة اياي بينهم يشرفني .

» وانا أشعر بأني قبل ان أصبح مساوياً لهم أظل مدة طويلة معتبراً ذاتي تلميذاً لهم .

» ولو كان لي وجه آخر يفصح عن احترامي الشديد لهم لما أحجمت عن بسطه » ان الفتوح الحقيقية التي لا يعقبها تأسف هي فتوح قلعة الجهل » وان أشرف الاعمال وأهم المآثر التي تأتيناها الامم هي العمل على توسيع دوائر أفكار البشر

» وان القوة الحقيقية التي يقضى على الجمهورية الفرنسية بأن تبديها من الآن هي ان تعنى بأن يكون كل فكر جديد ناشئاً عنها . بونايرت »

وكانت تلك اللهجة غريبة في فم رجل بلغ ما بلغه من الفخر بأعمال حربية بحثة ، الا ان بونايرت كان يحاذر ان يدع أحداً يتوهم ان الحظ قد أبطره ، وان محبته للحرب قد شفقته . وكان بلوغ القمة التي سمت اليها مطامعه وأفكاره العالية يقتضي ان يظهر للعلاء طراً انه لا يقتصر على التبجح بانتصاراته والاشتغال بالشؤون الحربية فحسب شأن الكثيرين من مشاهير القواد ، بل كان يعيل أيضاً الى العلوم والتبحر فيها . وكان يهيمه كثيراً ان تتعود تلك الامة العظيمة الطامح هو ببصره الى الجلوس على عرشها ان ترى فيه شخصاً لا يكتفي بقوة السلاح

للدفاع عنها بل يصون كنوزها العقلية الثمينة، ويعينها على تعزيز سيادتها العامة سواء أكان من الجهة الادبية أو من الجهة الحربية

ولقائل أن يقول : وهل حان الوقت لاظهار المقاصد السرية التي صارت تجول في خاطره من انتشار حرب ايطاليا ؟ فنجيبه بأن بونايرت لم يكن معتقداً أن ذلك الاوان قد آن ، ففكر في وجوب الاسراع في تقض غبار الخمول عنه لئلا يستهدف لنبال العطب وتقلص ظل شهرته في مدة قصيرة . وصحت عزيمته على تأليف حملة ينطلق بها الى القطر المصري ، فوافقه الديركتوار على ذلك الامر ، لأنه لم يكن ينعم النظر في العواقب بل كان يبتغي أن ينجو من شر ذلك الرجل في القريب العاجل غير عالم بأن ما يصيبه ذلك الجندي الباسل من الانتصارات الجديدة يبهز أبصار الامة ويستميل اليه تعلقها به وميلها اليه .

وبعد ما دبر بونايرت خطة هذه الحملة تحرى أن يضعها وحده موضع الاجراء ، ووطن النفس على تجهيز جيش الحملة . واختار أيضاً العلماء والصناع لمرافقة الجنود رغبة في تسخير قوة السلاح لخدمة المدنية والعمران . ولما سئل عن مدة اقامته في مصر ، أجاب : « بضعة أشهر أو ست سنوات ، فذلك موكل الى الحوادث » وأخذ معه مكتبة مؤلفة من كتب تبحث في العلوم والفنون والجغرافية والرحلات والتاريخ والشعر والسياسة وازوايات . وقد ضمّ الجدول الذي وضعه اسماء بلوطرخس ، وبوليبس ، وتوسيديد ، وتيت ليف ، وطاسيت ، ورينال ، وفلتير ، وفردريك الثاني ، وهوميروس ، والطاس ، وأوسيان ، وفرجيل ، وفنلون ، وروسو ، ولافتنان ، وممرنتل ، والساج ، وغوطي ، والعهد القديم ، والعهد الجديد ، والقرآن ، والفيدا ، وروح الشرائع ، وأساطير الأولين .

ولما كان بونايرت على أهبة الارتحال عن باريس حدث خلاف بين برنادوت والحكومة النمساوية بسبب الراية المثلثة الألوان التي نصبها السفير الفرنسي فوق داره واهانتها سوقة الناس في فيينا فكادت الاحوال تقضي على بونايرت بالبقاء في أوروبا . وكان الديركتوار يريد أن ينتقم لهذه الاهانة بشهر حرب جديدة يتولى قاهر ايطاليا قيادة الجنود فيها ، إلا أن هذا الاخير لم ترقه الخططة التي كان الديركتوار ينوي انتهاجها مخافة أن تحول دون انجاز ما كان قد صمم

عليه ، فقال بصواب : « للسياسة أن تدير حركات الحوادث ، وليس للحوادث أن تدير مجرى السياسة » فاضطر الديركتوار الى النظر بعين الاعتبار الى هذه الملاحظة المبينة على التعقل والتروي وبعد النظر في العواقب ، وحينئذ تمكن بونايرت من أخذ طريقه الى طولون .

ولما وصل بونايرت في ٨ مايو سنة ١٧٩٩ الى هذه المدينة المعتبرة مهداً لشهرته وعجده ، علم أن القوم ينظرون بعيون التأفف والتذمر والانكار الى خطة العنف التي يعامل بها المهاجرون ، والتي أعاد ١٨ فركتيدور وضعها موضع الاجراء .

ولما لم يكن يستطيع اصدار الاوامر بصفة قائد في اقليم لم يكن خاضعاً لسلطته ، كتب بصفة كونه عضواً من أعضاء الندوة العلمية الوطنية رسالة الى المفوضين الحرييين في الجنوب محرضاً إياهم على الاعتماد على الرأفة وعواطف الانسانية في قراراتهم . وكان من جملة ما كتبه اليهم : « انتهى اليّ بأسف شديد انكم نصبتم هدفاً للرصاص شيوخوا يراوح سنهم بين سبعين وثمانين سنة ونساء حوامل معهن أطفال لوقوع التهمة عليهم بأنهم من المهاجرين .

« فهل أصبح جنود الحرية جلادين ؟

« وهل قضي على الشفقة التي كانت نصحبهم الى ميادين القتال بأن تهجر

حنايا ضلوعهم ؟

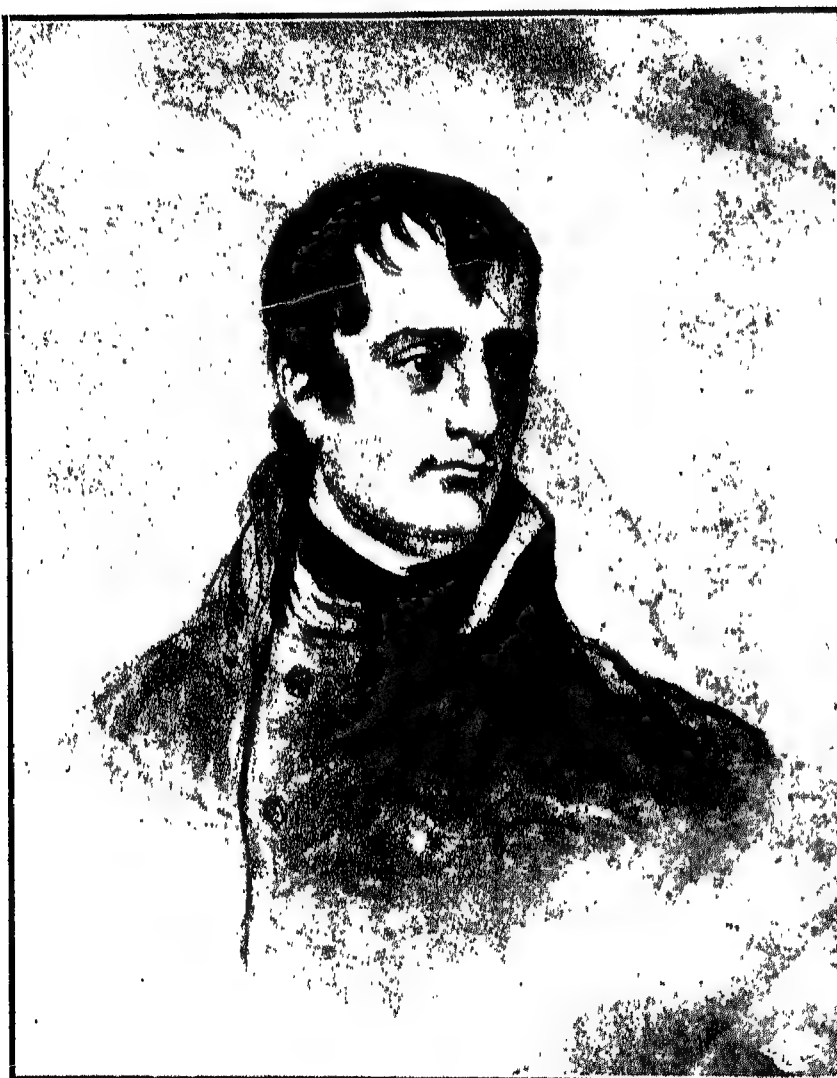
« لقد كانت شريعة ١٩ فركتيدور مدرجة للخلاص العام ، وكانت الغاية التي يتوخاها واضعوها الضرب على أيدي مدبري المسكايد وليس الفتك بالنساء التاعسات والشيوخ الذين مسهم الهرم

« أحرصكم يا حضرة الوطنيين أن تعلنوا على رؤوس الاشهاد ، كلما ساقى الشريعة اليكم شيوخوا يربو سنهم على الستين أو نساء ، بأنكم حين كنتم توقدون شعير الهيجاء كنتم تجهزموه الشيوخ والنساء عند أعدائكم .

« فالجندي الذي يوقع حكماً على شخص يعجز عن حمل السلاح يمد

نذلاً جباناً »

وكان من وراء المساعي الدالة على نبالة في المقاصد وكرم في الاخلاق خلاص حياة مهاجر كان المفوض الطولوني قد أوشك أن يرسله الى المقصلة . فما كان



نابوليون بوناپرت قنصل اول

أجل رؤية ذلك الجندي المتعود سفك الدم البشري في ساحة الوغى ، وهو يوصي الجنود بحقق دماء الشيوخ لعجزهم والنساء لضعفهن ، وما كان أجل رؤية ذلك الجندي المعدود من أشهر الجنود ، وهو يذكّر رجال الحرب بوجوب مراعاة ما توجبه عليهم الانسانية ، ولم يكن يستند في اظهار هذه العواطف الكريمة الى سلطته أو شهرته الحربية بل الى المسكنة التي أصابها بمقدرته العقلية ومواهبه العالية ومعارفه الواسعة وأعماله السلمية . ففي الرسالة التي وجهها بونابرت عضو الندوة العلمية الوطنية الى المفوضين الحرييين في الجنوب شعور عميق بضرورة اخضاع سلطة السيف لسلطة القلم في المهمة الخطيرة التي يتحدونها للظفر بالنجاح الاجتماعي

ولما تمت معدات السفر ، ودنت ساعة الرحيل ، خاطب بونابرت جيشه بالكلام الآتي

« أيها الضباط والجنود ،

من سنتين توليت قيادتكم حين كنتم مرابطين عند نهر جنوبي ، وكان الشقاء يخيم عليكم ، والحاجة ضاربة أطناها بين ظهرائكم ، وقد أنفتم كل شيء حتى ساعاتكم لابتياح ما تسدون به رمقكم فوعدتكم بإزالة شقائكم ، وسرت بكم الى ايطاليا حيث توفر كل شيء . . أولم أنجز مواعيدي لكم ؟ » فطبق الجنود القضاء بهذه الكلمة « بلى »

وحينئذ استأنف بونابرت خطابه قائلاً .

« ولكن اعلما أنكم لم تفعلوا حتى الآن شيئاً مذكوراً للوطن ، والوطن لم يفعل في نوبته شيئاً مذكوراً لكم ، وهاءنذا الآن ماض بكم الى بلاد تاتون فيها أعمالا تفوق الاعمال التي يتعجب منها المعجبون بكم ، وتؤدون للوطن خدماً يحق له أن يتوقعها من خواصي الغمرات الذين لا يشق لهم غبار » وأعد كل جندي بأنه يستطيع عند عودته من هذه الحملة أن يشتري

ست مئة قصبة مربعة من الارض

« وستستهدفون لسهام مخاطر جديدة يشاطركم اياها اخوانكم الملاحون ، ومعلوم ان اعداءنا لم يشعروا حتى الآن بثقل وطأة قوتنا البحرية . أجل ان ما تبهم لم تضارع ما تبكم لان الاحوال لم تمكنهم من ذلك ، وانما بسالة بحارتنا

مضاهية لبسالتهم ، وغايتهم التي يرمون اليها هي نيل الغلبة . وسيصيبون هذه
الامنية بالاتحاد معكم

« أوقمهم على ذلك الامل الذي لا يبارى والذي سخر لكم النصر أيان
سرتهم ، ومدوا لهم سواعد المساعدة ، وكونوا ، وأنتم معهم على متون السفائن ،
شاعرين بالعواطف التي يمتاز بها الاشخاص الذين لا تسمع ضمايرهم الا أصوات
الواجب عليهم ومحافظتهم على كرامة وطنهم ، وبحق لهم أن يتقاضوا كما تتقاضون
أنتم الوطن الاعتراف بالفضل لهم في ما عانوه من الشدائد في فن الملاحة .

تعودوا مزاوله أعمال الملاحة على ظهور المراكب ، واقدفوا الذعر على
أعدائكم برأ وبحراً ، وتصيروا جنود الرومانيين فقد تمكنوا من تدويخ قرطاجنة
في البحر والظفر بالقرطاجنيين وهم في سفنهم في عرض اليم
فأجابه الجيش بصوت واحد « فلتحيي الجمهورية ! »

وشيعت جوزفين بعلمها الى طولون ، وكانت تحبه محبة شديدة . فودعته
وداعاً مؤثراً للغاية . وقد خشيا أن يكون افراقهما أبدياً لما كان يترصد ذلك
القائد الهام من اهواء الحظ وتقلبات القضاء والقدر في الحملة التي ازمع ركوب مركبها
وفي ١٩ مايو اقلع الاسطول يقل بونايرت ورجاله



الفصل السابع

فتح مصر

ولما خرج الاسطول من طولون توجه الى مالطة ، فحدث ذات يوم عند غروب الشمس حين كانوا سائرين في بحر صقلية أن كاتب القائد الاكبر توهم أنه ناظر قم جبال الالب ، فأشعر بونابرت بما شاهده ، وهذا أظهر ما يدل على الارتياح . الا أن الاميرال برويكس أخذ منظاره وبعد ما حديق النظر فيه قال ان بوريان مصيب في توهمه . فحينئذ صاح بونابرت قائلاً « الالب » وبعد ما أغرق الفكر في بحر التأمل مدة من الزمان قال . لا استطيع وايم الحق أن أبصر ايطاليا من دون ان تعتريني هزة فأمامنا الشرق ونحن شاخصون اليه ، حيث تدعونا مهمة مخوفة بالمتالف ، تشرف هذه الجبال على سهول أسعدني الحظ بأن أفود اليها القرنسوين غير مرة ليجنوا من أدواحها ثمار النصر . ونحن موقنون بأننا سنصيب بهم الغلبة ايان توجهننا »

وكان بونابرت في أثناء السفر يسر كثيراً بمحادثة العلماء ورواد الذين محبوبه . فيخاطب كلا منهم بما يروقه من الموضوعات ويكون من اختصاصه البحث فيه . وكان في غالب الاحيان يدعو اليه منج وبرتوله ويباحثهما في العلوم الدقيقة ويخوض معهما في مجال الكلام عن السياسة وعلم المعقولات . وكان يميل الى الجنرال كافارلي دوفلجا ويمنحه من ذات نفسه ، فقد كان يجسد في أحاديثه التي يجاذبه أطرافها في كل يوم لذة صادرة عن توقد ذهنه وسرعة خاطره . وكان بعد الغداء يلقي على الحضور مسائل معقدة في موضوعات خطيرة ويعين لكل مسألة شخصاً يعالج حلها . وكانت غايته من هذا الامر اختبار مداركهم ورغبته في التبسط في مثل هذه الموضوعات ، وكان يمنح الافضلية للألى يصرون على مخالفة الرأي العام بأسلوب يدل على الحسنة والفتنة . ولم يكن لهذه المباحثات من قيمة الا ترويض الافكار على الخوض في البحث . وكان يحب أيضاً أن يطرح قضيتي عمر العالم وانقراضه على بساط الجدل . ولم يكن تصوره وفكره يرتاحان إلا الى القضايا الواسعة الكبيرة .

ووصل الاسطول بعد سفر هادىء مدة عشرين يوماً الى جزيرة مالطة في ١٠ يونيو ، فاحتلوها بلا مقاومة . فقال كافارلي لبونابرت مازحاً بعد تفقد الحصون والاستحكامات : « لقد أسعدنا الحظ يا سيدي الجنرال بأن نجد في المدينة من فتح لنا أبوابها . » وقد أنكر نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة أن يكون الفضل في هذا الفتح السريع الداني المنال لأشخاص اتهموا بخيانة وطنهم فقال : « استوليت على مالطة وأنا في مانطو ، فعمالتي لورمسر بالحسنى سهلت لي خضوع زعيم الجزيرة وفرسانه » إلا أن المسيودي بوريان يؤكد بأن هذا الفتح لم يتم على هذه الصورة الا بالخيانة .

ولم يمكث بونابرت في مالطة سوى بضعة أيام ، فبرحها ميمها جزيرة كريت ، وفي ٢٥ يونيو بدت لا نظارهم الجزيرة . وكان من وراء شخص بونابرت الى كريت تضليل للنسب الاميرال البريطاني عن العثور عليه والتقاءه بالاسطول الفرنسي أمام مدينة الاسكندرية كما كان مقرراً في حسبانته . وكان ذلك من حسن حظ القائد الفرنسي ومهادنة الاقدار له ، وقد صرح برويكس بأن الاميرال البريطاني كان يستطيع أن يظفر بعشر سفن بالاسطول الفرنسي برمته ويدمره على بكرة أبيه . وكثيراً ما كان يتنهد ويقول : « لقد شاء الحق سبحانه وتعالى برحمته أن نجتاز البحر من دون أن نلتقي بالبريطانيين » . وقبل وصول بونابرت الى أرض أفريقية أراد أن يخاطب جنوده ليضمهم في قلوبهم نيران الحماسة معللاً إياهم بأمل الفتح القريب ، ومخذراً إياهم من الوهن والاضطراب . واليك تعريب الخطاب الذي ألقاه عليهم :

« بونابرت عضو الجمعية العلمية الوطنية والقائد الاكبر

» عن متن السفينة لوريان في ٤ مسيدور سنة ٦

« أيها الجنود

« أنتم مباشرون فتحاً لا يحد تأثيره بالمدينة والتجارة في المعمورة ، وستضربون بريطانيا ضربة مؤلمة ريثما يتسنى لكم ان تضربوها الضربة القاضية ، سنسير بالبلاد سيراً يصيبنا من جرائه العناء والاعياء ، وسنشترك في حروب هائلة ، وسنجني ثمار النصر من جميع مشروعاتنا وفي جميع هذه الاعمال سيفتر لنا ثمر الحظ . ان الممالك الذين يساعدون التجارة البريطانية ، ويجرعون تجارنا كنؤوس

الاهانة مترعة الى الاصبار، ويحملون سكان وادي النيل أثقال المظالم، سيصبحون
أثراً بعد عين بعد وصولنا بأيام.

« إن الشعوب التي سنعيش بين ظهرانها تدين بالدين الاسلامي، وقاعدة
ايمانها الاولى «لا إله الا الله ومحمد رسول الله» فلا تعارضوها بشيء من الاشياء،
بل تصرفوا معها كما تصرفنا مع اليهود والايطاليين. احترموا المفتين والائمة
كما احترمتم الحاخامين والاساقفة وكونوا متساهلين لا قلمتهم الاحتفالات
المنصوص عنها في القرآن لتكريمهم المساجد كما كنتم متساهلين مع المسيحيين
واليهود في تكريمهم الديورة والجامع.

« كانت العساكر الرومانية تحمي جميع المذاهب الدينية، فستلقون هنا
عادات واصطلاحات تختلف عن العادات والاصطلاحات المألوفة في أوروبا، فيجب
عليكم ان تتعودوا العمل بموجبها

« ان الشعوب التي سنخالطها تعامل النساء بخلاف ما نعاملهن به، ولكن
المغتصب يعتبر وحشاً ضارياً عند جميع الأمم

« ان النهب لا يغني الا فئة صغيرة من الناس، فهو يجل فاعله بالعار ويتلف
مواردنا ويجعلنا من المنظور اليهم بطرف العداء والبغضاء عند شعوب يهمننا
كثيراً خطب مودتها

« وأول مدينة نصل اليها شيدها الاسكندر، وسنلقى عند كل خطوة
نخطوها آثاراً عظيمة جديدة بأثارة حب المباراة في صدور القرنسويين »

وعلى أثر هذا الخطاب أذاع بونايرت نشرة تقضي بالموت على كل جندي
يقدم على النهب والاعتصاب وارهاق الناس بدفع الضرائب واختلاس أشياء
القوم. والتي على الضباط تبعة مخالفة الجنود للأوامر والنواهي.

وكان بونايرت يتحدى الرومانيين في التشديد على جيشه بوجوب السير
على الخطة المثلى، ومما هو جديد في خطابه هذا وجدير بالاعتبار على مثال ما فاه
به في الخطب العديدة التي خطبها في هذه الحملة، هو مشهد ذلك الفاتح الذي لم
يكن، كما قضت عليه الحال بأن يخطب في جنوده خطبة حماسية أو يلقي على
الشعب المغزوة أرضه كلاماً يستميله به، يطأ مواقع اقدم الذين تقدموه مستنداً
في ذلك الى الخزعبلات والترهات والتهويل بكلمات نفخة وهائلة، بل كان يعتبر

بعكس ذلك ان أول لقب يستميل اليه احترام الناس له وثقتهم به هو لقب « عضو » في ندوة علمية لا تعتمد في نيل النفوذ السلمي الا على العقل البشري ، فالاسكندر نفسه لما قدم مصر تلقب بابن المشتري ، وقيصر كان يزعم انه متحدر من الالهة بواسطة اسكانيه ، ومحمد اتخذ لنفسه فيها لقب نبي وكان يسخر الحسام لتمزيق دعوته ، وقد أطلق على أشد قواده بأسا لقب سيف الله ، وأتيلاجعل الناس يسمونه ضربة الله ، والحق سبحانه وتعالى عينه كان اللاهوتيون والشعراء في القرون المتوسطة يدعونه مستودع الصواعق ورب الجنود ومدبر الحروب . وأدرك بونا برت سر عصره وما كان نيل السيادة فيه على الافكار يقضي عليه ليصيب مجداً غير المجد الذي يصيبه غيره من الناس . ولما كان هذا الرجل العظيم يريد ان يظهر بنوع جلي ومثال واضح حي ان قوام النجاح الاجتماعي الذي بشر به الفلاسفة واحلته الشعوب على الرحب والسعة هو اخضاع سلطة السيف لسلطة الفنون المقرونة بالمدنية والعمران ، ولسلطة التجارة والعلم ، أعطى وهو أشهر قائده عند أمة تفوق سواها في الحرب ، المحل الثاني لمنصبه كقائد الجيش الأكبر والمحل الأول للقبه كعضو في الندوة العلمية . وكان يستهل رسائله وخطبه بهذه الكلمات « بونا برت عضو الجمعية العلمية الوطنية »

ووصل الاسطول الفرنسي الى مياه الاسكندرية في أول يوليو وكان نلسن قد جاءها من يومين فأدهشه ألا يرى فيها أثر للحملة الفرنسية ، فظن أنها توجهت الى سواحل سورية لتصعد الى البر في الاسكندرونه ولما انتهى الى بونا برت أن نلسن توجه الى الديار السورية للبحث عنه وعلم أنه لا يلبث أن يعود الى وادي النيل حين لا يجده في بلاد الشام صمم على دخول القطر المصري ، الا أن الاميرال برويكس اقام النكير على عمل بونا برت ، فأصر هذا على قصده وألح بلهجة الأمر الأكبر بالصعود الى البر قائلاً للاميرال برويكس الذي كان يطلب مهلة اثنتي عشرة ساعة . « يا حضرة الاميرال ليس لنا وقت نضيقه ، فالحظ لا يمهلي سوى ثلاثة أيام . فان أنا لم أستفد من هذا هلكنا ولا محالة »

فاضطر الاميرال الى الاذعان لمشيئة القائد الأكبر وكان اذئذانه سبباً لنجاة أسطوله . فان نلسن لما لم يقف له على أثر في الارجاع التي بحث عنه فيها اسرع

في العودة الى الاسكندرية . ولكن كانت الفرصة قد فاتت فان عناد بونا بارت وسرعته خلصا الجيش الفرنسي ، فصار جميعه على اليابسة وكان صعود الفرنسيين الى البر في ليل اليومين الاول والثاني من شهر يوليو في الساعة الواحدة بعد نصف الليل على بعد ثلاثة فراسخ عن مدينة الاسكندرية . فزحفوا نوا الى المدينة وتسلقوا أسوارها . وجرح كليبر في رأسه وهو يزحف في مقدمة الهاجمين . ولم يكافهم الفتح سوى قليل من العناء من دون أن يعقبه أمور وخيمة فلم يتبع في الاسكندرية نهب ولا قتل

ولما وطىء بونا بارت أرض القراعنة بأخصيه كتب الى حاكم مصر مائتي . - « ان الحكومة الاجرائية في الجمهورية الفرنسية طلبت غير مرة من الباب العالي معاقبة بكوات مصر على تجريمهم التجار الفرنسيين كؤوس المهانة ، الا ان الباب العالي أجاب بان البكوات المعروفين بمطامعهم وأهوائهم لم يكونوا يسمعون صوت العدالة ، فهو لا يكتفي بالتصريح بأنه لا يرضى بوجه من الوجوه بأن يهان الفرنسيون أصدقائه الكرام القداماء بل يعلن أنه رفع عن اولئك البكوات ظل حمايته

» وقد قررت حكومة الجمهورية الفرنسية أن تسير جيشاً قوياً لتضع حداً لتعدي بكوات مصر ، كما كانت قد اضطرت غير مرة في هذا القرن أن تعامل بمثل هذه المعاملة بكوات تونس والجزائر ،

» فانت ياسيد البكوات مضطر الى القيام في القاهرة وليس لك من السلطة والقوة سوى الاسم ، وعليه ينبغي لك أن تنظر بطرف الابتهاج الى قدومي الى بلادك ،

» ولا بد من أن تكون قد عرفت اني لم اقدم لمناوأة القرآن او السلطان بشيء من الاشياء ، لانه لا يخفى عليك أن الامة الفرنسية هي حليفة السلطان من دون سواها في اوربا

» نخف اذن للملاقاة ، وشاطرنى لعن ذرية البكوات الكافرة ! »

ووقت ما دخل بونا بارت مدينة الاسكندرية بادر الى اذاعة النشرة الآتية على سكانها

» بونا بارت عضو الجمعية العلمية الوطنية والقائد الاكبر للجيش الفرنسي

« مضت مدة طويلة والبكوات حكام مصر يسوقون الالهانة للامة الفرنسية
ويصمون تجارها بوصمة العار ، وعليه دنت ساعة العقاب ،
« مضت مدة طويلة واولئك الارقاء المشترون من القوقاس وجورجيا
يعيثون فساداً في أجل بقعة في المعمور ، الا أن الله مرجع كل شيء شاء ان
تنقرض دولتهم .

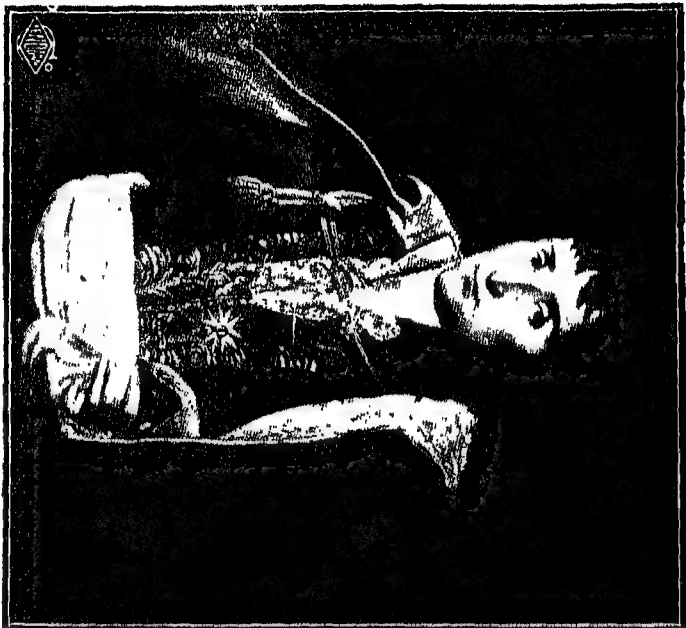
« يا شعوب مصر ، سوف يقولون لكم اني قادم لابطاد ديانتكم ، فلا
تصدعواهم بل قولوا لهم اني آت لاعيد اليكم حقوقكم ، وأعاقب مختلسيها ، وأنا
أحترم الله ونبيه الكريم أكثر مما يترحمهما المماليك قولوا لهم ان جميع البشر
متساوون لديه تعالى ، وانه لا فرق بينهم الا بالحكمة والمواهب العقلية والفضائل
وعليه بأي حكمة ومواهب عقلية وفضائل يمتاز بها المماليك حتى يتسنى لهم ان
يتمتعوا بكل ما يجعل الحياة هنيئة وعذبة ؟

« فاذا كانوا يزعمون ان مصر ملك لهم فليبرزوا الصك الذي تسلموه من
الله ، ولكنه تعالى عادل ورحيم

« وسينتدب المصريون لتولي الشؤون في جميع الخطط ، فالذين يتفوقون
فيهم على غيرهم في الحكمة والعلم والفضيلة يحق لهم ان يديروا سكان الحكومة ،
وحينئذ يصبح الشعب سعيداً .

« كانت لكم في خالي الحين مدن عامرة وترع كبيرة وتجارة واسعة ، فمن
أخنى عليها جميعها ؟ أو ليست مطاعم المماليك ومظالمهم ومساوئهم ؟
« أيها القضاة والشيوخ والشوربجية . قولوا للشعب أنا أصدقاء مخلصون
للمسلمين الحقيقيين . أو لسنا نحن الذين نكلنا بالبابا وقد كان ينادي بوجوب
شهر الحرب على المسلمين ؟ أو لسنا نحن الذين أبدنا فرسان مالطة الاغرار وقد
كانوا يعتقدون ان الباري عز وعلا يريد ان يشهر القتال على المسلمين ؟ أو لم
نكن في كل عصر أصدقاء المولى الاكبر (أيده الله) وأعداء أعاديه ؟ أو ليس
المماليك بمعكس ذلك متمردين على سلطة السيد الاعظم وهم لا يزالون ينكرون
آلاؤه ولا يجرون الا على سنن أميائهم الملتوية ؟

« فهنيئاً للذين ينضمون الينا ، فيصيبوا الغبطة في معيشتهم ورفعة المنزلة
في دنياهم وسعداً لمن يلزمون خطة الحياذ فيكون لهم وقت كاف يقفون فيه



يوسف بوزارت ملك اسبانيا
ولد في مدينة كورثه ١٧٦٨ وتوفي في فلورنسه ١٨٤٤



لوسيان بوزارت امير كانيو
ولد في اجاكسيو ١٧٧٥ وتوفي في فيترى بايطاليا ١٨٤٠

على حقيقة حالنا وينحازون إلينا ، ولكن الويل ثم الويل للذين يتشيعون للمهاليك ويقاثلوننا ، فلا يبقى لهم من مطمع في الحياة بل ينتهون الى اسوأ مصير ! »
وبعد مافوض بونا بارت الى كليبر القيادة في الاسكندرية فصل في ٧ يوليو عن هذه المدينة متوجهاً الى دمنهور بطريق الصحراء ، فذاق الجيش اشكالا وألوانا من الجوع والعطش والحر الشديد ، وهلك من جراء ذلك فريق كبير من الجنود ، إلا أنهم أصابوا شيئاً من الراحة في دمنهور فجعل بونا بارت مركزه عند شيخ البلد وهو رجل طاعن في السن يتربا بزي المساكين لينجو من المظالم التي كانوا يسوقونها الى ذوي اليسار. واستأنف بونا بارت مسيره الى مصر ، وظفر في أربعة أيام بالمهاليك في الرحمانية وأتلف أسطول البكوات وفرسانهم في شبريس واتخذ القائد الأكبر تنظيم المربع في الحرب في هذه المعركة الأخيرة فكان فرسان العدو يهجمون عليه بجرأة غريبة فلا يلقون أمامهم سوى العطب والبور. ففي بدء هذه المعركة التي أصاب فيها يره قائد احدي الفصائل فوزاً مبيناً وظفر بأعدائه الكثيرين المقيمين في موقع حصين كان العالمان منج وبرتوله يقاثلان الاعداء ويملون بهم بلاء حسناً !

ولم تكن انتصارات بونا بارت ورجاله سوى مقدمة لفوز باهر فتح في وجوههم أبواب مصر ، ففي أواخر شهر يوليو التقوا بمراد بك عند الاهرام ، فهبت في صدر بونا بارت سمات الحماسة عند رؤيته الآثار الهائلة الفخمة ، وصاح قبل اضرام نار القتال .

« أيها الجنود ستقاتلون المتسلطين على القطر المصري ، ولكن اعلموا أن من أعلى هذه الاهرام أربعين قرناً تنظر اليكم » ، أجل ان أربعين قرناً كانت تنظر من أعلى الاهرام الى الفرنسيين ، ان أربعين قرناً شاهد أولها وضع هذه الرموس الملوكية الهائلة على أيدي المصريين الأرقاء ، وشاهد آخرها هذه الآثار الدالة على العبودية القديمة محروقة على أيدي الفرنسيين الحرة خدمة للمدينة والعمران ، وكانت كلمة بونا بارت الوجيزة هذه تدل على الفسحة الفاصلة بين البناء والفتحين . فالأولون كانوا ظلاماً أو عبيداً من ولادتهم ، والآخرون كانوا من أهل الحرية والمساواة بحسب أهليتهم فن عهد القراعة أصحاب السلطة المطلقة المشهورين باستعبادهم للقبائل المقضي عليها بمزاولة الاعمال

الشاقة ومعاناة شظف المعيشة ، الى عهد القائد الذي قال للمصريين . « ان جميع البشر متساوون لديه تعالى » وبشرهم بأفضلية الفضائل وسيادة المواهب العقلية . تنظر سلسلة متصلة حلقاتها بعضها ببعض الآخر ومفرغة في قالب النجاس البطني ، المقرون ، بالمشاق ، تنصل الحلقة الاولى منها بالحجر الاول من الاهرام الذي وضعته يد مثقلة بغل العبودية ، والحلقة الاخيرة منها بكلمة جندي لا يعترف بحق الزعامة إلا لمن أوتي الحكمة وازدان بالكلمات الادبية ، ويزيد تباهيه بانتشار أنوار العقل على تباهيه بامتداد قوة السيف . وحين قال بونا برت الجنود الجمهورية ان اربعين قرناً تنظر اليهم وهم ليس لديهم سوى القبائل التي اتصل اليها ارض العبودية القديمة ، كان يحرك ساكنات حماسة جنوده لحفظ التمدن وتوسيع نطاقه بعد ما اقتضى هذا التمدن عناء دام أربعة آلاف سنة أتفق في أثناءها النفس والنفيس وفضلا عن ذلك ان هذه الآثار المنتشرة فوقها علامات المهابة والناطقة بآيات الاجلال لم يستشهد بها على غير جدوى ، فان الجيش الفرنسي قابل هذا الامر بانتصار باهر أصابه في مقاتلة المماليك

وعرفت هذه المعركة باسم « امبابه » وهو اسم قرية اشتبك القتال على مقربة منها . وبعد قتال عنيف استرخصت فيه النفوس ودام تسع عشرة ساعة تضعضت أركان المماليك واليكم تفصيل هذه الواقعة الهائلة على ما كتبها الغازي

معركة الاهرام

« التقينا في ٣ ترميدور عند الفجر بطلائع الاعداء فهزمناهما من قرية الى قرية وفي الساعة الثانية بعد الظهر انتهينا الى معقل جيش العدو فأمرت فصيلتي ديزه ورينيه بأن تحيما الى الميمنة بين الجزيرة وامبابه لتقطعنا على العدو الاتصال بينه وبين مصر العليا . ملجأ الطبعي . وكان الجيش مصطفاً على الشكل نفسه الذي كان مصطفاً عليه في معركة شبريس ولما أس مراد بك ميلا من ديزه الى اجراء حركة حربية صمم على الهجوم عليه وأنفذ أحد بكواته الاشداء بنخبة من رجاله ليشن الغارة بسرعة البرق على تينك الفصيلتين . فأمرهم الفرنسيون ريثما صاروا على قيد خمسين خطوة منهم واستقبلوهم بالرصاص والقذائف ، فسقط منهم عدد كبير في ميدان القتال ، واندفع الباقون منهم على الفصيلتين فالتقتاهم بنار حامية أجهزت عليهم

« فاغتنمت الفرصة وأمرت فصيلة الجنرال بون المرابطة على النيل بان تهجم على المعقل ، وأوعزت الى الجنرال فيال قائد فصيلة الجنرال مينو بان يتوسط بين الفيلق الذي هجم عليه والاستحكامات فينتهي الى ثلاث غايات : —

أولاً — منع الجنود المصرية عن العودة اليها .

ثانياً — قطع خط الرجوع على الجنود النازلين فيها .

ثالثاً — الهجوم عند مسيس الحاجة على تلك المعقل من الجهة اليسرى

« وحالما اقترب القائدان فيال وبون أمرا الفصيلتين الاولى والثالثة من كل فرقة بأن تصطفا للهجوم ، وبقيت في مركزيهما الفصيلتان الثانية والرابعة وقد الفتا شكل مربع لم يبق مخيما الا فوق ثلاثة من المرتفعات ، وزحف المناصرة الهاجين .

« وهجم رجال الجنرال بون بقيادة الجنرال رمبون الباسل على المعقل بجراثهم المعهودة ، غير مكترئين للنيران المنصبة عليهم من أفواه المدافع العديدة فقتلهم المماليك بالمثل وخرجوا من المعقل شانين الغارة عليهم . وقد تيسر لجنودنا ان يقفوا ويقابلوا الاعداء من جميع الجهات والحراب في رؤوس بنادقهم ويصبوا عليهم مطراً من الرصاص . وكانت جشت القتلى تغشى ساحة الهيجاء ، وتمكن رجالنا من الاستيلاء على المعقل . فولى المماليك الادبار ، وانهمزوا زرافات زرافات من جهة الميسرة ، واضطروا الى المرور أمام فرقة من عساكرنا قتل منهم مقتلة عظيمة ، وقذف عدد كبير منهم الى النيل فغرقوا فيه

« وسقط في حوذتنا أكثر من أربع مئة بعير موقرة أمتعة ، وخمسون مدفعا . وقدرت خسارة المماليك بألفي رجل من نخبة الفرسان ، وقتل وجرح فريق كبير من البكوات ، وأصيب مراد بك بجرح في خده . وبلغت خسارتنا عشرين أو ثلاثين قتيلا ومئة وعشرين جريحاً . وفي الليلة عينها أخليت مدينة القاهرة . وأحرقت جميع زوارقهم المدفعية وسفائهم الحربية وقواربهم وبارجتهم ودخلت جنودنا مدينة القاهرة في ٤ ترميدور .

« وأحرقت المجموع المتهيجة منازل البكوات في خلال الليل وأنوا كثيراً من المحظورات ، ويعز على المرء ان يلقى في غير مدينة القاهرة أو شاباً وأوغاداً بقدر ما يلقى فيها ، وهي تضم أكثر من ثلاث مئة نفس من السكان

« وبعد المعارك والوقعات المتوالية التي اضرمت ناراها الجنود الرافعون فوق رؤوسهم لوائاً ، وحاربوا قوات تفوق قوتهم ، احبس لساني عن الاطراء على ثباتهم ورباطة جأشهم في مثل هذا الموقف ، لو لم يقتض هذا الشكل الجديد صبراً من جهتهم يخالف الحدة الفرنسية . فلو استسلموا لحدتهم لما كانوا قد أصابوا الظفر الذي لا ينال الا برباطة الجأش والصبر الجميل

« ونم فرسان الممالك بأسرار شجاعة غريبة ، فكانوا يدافعون دفاع الابطال عن ثروتهم ، وقد وجد جنود مع كل واحد منهم مبالغ من المال تتفاوت بين ثلاث مئة دينار وخمس مئة دينار

« وكان اولئك القوم يحصرون كل نخفتهم في خيولهم وسلاحهم ، وأما بيوتهم فكانت في حالة يرثى لها ، على أنه يصعب على المرء أن يلقى أرضاً أخصب من أرض مصر وشعباً أشقى من شعبها وأشد جهالة وخمولا منه ، فهم يؤثرون زرا من أزرار جنودنا على ريال قيمته ستة فرنسات وفي القرى يجهل القوم وجود المقاريض ، وبيوتهم مصنوعة من الطين وليس عندهم من الرياش سوى حصيرة من القش وقدرين أو ثلاث قدور من الفخار . وهم على وجه الاجال يتناولون قليلا من المطعم والمشرب ويجهلون كل الجمل استعمال المطاحن ، وقد كنا نازلين فوق مقادير وفيرة من الحنطة من دون ان نستطيع الحصول على شيء من الدقيق فكنا نعيش على البقول واللحم . وهم يصيبون الدقيق بطحنهم البر بين حجرين ، وفي بعض القرى الكبيرة مطاحن تديرها الثيران . وكانت عصابات من الاعراب قوامها لصوص وسفاحون من أعظم لصوص الارض وسفاحيها توالي الهجوم علينا ثم لاتلبث أن تفتك بالترك أنفسهم كما تفتك بالفرنسيين على السواء ، ولا تحجم عن شيء تصل اليه أيديها . فاللواء مويرور وكثيرون غيره من الحجاب والضباط في أركان الحرب قتلهم أولئك الاشقياء الكامنون وراء السدود وفي الخنادق وهم على صهوات جيادهم الصغيرة الجسوم والويل لمن يبتعد مئة خطوة عن الجيش . وحيث ان اللواء مويرور لم يعبأ بانذار الخفير بل أصغى لصوت القضاء والقدر — وقد لاحظت في غالب الاحيان ان هذا الامر يصيب الذين تحين ساعتهم — وصعد الى اكمة تبعد نحو مئتي خطوة عن المعسكر . عدا عليه ثلاثة من الاعراب كانوا في ذلك المكان

واغتالوه . فكان فقدته خسارة كبرى للجمهورية ، لأنه كان قائداً من أشجع القواد الذين عرفتهم .

« ولا يتيسر للجمهورية ان تصيب طارئة أقرب من مصر إليها ، ولا تربة أغنى من تربتها . فهو أؤها جيد لأن ليلها يهب فيه النسيم البليل . وبعد مسيرة خمسة عشر يوماً واحتمال متاعب متنوعة وحرماننا الحُر وكل مامن شأنه ان يخفف عنا أثقال الاعياء لم يصب أحد منا بداء من الادواء ، وقد وجد الجنود لذة عظامى في البطيخ المتوفر هنا . . . »

« وامتازت المدفعية امتيازاً باهراً ، فاطلب منكم رتبة فريق للواء دومارتين وقد وعدت دستان قائد نصف الفرقة الرابعة برتبة لواء . وقام الجنرال زاينوشيك خير قيام بأعباء المهمات العديدة الخطيرة التي فوضت اليه قضاءها . وركب المدبر سوسن من أسبيطيل النيل ليسهل عليه ايصال القوات اليها من الدلتا . ولما علم اني أضعاف الاغذاذ في السير ، وكان راغباً في أن يكون الى جانبي في أثناء نشوب القتال ، قذف بنفسه الى زورق من روارق المدفعية ، وانفصل عن الاسبيطيل مع ما كان يحيط به من المخاطر التي تهدده . فنشب الزورق في الرمل وهجم عليه عدد كبير من الاعداء ، فباح بأسرار جرأة عظيمة وجرح في ذراعه جرحاً بالغاً ، ولكنه تمكن من اقالة شتار رفاقه واخراج الزورق من المأزق الذي نشب فيه

« لم تصل اليها أخبار من فرنسا بعد ارتحالنا عنها . . . »

« أرجو منكم ان تدفعوا مكافأة قدرها ١٢٠٠ فرنك لزوجة الوطني لاري كبير جراحي الجيش ، فقد أدى لنا في وسط الصحراء أعظم الخدم بنشاطه وغيرته . وعندي ان هذا الطبيب هو أفضل من جميع الاطباء الذين أعرفهم ليكون رئيساً لمستشفيات الجيش النقالة »

وفي الغد وهو اليوم الرابع من شهر ترميدور (٢٢ يوليو) دنا بونايرت من القاهرة وأذاع اللشرة الاتية .

« يا شعب القاهرة ، يسرني تصرفكم ، فقد أصبتم في امتناعكم عن الترس بنا ، قدمت لاستئصال شأفة الممالك وصيانة التجارة وأهل البلاد الوطنيين ،

فليسكن جأش الملهوفين ، وليرجع الى منازلهم هاجروها ، ولتقم الصلوات اليوم
كألوف العادة ، وليثابر عليها دائماً . لا يدخل عليكم الخوف من اصابة الضرر
لعيالكم وبيوتكم ومقتنياتكم ولا سيما دين النبي الذي أحبه . وحيث كانت
الحال تقتضي الاسراع في انتقاء أشخاص تفوض اليهم ادارة الشحنة لثلاث تتكرر
حياض السكينة فسيمقد مجلس مؤلف من سبعة أشخاص يجتمعون في جامع قير ،
وسيكون منهم اثنان مقيدين دائماً بخدمة قائد الموقع ، وسيهتـم أربعة منهم
بالمحافظة على الراحة العامة ومراقبة أعمال الشحنة » وفي ٢٤ يوليو دخل
بونابرت عاصمة القطر المصري ، وفي ٢٥ منه كتب الى أخيه يوسف أحد أعضاء
مجلس الخمس مئة ما يلي

« ستقرأ في النشرات العامة أنباء فتح مصر وما تأنيناه من القتال في سبيله
لنضيف صفحة أخرى الى تاريخ مجد هذا الجيش . ان أرض مصر تفوق أرض
جميع البلدان في وفرة ما يجنى منها من الحنطة والارز والبقول واللحوم ، بيد
ان الهمجية قد بلغت فيها غايتها ، وليس فيها مال للقيام بشيء من الاشياء ولا سيما
لدفع نفقات الجند . وبعد شهرين أتمكن من الوصول الى فرنسا
« أسمع لكي يكون عند وصولي معركة أوقد سعيها اما على مقربة من
باريس واما في برغونية حيث أنوي ان أقضي فصل الشتاء »

ويستنتج من هذه الرسالة ان بونابرت كان يعتقد ان فتحه مضمون وانه
يستطيع ان يكل أمر المحافظة عليه لنوابه العقلاء الدهاة من دون ان يعرضه
للخطر أو ان يوجس خيفة من افلاته من أيديهم . ولكن ماذا كانت الغاية
من وراء رجوعه الفجائي غير المنتظر ؟ فهل كان يبتغي العودة الى فرنسا كما زعم
بعضهم للبحث عن أسباب حربية جديدة وأغراض أخرى تدعو الى الاستعمار ؟
أو انه لم يكن له من غاية سوى الاقتراب من الملعب الذي كان حظه يدعوه الى
تمثيل دور خطير فيه ؟ وهل كان يعتبر ان قد دنت ساعة الحوادث التي كان ينظر
اليها ببصيرته ويتمنى الوصول اليها من عهد بعيد تمهيدا لارتقائه الى السدة العليا ؟
نعتقد ان الافتراض الاخير أقرب من سواء الى الصواب .

الفصل الثامن

نكبة أبي قير — انشآت بونايرت في مصر — حرب سورية —
الرجوع الى مصر — معركة أبي قير — العودة الى فرنسا

وكان بونايرت في خلال تعقب ديزه لمراد بك في مصر العليا يعني وهو في مصر بتنظيم الادارة في الولايات المصرية ، إلا أن ابراهيم بك اللاجئ الى سورية اضطر بتلك الحركات هذا الفاتح المشرع الى ترك أعماله السامية واستئناف القتال ، فالتقاء بونايرت وكسره في الصالحية شر كسرة ، وقد جرح سلكوفسكي الباسل في هذه المعركة .

وانتهى الى بونايرت نبأ محزن نبض السرور الذي شعر به هو ورجاله على أثر هذا الانتصار الجديد ، فان كليبر أشعر بونايرت بأن اللورد نلسن أتلّف الاسطول الفرنسي في أبي قير بعد معركة استرخصت فيها الارواح . ولم تكد أنباء هذا الحادث تنتشر في الجيش حتى بلغ منه الاستياء والدعر مبلغهما ، ف شعر القواد والجنود الذين ساورهم الضجر والقلق في الايام الاولى بعد صعودهم الى البر بان عوامل الحنين الى الوطن تتجاذبهم بعنف ، وجعلوا يتذمرون نابذين عنهم الغرور . ففي بدء الامر قاس بونايرت بعين فكرته جسامته هذه النكبة فكاد صرح عزيمته يتداعى ، ولما قالوا له ان الديركتوار سيبادر ولا مراء الى اصلاح ما أفسده القضاء والقدر قال لهم بحدة : « ان أعضاء الديركتوار جماعة من . . . فهم يحسدوني ويبغضوني ويتركونني أهلك هنا » ثم أشار الى أركان حربه وقال : « أولاتنظرون الى جميع هؤلاء الاشخاص لقد قضي عليهم بالهلاك : » إلا أنه لم يدع القنوط يبلغ من نفسه الكبيرة ، فنهض لساعته وصاح بصوت يشف عن صبر مقرون بالشجاعة : « سنبقى هنا أو نبرح هذا المكان عظماء كالأقدمين . »

ومن ذلك الحين أقبل بونايرت بهمة لا تعرف الملل على تنظيم ادارة مصر المدنية ، وازداد شعوره بالحاجة الى استمالة السكان اليه ، وتشديد معاهد وطيدة

الاركان فيها . وكان أول معهد أنشأ في هذا القطر ندوة تحاكي ندوة باريس العلمية وقسمها الى أربعة أقسام :

أولاً — قسم الرياضيات

ثانياً — قسم الطبيعيات

ثالثاً — قسم الاقتصاد السياسي

رابعاً — قسم علم الادب والفنون الجميلة

وأسند الرئاسة الى منيج ، واتخذ بونابرت لنفسه لقب نائب رئيس . وافتتحت الندوة الجديدة بحفلة شائعة أيد فيها هذا الجندي العظيم كلماته الجميلة التي وجهها الى رئيس ندوة فرنسا العلمية لما انتظم في سلكها بقوله انه لم يكن يطمع بفتوحه إلا ليفتح قلعة الجهل ، وان نجاح جيشه لم يكن سوى نجاح العلوم والمعارف

وكان بونابرت قد استمال اليه المسلمين وكانوا يطلقون عليه اسم « السلطان الكبير » ، فصاروا يدعونه الى جميع أعيادهم واحتفالاتهم وقد شهد حفلة وفاء النيل وعيد مولد النبي من دون أن برأسها كما زعم بعضهم، على ان احترامه للدين الاسلامي جعل المصريين يكرمون اسمه وينقادون لسلطته . ورأى بعض الناس أن تصرف بونابرت من هذه الجهة كان نوعاً من الميل الى الاسلامية ، مع أن بونابرت لم يفعل ما فعله من هذا القبيل إلا اجابة لداعي السياسة فلم يكن مسلماً ولا مسيحياً بل كان هو وجيشه في مصر من غلاة الفلسفة الفرنسية والفسطة المقرونة بالتساهل ، وعدم الاكتراث للدين كما كانت الحال في القرن الثامن عشر . ولم يكن يشعر في رأسه بأفكار دينية تهب فيه بل كانت تجول في أعماق صدره عواطف دينية مهمة . إلا أن هذه المقاصد التي كانت تكفيه مؤونة الاشتغال بالشؤون الدينية التي استغرقت الافكار في ذلك العصر والتي كانت تمكنه من تولي العلاقات الحبية مع الائمة والمشايخ كما كان يفعل في غير تلك الاحوال مع خدام الدين المسيحي والدين الموسوي لم تكن تدنيه من الانجيل أكثر مما كانت تدنيه من القرآن . وأقيمت في أول فنديمار من السنة السابعة حفلة في القاهرة لعيد انشاء الجمهورية ، فترأس بونابرت هذه الحفلة الوطنية وقال لرجاله « أيها الجنود ، من خمس سنوات كان استقلال الشعب



لويس بوناپورت ملك هولندا ووالد نابوليون الثالث

ولد في اجاكسيو سنة ١٧٧٨ وتوفي في ليفورنو بايطاليا سنة ١٨٤٦



جيروم بوناپورت ملك وستفاليا

ولد في اجاكسيو سنة ١٧٨٤ وتوفي في فيلجنيس بفرنسا سنة ١٨٦٠

مستهدفاً لنبال المخاطر ففتحت طولون وكان هذان ذيراً بدمار أعدائكم . وبعد سنة من الزمان ظفرت بالنسويين في داغو ، وفي السنة التالية كنتم على قمة جبال الالب . ومن سنتين كنتم تحاربون مانطو وقد أصبنا النصر في موقعة القديس جرجس المشهورة ، وفي السنة الماضية كنتم عند بنابيع نهري الدراف والازنو في أثناء عودتكم من المانيا . فهل كان يجري في وهم احد في ذلك العهد أنكم تخيمون اليوم على ضفاف النيل في وسط القارة القديمة ؟ لقد لقم اليكم انظار العالم من البريطاني المشهور في الفنون والتجارة الى الاعرابي القبيح المنظر الشرس الاخلاق . أيها الجنود ، ان ثغر الحظ يفر لكم ، فأنتم جديرون بالاعمال التي أتيتموها ، وأنتم عند ظن الناس فيكم . ستقضون بشرف على مثال الابطال المحفورة أسماؤهم على هذه الاهرام ، أو تلثنون منقلبين الى وطنكم تجرون ذلاً ذلك النصر وتصيبون اعجاب جميع الناس بكم

« من خمسة أشهر قضيناها بعيدين عن أوروبا لم ينفك وطنيوننا عن الاهتمام بنا ، ففي هذا اليوم يحتفل أربعون مليوناً من الوطنيين بذكرى عصر الحكومة النيابية ، ويفتكر بكم أربعون مليوناً من الوطنيين وجميعهم يقولون : أنهم بالاعمال النبيلة التي اتوها والدماء الكريمة التي بذلوها ذوو فضل على السلم العام والراحة ورواج سوق التجارة ومحاسن الحرية المدنية . »

وكان المشايخ يشاطرون في الظاهر الجيش الفرنسي ابتهاجه مقدرين لبونابرت مشاطرته بإهم الاحتفال بموانعهم حق قدرها . فدوى الجامع الاكبر بتهليل الفرح وابتهلوا الى الحق سبحانه وتعالى بأن يفيض بناييس نعمه على حليف النصر ويعضد جيش أبطال الغرب وفي غضون تلك التظاهرات الحربية كان ابراهيم بك ومراد بك زعيما المماليك وحليفا بريطانيا يوقطان الفتنة فما عمت أن بدت طلائعها في عاصمة الديار المصرية . وكان بونابرت في أثناء ذلك الحين في مصر القديمة . فلم يكذب ينتهي اليه ماجرى حتى بادر الى العودة الى معسكره ، فطهر جنود الفرنسيين في مدة قصيرة شوارع القاهرة وأزقتها ، واضطروا النافرين الى الاعتصام في الجامع الاكبر ، فأمطر عليهم المدفعيون سحاب الموت من أفواه مدافعهم . وكانوا قد ابوا الاستسلام ، الا أن قصف صواعق المدافع جعلهم يسلسون قيادهم للفرنسيين ، فنبذ بونابرت قبول استسلامهم المتأخر

عن ميماده قائلاً لهم . « انقضى زمان الشفقة ، فأنتم ابتدأتم وأنا أنهي » .
خبطت أبواب الجامع وجرت غدران من دماء الترك . وأراد بونايرت أن
يقتحم بنوع خاص للجنرال دوبوي قائد الموقع وسلوكوفسكي الشجاع اللذين
عبثت بهما أظافر المنية

وكان ان سياسة بريطانيا النافذة بعد ما أيقظت فتنة القاهرة من مرقدها
وجعلت جميع البلاد المصرية تهب على الغزاة حملت حكومة القسطنطينية على
اعلان العداوة لفرنسا . فأصدر السلطان نشرة ضمنها سباً وثماً للفرنسيين ،
وأوجب اهانة راية الجمهورية والايقاع بجندها فأجاب بونايرت على هذه
الاهانات والتظاهرات العدائية بنشرة ختمها بالآية القرآنية قائلاً ، « ان أشرف
الانبياء قال . الفتنة هاجدة ، فليكن ملعوناً من يوقظها ! »

وشخص بونايرت الى السويس ليشفق آثار التركة القديمة التي كانت صلة
بين مياه النيل والبحر الاحمر ، وقد صحبه اليها منج وبرتوله ، فكادت رغبته في
رؤية عيون موسى تكون وخيمة التبعة عليه ، لانه ضل في الليل البهيم عن
سواء السبيل من جراء مد البحر وجعل ينجي النفس قائلاً . « أوشكت أن
أهلك كما هلك فرعون من قبلي ، ولو تم هذا لكان جميع الواعظين المسيحيين
يلقون في هذا الحادث موضوعاً للتشفي مني »

ولما درى رهبان طورسينا أن بونايرت في جوارهم أرسلوا اليه وفداً يدعوهم
بلسان أعضائه الى كتابة اسمه في سجلهم بعد اسم علي وصلاح الدين وابراهيم
وغيرهم ، فلم يرضن عليهم بونايرت بهذه النعمة الموءاتية لرغبته في اصابة الشهرة
وكان عبد الله باشا الجزائر قد استولى على قلعة العريش التابعة لحكومة
بلاد الشام ، فصمم بونايرت على محاربته ، وكان ينوي من عهد بعيد مباشرة هذا
الامر . وانتهى اليه وهو في السويس نبأ انتصار الجزائر ، فعجل في العودة الى
القاهرة ليستصحب الجنود الذين كان محتاجاً اليهم في حملته . وبعد ماحمل على
ضمان الراحة في العاصمة وتقليم أظفار الفتنة فيها بالتمثيل بالرعاة الذين حركوا
ساكناتها فصل عن أرض مصر وأوغل في القارة الاسوية . فاجتاز البادية
المنبسطة أمامه راكباً متن هجين ، وقد فضل ركوبه على ركوب الجياد لصبره
على الحر والعطش والجوع والانضاء ، وضلت طلائع الجيش عن الطريق ، فلم

يلتقطها إلا حين كادت تستسلم إلى القنوط، وقد أوشكت أن تبثت فريسة للاعياء والظمأ . فجاءهم بونايرت بالمطعم والمشرب وقال لهم « وهب تأخرت عن امدادكم بالطعام والشراب فهل يكون هذا الامر سبباً لتدميركم ووهن عزائمكم ، فلا ينبغي ان يقع مثل هذا الامر يا جنود ، بل تعودوا بذل المهيج بشرف » وكان شظف المعيشة والجهد يشندان في بعض الاحيان فيفسد النظام العسكري ويدخل عليه الاضطراب ، وقد حدث لجندي فرنسوي في رمال البادية المحرقة ان يتخلى بعناء لرؤسائه عن قليل من الماء الآجن أو ظل بعض الجدران المتداعية ، كما انه صار فيما بعد في وسط الثلوج في روسيا ينازعهم بعض الزوايا في الاكواخ أو بضع قطع من لحم الخيل الممتن . فذات يوم كاد القائد الاكبر يختنق من شدة حرارة الشمس فنال نعمة عظيمة بأن يستدري ببقايا باب ، وقد قال بونايرت في هذا الصدد « انهم منحوفون في ذلك الامر امتيازاً عظيماً » وبينما هو يفحص الأرض برجله عثر على حجر نقش عليه صورة أوغسطس قيصر فعلق عليه العلماء أهمية كبرى وأعطى بونايرت أندريوسي اياه ، ثم انه استرجعه منه وقدمه فيما بعد لجوزفين لتجعله فص خاتم ، وقد وجد هذا الحجر بين أنقاض بيلوز

ولما تعقب بونايرت آثار جيش الترك في بلاد الشام كان يرمي إلى غاية أبعد ، فانه كان يبتغي التعرش بالدولة البريطانية بتأليفه حملة يزحف بها إلى الهند مجتازاً بلاد العجم ، وكتب إلى طيبو صايب رسالة هذه خلاصتها

« انه ولا مراة قد انتهى إليك نبأ وصولي إلى شواطئ البحر الاحمر بجيش جرار لا يشق له غبار ، يرغب كل الرغبة في تحريرك من نير بريطانيا الحديدية ، فأبادر الآن إلى اشعارك برغبتي منك ان تبذلني بطريق مسقط أو مخا أخباراً عن موقفك السياسي . وأرغب منك أيضاً ان توفد من لديك إلى السويس أو إلى القاهرة مندوباً داهية نائلاً ثقتك فأتمكن من مفاوضته »

فهذا الكتاب الذي خطه بونايرت في ٢٥ يناير سنة ١٧٩٩ ظل بغير جواب ، وسقطت دولة طيبو صايب بعد مدة قصيرة .

وبلغ بونايرت العريش في منتصف شهر فبراير وفي ١٦ منه سلمت قلعة العريش بعد انكسار المماليك انكساراً تاماً وفتحت غزاة أبوابها في وجهه بعد ستة أيام : ولما اقتربوا من بيت المقدس سألوهم هل ينوي المرور بها ، فأجابهم

بحدة « لا . فان مدينة بيت المقدس غير مذكورة في الخطة التي توخيت المسير عليها ، فلا أروم التحرش بسكان الجبال والتوغل في ما زق يصعب الخروج منها ، وفضلا عن ذلك أخشى ان يهاجمني من الجهة الاخرى فرسان كثير و العدد وأحاذر ان يصيبني ما أصاب كاسيوس »

« وفي ٦ مارس استولوا على يافا بعد هجوم عنيف ، فأبيح فيها النهب والقتل ، فأنفذ بونايرت حاجبيه بوهارنه وكروازيه لتسكين هياج الجند ، فوصلوا في الحين الملاثم وأنقذا من جنود الحامية أربعة آلاف الباني كانوا قد نجوا من المجزرة بالتجأهم الى الخانات . ولما أبصر القائد الاكبر هؤلاء الجنود الذين جاؤوه بهم تأثر وقال « ماذا يريدون ان أفعل بهم ، فهل عندي من الطعام والشراب ما يكفيهم ، وهل عندي سفن تقلهم الى فرنسا أو مصر ؟ فما هذا الامر الذي فعلوه ؟ » فاعتذر الحاجبان بما كان يهددهما من الخطر لو كانا قدأبيا قبول التسليم ، وذكر بونايرت بالمهمة المقرونة بالانسانية التي فوضها اليهما فأجابهما بحدة « أجل ان الامر الذي تذكرانه يتناول النساء والاولاد والشيوخ ويستثنى الجنود المدججين بالسلاح ، فكان الاشبه بكما ان تهلكا ولا تأتياي بهؤلاء الثعابين ، فاذا تريدان أن أفعل بهم ؟ »

وظل ثلاثة أيام يفاوض أصحابه في أمر الحظ المكتوب لاولئك المنكودي الطالع ريثما يأتيه البحر والريح بسفينة تملصه من أسراه من دون ان تضطره الحال الى اجراء غدران جديدة من الدم ، الا ان تدمير الجيش لم يمكنه من تأخير عمل كان ينفر منه نفورا عظيما . ففي ١٠ مارس أصدر الامر بنصب الالبانيين هدفا للرصااص .

وانتشر في مصر خبر سقوط يافا بالاذاعة التالية .

« بسم الله الرحمن الرحيم رب العالمين ، مالك كل شيء ، مؤتي النصر من يشاء . هذا نبأ الفضل الذي من به الباري تعالى على الجمهورية الفرنسية ، فقد فتحنا مدينة يافا في بلاد الشام

« كان الجزار ينوي الزحف بسفاحي العرب الى القطر المصري مقر المساكين إلا أن أحكامه تعالى تظهر على مكائد البشر ، فقد كان يبتغي أن يسفك الدماء كمألوف عاداته الهمجية متقاداً بذلك الى عجرفته والمبادئ الذميمة التي

اقتبسها من الممالك وأوحاها اليه الجهل . فذهب عنه أن الحق سبحانه وتعالى مصدر كل شيء

« في ٢٦ رمضان أحاط الجيش الفرنسي بمدينة يافا ، وفي ٢٧ منه احتفر القائد الأكبر خنادق عند رؤيته مدافع كثيرة وجمهوراً غفيراً من الناس في المدينة . وفي ٢٩ منه صار طول الخنادق نحواً من مئة قدم فنصب القائد الأكبر المدافع والبطاريات الى جهة البحر ليسد الطريق في وجه الذين يريدون الخروج » وفي يوم الخميس وهو آخر يوم من شهر رمضان عطف القائد الأكبر على سكان يافا ، فدعا حاكم المدينة الى التسليم ، فكان الجواب القاء القبض على الرسول ومخالفة القوانين الحربية والشرائع الدينية والمدنية

« وفي الحال انفجر رجل الغضب في صدر بونابرت فأطلق المدافع والقذائف ، وفي بضع دقائق تعطل مدفع يافا . وعند الظهر فتحت ثغرة في سور ، فهجم الفرنسيون وفي أقل من ساعة من الزمان استولوا على المدينة والقلاع واشتبك الجيشان في القتال فمال النصر الى الفرنسيين ، وظل النهب جارياً ذلك الليل بطوله . وفي يوم الجمعة تحركت في فؤاد القائد الأكبر عوامل الشفقة على المصريين المقيمين في يافا ، فصنح عن الفقراء والاغنياء منهم على السواء وأرجعهم بكرامة الى بلادهم ، وطامل بالمعاملة نفسها الدمشقيين والحلبيين . وقتل في المعركة بالرصاص أو بحد السيف أكثر من أربعة آلاف رجل من رجال الجزار . وفقد الفرنسيون عدداً يسيراً من الرجال ، وجرح قليلون منهم ، ودخلوا بطريق الجسر من دون أن يبصرهم أحد . يا عباد الله اخضعوا لاحكامه ، ولا تخالفوا مشيئته ، واحفظوا وصاياه ، واعلموا أن العالم له يعطيه من يشاء والسلام »

وجاء الجيش الفرنسي الى بلاد الشام بجرائم الطاعون فانتشرت فيها واستفحل أمرها في حصار يافا . وكان غرازيو أحد معاوني الجنرال يحاذر أن يمس أحداً من الموبوئين مخافة أن يسري الوباء اليه ، فقال بونابرت « اذا كان يخاف من الطاعون فسوف يموت به » وقد تم تلبؤه في حصار عكا ووصل بونابرت في ١٦ مارس الى مدينة عكا ، فلقى فيها مقاومة شديدة لم يكن يتوقعها . وجرح الجنرال كافارلي جرحاً مميتاً ، فقبيل ما لفظ أنفاسه

الاحيرة طلب أن تتلى علي مسممه المقدمة التي كتبها فلتير لكتاب «روح الشرائع» فاستغرب القائد الاكبر هذا الطلب وكان يعتبر مصرع كافارلي خسارة جسيمة وجاءت بونابرت أخبار من مصر العليا ، ومن جملتها نبأ من ديزه مفاده أن السفينة «ابطاليا» انشبت في الرمل عند ضفة النيل الغربية بعدعراك عنيف وكان بونابرت مع شدة دهائه يعتقد في غالب الاحيان صحة بعض الخزعبلات والثرهات ، فلما عرف ماجرى لتلك السفينة قال « ضاعت ايطاليا من يد فرنسا ، خدسي لا يخطئ موقع الصواب »

وانتشر الجيش الفرنسي في أثناء حصار عكا في معركة جبل تابور الشهيرة ، فكان اثنا عشر ألفاً من الفرسان واثنا عشر ألفاً من المشاة قد هجموا على كليبر وأحاطوا به ورجال الثلاثة الآلاف الذين ثبتوا في ميدان القتال ثبات الاسود . ولما وقف بونابرت على حقيقة قوة الاعداء خف بفصيلة من الجنود لمناصرة كليبر ، وفور وصوله الى ميدان الحرب قسم فصيلته الى مرتعين ورتبها على هيئة يتألف منها ومن مربع كليبر شكل مثلث متساوي الأضلاع طوق العدو . وكانت النار الخارجة من أضلاع المثلث تحصد المماليك حصداً وتمزقهم أيدي سبا مغشية وجه الصعيد بأشلائهم . وقد بدد ستة آلاف فرنسوي شمل الجيش الذي كان سكان تلك الارزاء يعتبرونه جراراً يحكي عدد نجوم السماء ورمل البحر .

وبعد حصار دام شهرين رأى بونابرت عدد جيشه يقل شيئاً فشيئاً من جراء اشتداد الطاعون عليه وفتسكه به فتسكا ذريعاً والمواقع المتواليه الناشبة بينه وبين حامية المدينة المتولي زعامتها قائد لا تلين شدته النواب ولا تثلم حده الشدائد ، وحينئذ صمم على العودة الى مصر . فتقلص ظل المقاصد الواسعة التي كانت تجول في فناء جناحه وتدور رحاها على قطب الشؤون الشرقية ، وتجعله يتنقل بالفكر من ضفاف السند الى شواطئ البوسفور . وقد قال فيما بعد : « لو سقطت عكا لغيرت وجه العالم ، فقد كان حظ الشرق محصوراً في هذه المدينة الصغيرة ، »

واليك النشرة التي أصدرها عن يافا مشعراً بعودته الى القطر المصري
« أيها الجنود ،

اجتزتم البادية الفاصلة بين أفريقية وأسيا بسرعة تفوق سرعة جيش العرب « وقطعتم نظام الجيش الزاحف الى أرض مصر ، وأسرتهم قائده وغنمتم ذخائره وأمتعته وقربه وجماله ، وفتحتم جميع المواقع المنيعه الحامية آبار الماء في البادية ، ومزقتم في جبل تابور شمال المقاتلين المتألبين من جميع أنحاء أسيا طمعاً بشن الغارة على مصر ونهبها وان السفن الثلاثين التي أبصرتوها قادمة الى عكا من اثني عشر يوماً كانت تقل الجيش الموكول اليه أمر محاصرة الاسكندرية ، ولكن قضت عليه الاحوال بالنجي الى عكا فكان فيها هلاكه . وسيزدان موكب دخولكم مصر ببعض راياته .

« وبعد ما حاربنا بجنود قليلي العدد ثلاثة أشهر في قلب القطر السوري ، وغنمنا أربعين مدفعاً وخمسين راية ، وأسرننا ستة آلاف رجل ، ودككنا حصون غزة ويافا وحيفا وعكا صحت عزيمتنا على العودة الى مصر . فان زمن الصعود من السفن اليها يدعوني ، لقد كنتم تعملون النفس بأنكم بعد أيام تقبضون على الباشا في قصره ، ولكن استيلاءكم الآن على قصر عكا لا يوازي ضياع بضعة أيام . فالأبطال الذين تقضي علي الاحوال بفقدكم فيها أحتاج اليهم لقضاء أعمالهم وأفضل »

وفي ٢٠ مايو صدر الأمر بالانسحاب . وكان بونا برت يريد ان يسير الجميع على الاقدام تاركين الجياد للجرحى والمرضى . ولما جاء الجندي المقيد بخدمته وقال له . أي جواد أبقية لك ؟ انهره قائلاً « فليمش الجميع على الاقدام وأنا في مقدمتهم . أفما عرفت الامر ؟ أغرب من وجهي . »

وصلوا الى يافا في ٢٤ منه ، فكانت المستشفيات فيها تفص بالمرضى حيث كانت الحى الوهيلة تحصدهم حصداً . فعادهم القائد الأكبر متفقداً أحوالهم ، وقد بلغ منه التأثر حين شاهد ما صاروا اليه وما كانوا يشعرون به من العذاب . فأصدر الأمر بإخلاء المستشفيات الا انه كان بين المرضى مطعمون يبلغ عددهم ستين . وكان الوباء قد اشتد على ثمانية منهم لم يكن يؤمل ان تمتد آجالهم أكثر من أربع وعشرين ساعة كما جاء في « مفكرة القديسة هيلانة » فخاروا في ما يجب ان يفعلوه بأولئك التاعسين ، وشاور بونا برت أصحابه في الامر . فقالوا له ان كثيرين منهم يطلبون الموت بالحاح ، وان مخالطتهم للجيش تكون وخيمة التبعة عليه ،

وان الحسنة والمحبة تقضيان بتعجيل وفاتهم بضع ساعات والاجهاز عليهم .
ويحقق بعضهم انهم جرعوهم شراباً عجلاً موتهم .

ولما دنا بونابرت من مدينة القاهرة أوعز الى نائبه فيها ان يهيء له جميع
معدات الاحتفاء به واستقباله استقبال الظافر ليزيل أو يخفف ما خامر الازدهان
من تأثير الاخفاق الذي أصابه في حملته على بلاد الشام . وكان يرمي بذلك الامر
الى اقالة عشار قوى جنوده الراحة تحت أوقار القنوط ، والتهويل على المصريين
وقد كان يخشى انتفاضهم عليه وقضت عليه السياسة والمصلحة بأن يكتم حقيقة
النكبة التي ناله ويجاهر بفوز وهمي باهر

وكان الديوان المصري يقابل عواطف بونابرت بالمثل ، فقرر اقامة حفلات
لتلك الغاية وأذاع نشرة جاء فيها ما يأتي : —

« وصل الى القاهرة الجنرال بونابرت المحروس بالعناية الالهية وقائد الجيش
الفرنسوي وصديق الدين الاسلامي . . . دخل القاهرة من باب النصر . فهذا
يوم أغر محجلاً لامثيل له . كان في غزة ويافا . فحى سكان غزة ، الا أنه لما
رأى ان سكان يافا قد ضلوا عن الصراط المستقيم وأبوا التسليم حي غضبه
عليهم وأسلمهم جميعهم الى النهب والقتل ، فذلك جميع أسوارها وبطش بجميع
الذين كانوا فيها »

وعفي بونابرت في أثناء اقامته في القاهرة بتنظيم الاحصاءات المختلفة عن
القطر المصري فنشرت في مذكرات كاتبه الملاحظات التي نظمها

وانتهى الى بونابرت أن مراد بك توغل في مصر السفلى فهجر الراحة
والاعمال السلمية ، وبرز القاهرة في ١٤ يوليو ميمما الاهرام . وفي مساء الغد
جاءته رسالة من مرمون قائد جنود الفرنسيين في الاسكندرية مفادها أن الترك
صعدوا الى أبي قير في ١١ منه تحت كنف البريطانيين خف القائد الاكبر في
الحال الى محاربة جيش الترك الرافع فوق رأسه لواء مصطفى باشا . وكان يميل
كل الميل الى اصلاح نكبة أبي قير في أبي قير عينه . فظفر ظفراً مبيناً في هذا
المكان ودفع الى البحر عشرة آلاف رجل وبات الباقيون قتلى أو أسرى . واليكم
ما كتبه بونابرت الى الديركتوار في هذا الصدد

« كتبت اليكم في رسالتي المؤرخة في ٢١ فلوريال أن الفصل الملامم لركوب



يواكيم مورات ملك نابولي وزوج كارولين بونابرت شقيقة نابوليون الاول
ولد في البستيد مورات ١٧٦٧ وقتل رمياً بالرصاص في نابولي ١٨١٥

البحر يحملني على ترك بلاد انشام

« وفي ٢٣ مسيدور انتهت الى مياه الاسكندرية مئة سفينة بينها عدد كبير من السفن الحربية ورسى في مياه أبي قير ، وفي ٢٧ منه صعد العدو الى البر وأخذ حصن أبي قير عنوة وبجراً غريبة . فسلمت حاميته وأخرج العدو ومدافعه الى البر وعضدته خمسون سفينة على احتلال كنيان عالية من الرمل ، وكانت ميمنته الى البحر وميسرته الى بحيرة المهدية

« وفي ٢٧ منه انطلقت من معسكري عند الاهرام ، فوصلت في أول ترميدور الى الرحمانية ، واخترت البركة مركزاً لأعمالي ، وفي الساعة السابعة صباحاً من اليوم السابع من ترميدور التقيت العدو

« فمضى الجنرال لان على طول البحيرة ، واصطف للقتال بازاء ميسرة العدو حين كان الجنرال مورات قائد الطلائع يوعز الى الجنرال دستانس بمهاجمة الميمنة ، وكان الجنرال لانوس يعضده

« وكان سهل جميل مساحته أربع مئة تواز « التواز يوازي ستة أقدام » يفصل بين جناحي الجيش ، فدخله فرساننا وبلغوا بأسرع من انتقال الفكر الى ما وراء ميسرة العدو وميمنته ، فاصموا فيه السيف ودحروه وقذفوه الى البحر فلم ينج منه أحد . ولو كنا نقاتل جيشاً أوربياً لكننا أسرنا منه ثلاثة آلاف مقاتل ، ولكننا سقناهم الى الردي الى ثلاثة آلاف محارب

« وكان الصف الثاني من صفوف الاعداء على بعد خمسة آلاف أو ستة آلاف تواز عنا ، وقد احتل موقعاً حصيناً . وكان ثمت برزخ ضيق جدا ، فتحصن فيه العدو بكل تحفظ ، وكان عنده ثلاثون زورقاً مدفعية . وخيم العدو قراب هذا الموقع في قرية أبي قير وبني فيها الاستحكامات والحواجز . فأخذ الجنرال مورات القرية عنوة وهجم الجنرال لان بالفصيلة الثانية والعشرين وشطر من الفصيلة الستين على ميسرة العدو ، وأغار الجنرال فوجياري بجنوده على ميمنته ، وكان الهجوم والدفاع بالغين منتهى العنف على السواء ، الا أن فرسان الجنرال مورات الصناديد عقدوا عرى العزائم على نيل المجد الرفيع في هذا اليوم ، فهجموا على ميسرة العدو وأغاروا على ميمنته من وراء وحصروه في مأزق يصعب الخروج منه ، وقتلوا منه مقتلة عظيمة . وكان أول من دخل الحصن

الوطني برنار قائد الفصيلة التاسعة والستين والوطني بايل قائد رماة القنابل في نصف هذه الفرقة ، فكان ذلك مدعاة الى توشحهما لحل الفخر « وكان الصف الثاني من صفوف الاعداء كما كان الصف الاول من صفوفهم

يغطي بجثته وجه ساحة القتال أو يفوص في النيل « وبقي للعدو ثلاثة آلاف رجل وضعها في قلعة أبي قير على بعد أربع مئة تواز خلف الصف الثاني ، فحاصرهم الجنرال لانوس ، فأطلقت عليه القنابل من ستة مدافع . على ان الشاطئ الذي جر فيه التيار في السنة الماضية جثث البريطانيين والفرنسيين صارت اليوم تغشيه جثث أعدائنا المعدودة بالآلاف ، ولم ينج أحد منهم . ونشب في حبائل الاسر مصطفى باشا الرومي قائد الجيش الاكبر وابن عم السفير العثماني في باريس كلاله ، وأسر معه جميع ضباطه . وهاءنذا مرسل اليكم أذنا به الثلاثة . . .

« وعندني ان نيل النصر في هذه المعركة مرجعه الى الجنرال مورات ، فاطلب منكم ان ترقوه الى رتبة أمير لواء لأن فرسانه أتوا بالمعجزات . . . « وقدمت للجنرال برتية من قبل حكومة الديركتوار الاجرائية خنجراً بديع الصنع ، فكان اهداؤها اياه دليلاً على رضاها عن خدم مافتيء يقدمها في خلال الحرب كلها . . . »

واغتم بونابرت الفرصة من انتصاره لينفذ سفيراً مفوضاً الى الاميرال البريطاني ، فهذا بعث اليه بصحيفة فرنكفورت الفرنسية الصادرة في ١٠ يونيو سنة ١٧٩٩ وكان القائد الفرنسي يتذمر من مدة طويلة لا تقطع أنباء أوربا عنه . فتصفح الجريدة بلهفة شديدة فعثر فيها على الحال السيئة التي صارت اليها شؤون فرنسا وانكسارات جيوشها المتوالية فصاح قائلًا « لقد صدق وايم الحق حدسي ان ايطاليا فقدت من أيدينا وضاعت ثمار انتصاراتنا ، وعليه لا أرى مندوحة عن الرحيل »

وصحّ عزمه من هذه الدقيقة على الانطلاق ، فأسرّ هذا الامر الى الجنرال برتية والاميرال غنتوم . وأوعز الى هذا الاخير بأن يهيء له السفينتين الحربييتين مويرون وكاير والمركبين الصغيرين الريفانش والفرنون لنقله مع حاشيته الى فرنسا وكان بونابرت يبتغي ان يلقي بمقاليد زعامة الجيش العليا الى أشد القادة

جراً وأعظمهم كفاءة، فتردد بين ديزه وكليبر. وقد جعلته رغبته في استصحاب الأول معه يقرر تعيين الثاني خلفاً له في قيادة الجيش غير مبال بما كان بينه وبين كليبر من النفور. فسكتب إليه ليوافقه على ما عزم عليه، ويقوض إليه السلطة العليا، وكان من جملة ما أوصاه به ما يأتي

« ان المسيحيين يفللون أصدقاؤنا فيجب ردعهم عن التمادي في العيث فساداً لئلا ينظر المسلمون إلينا بمقالة التعصب عينها التي ينظرون بها الى المسيحيين، فنصبح غير مستطيعين استمالتهم إلينا. »

ويعرض لنا هنا هذا السؤال وهو : هل كان الديركتوار يرغب في رجوع بوناپرت بعد ما كان قد نظر بعين الجذل الخفي الى انطلاقه من بلاده من دون أن يخفي ذلك الأمر عليه ؟ ويزعم بعضهم أنه انتهى الى بوناپرت رسالة رقعها تريلمار ولاريفيليار ليبدو وباراس جعلته يصمم على مغادرة القطر المصري . ويصعب الجزم مع ما يحيط بهذا الأمر من الروايات المتناقضة ، كيف صمم بوناپرت على الرحيل وعندنا انه لما جبطت مساعيه في بلاد الشام وانتهت اليه الانباء عن حالة الشئون والافكار في فرنسا ، خيل اليه أن الساعة دنت لحسر اللثام عن حقيقة أفكاره ومطامعه وتحويلها من الشرق الى الغرب . وكان من جملة ما قاله في نشرة أصدارها عن الاسكندرية ما يأتي :

« ان أخبار أوروبا جعلتني أقرر العودة الى فرنسا ، فأنا ألتقي الى الجبال كليبر بمقاليد قيادة الجيش وعن قرب ستصل الى هذا الجيش الانباء غني . وانه ليمر عليّ وايم الحق فراق جنود تعلق بهم كل التعلق ، إلا أن هذا الفراق سيكون وقتياً . وقد أصاب انقائد الذي استخلفته عنايكم ثمة الحكومة وثقتي » وفي أواخر شهر أوغسطس أفاع بوناپرت يصحبه برتيه ومرموون وزيارات ولان واندريوسي ومنج وبرتوله وغيرهم ، فتمكن من تجنب الاسعاول البريطاني الذي كان قد ابتعد عن الشواطئ الافريقية يريد ثغراً من ثغور قبرس الجلب الذخائر والمؤن ، وفي ٦ اكتوبر بلغ مرفأ فريجوس بعد ما نجا من الاميرال سدني سميت البريطاني الجاد في أثره .



الفصل التاسع

العودة الى فرنسا — ١٨ برزومير

وكان عبور البحر من الاسكندرية الى فريجيوس مخفوفاً بالمصاعب والمخاطر فقد قضي على الاسيطليل عند خروجه من المياه المصرية أن يكافح الريح الشديدة المعاكسة فاقترح الاميرال الانثناء على الاعقاب الى المرفأ وكان جميع الركاب يرون رأيه . ولو لم يصبر بونايرت على اقتحام غمرات المنون والتغيرير بنفسه لادراك الغاية التي كان يرمي اليها لكان رأي الاميرال قد تغلب على مشيئته . ولما فصل عن اجاكسيو قامت في وجهه مصاعب يعز على سواء تذليلها . بيد أنه تمكن من الظهور عليها بما كان مفطوراً عليه من العناد والتصلب في الرأي . ويرجح ان شدة صريمته والمخطة الغريبة التي رسمها للاميرال غنجوم وسيره على محاذة الشواطئ الافريقية للبلوغ الى جزيرة سردينيا جعلته ينجو من السفن البريطانية التي كانت تتمقبه باحثه عنه . وكان يخاف أن يفسد عليه تدبيره كما كان يشعر بالقلق والاضطراب كلما لاح له في الافق شراع سفينة ، وبلغه وهو في اجاكسيو ما كان من النتيجة الوخيمة التي تلت معركة نوفي فقال . « لو لم يكن من المقتضي عليّ ان أقضي مدة الحجز الصحي الملعون لكنت أتولى زعامة جيش ايطاليا حالماً أطمأ الأرض بأخصي فلا تزال لدي وسائل عديدة ، وأنا موقن انه لا يضمن على قائد من القواد بقيادة جيشه ، فتصل حالا الى باريس أنباء النصر الذي أصيبه كما وصلت اليها أنباء النصر في أبي قير . فياحبذا هذا الامر . »

وكان بونايرت شاعراً بالحاجة الى اتيان مأثرة خطيرة تمحو التأثير السيء المسبب عن مغادرته للقطر المصري بشكل فجائي أطلق اللسنة من عقالها لا تتقاده . ولما وقف على حقيقة النكبات التي أصابت الجيوش الفرنسية في ما وراء الجبال ساوره القنوط من نيل الانتصارات السريعة التي كان يحلم بها ودغمه غم شديد جعل الناس يقولون عنه انه لبس ثوب الحداد على ايطاليا . وفضلا عن ذلك جعله احتفاء الاهلين به في فريجيوس ينسى ملالة الحجز الصحي فوقت ما بلغهم خبر دخول الجنرال بونايرت مرفأهم غطوا وجه البحر بالمراكب وأحاطوا بالسفينة

التي تقل ذلك الرجل العظيم قائلين « ان الطاعون لا أفضل لنا من النموسيين »
وحينئذ لم تكن التدابير الصحية مستطاعة فانهز بونايرت الفرصة من هذا الامر
وعجل في الشخصون الى باريس

وكان قد أشعر بقدومه أخوته وزوجته فخفوا الى لقائه بطريق برغونية
المقضي عليه المرور بها بموجب الخطة التي بعث بها اليهم . ولكنه لما وصل الى
ليون غير رأيه وأخذ طريق البربونه . ولما لم يجد اخوته وجوزفين في ليون
انقلبوا مسرعين الى باريس . واستقبل معظم القوم هذا الجندي الباسل استقبال
المخلص غير مكترئين للاراحيف المنتشرة عن رجوعه الفجائي ومغادرته جيشه
في ما وراء البحار تحت سماء محرقة وفي أرض وبيلة الهواء

ولا يخفى ان الديموقراطية بعد ما أوجدت لفرنسا الذرائع العديدة المستطاع
التدرع بها لمناوأة الاجنبي أفضى بها الأمر في الداخل الى ابداء التبرم العام من
جرائم تقلبات الدهر ومعاكسات الاقدار واحجام بعض دعاتها عن مواظبة
الاعتصام بمبادئها ومذاهبها . وان الثورة التي كان لها أنصار أشداء ذوو هممة
عالية في المجلس الدستوري وبين رجال القضاء ولجنة الأمن العام لم تكن تتوقع
شيئاً من أركان المجالس وأصحاب الكلمة المسموعة في ذلك العهد ، فانهم خفضوا
من مقام السلطة من دون ان يجعلوا الحرية تحجى نفعا من هذا العمل ، واستبدلوا
بالسلطة الشعبية المطلقة سلطة استبدادية كانت الاحزاب تتناوبها واذا أضيف
الى هذا ان الجمهورية في الحالة التي صارت اليها ، وبين أيدي الذين وقع اليهم أمر
ادارة شؤونها ، وعلى الشكل الذي اتخذته لم يتسن لها ابقاء النصر موالياً لاعلامها
بل اصابها انكسارات عديدة متوالية أفقدتها ثمار الحروب الاولى الخالدة
الذكر ، علم لاول وهلة السبب الذي من أجله كانت الأفكار متهمة لاجراء تغيير
سياسي خطير . ولكن أي نوع من التغيير ينوون اجراءه ؟ ومن الرجل الذي
يحسن ان يجري على يده هذا التغيير أو من الرجال الذين يتم على أيديهم ؟
وكان القوم يتناقلون هذه الأسئلة ويكثرون من جرائمها من الرجم بالغيب ،

ويسرفون في القيل والقال ، ويعملون النفوس بالاماني والآمال ، أو يخشون من التبعة الوحيدة التي يذهبون اليها
ان الحادث الخطير المنتظر وقوعه لم يكن مؤاتياً للجمهورية ، فقد كانت موصومة بوصمة ذكرى سيئة ينفر الناس منها ، وكانت سبباً للاضطراب والفوضى وقد كان الناس يتوقعون بنافذ الصبر وضع حد لها . ولم يكن أيضاً ذلك الحادث مؤاتياً للملكية ، فقد كان القوم ميالين الى رؤية نتائج الثورة مع تبرمهم من الشكل الذي اتخذته الحكومة الجمهورية ، وكان الجيش برمته ، كما تبين من حادث فركتيدور ، يجب لمواجهة كل من تحدته النفس باعادة السلالة البوربونية الى عرش فراسا

ويستنتج مما بسطناه ان الرأي العام في الامة الفرنسية كان يرمي الى حصر السطوة في يد قواه تعمل لمصاحبة الثورة وليس لمعاكستها فكانت الضرورة في مثل هذه الحال أي نفور الشعب والجيش من حركة ارتجاعية تسيد سلالة البوربون الى الحكم ، والخوف من عودة الحكم الشعبي تقتضي وجود شخص يدير بيده سكان الاحكام ويستطيع الذود عن حياض الاصلاح الاجتماعي الموضوع في سنة ١٧٨٩ وصيانتهم من الغوائل الويلة التي يعرضه اليها ارتقاء نواب السطوة وبحول دون ميل الافكار الى خدمة الحزب الملكي لاعتماد هذه الافكار باهداب القوة ووحدة السلسلة الادارية ، على ان نهوض هذا الرجل باعباء مهمته السامية لاجعله يزعم وقتياً أركان الديمقراطية الا لخدمة الثورة عينها ، وأما يجعل في قبضة الفرد السلطة الاحمالية وتداولها المجالس الوطنية باسم الشعب . وكانت الحال تقتضي أن يكون هذا المرء من أشد الناس تعلقاً بالثورة وأعظمهم اخلاصاً للمصالح الحديثة ، وان يكون ذا عقل أرفع لبان روح العصر ، وأنشأ له مجداً أثيلافي خدمة فرنسا الجديدة ، وصار قادراً على الاستعانة بشهرته وذهائه للظفر بالامانة والتعلق بالذين يضرهم حب الوطن نازها في بعض الافئدة دفاعاً عن ذمار دستور السنة الثالثة . وكان يجب أيضاً ان تكون ذراع هذا الشخص ضامناً قوياً حافظاً من شرور الاجنبي ، والا يكون اسمه من جملة أسماء رجال الحكومة ذوي القلوب الجامودية الذين خلصوا البلاد مخلفين ذكراً سيئاً . وهذه المهمة لا يضطلع بها سوى جندي من جنود الثورة يستطيع وحده نسخ الاوهام

الشمسية وهدم صرح الطريقة الجمهورية من دون ان يمس جوهر المنشآت الثورية
المعيزة لدى فرنسا. وكان هذا الجندي يشعر من زمان طويل بهذه المهمة
الخطيرة ، ورقبت مطامعه الفرصة الملائمة للاستقلال بها ، فكان صوت داخلي
يناجيه من حدائته بأنه مزدان بجميع الصفات الضرورية وجامع لجميع الشروط
اللازمة لما يسند اليه

وان ما كان بونابرت يراه ويرغب فيه كان منطبقاً على آماني الامة وحاجاتها،
نكأن حضوره مقدمة للحادثة التي غيرت مجرى الثورة الفرنسية ، ولم يكد
نبأ رجوعه ينتشر حتى التفت حوله الاحزاب جميعها مستندة الى شهرته ودعائه،
وكل منها يبتغي الثعويل عليه ليمظفر بأمال كان يعلل النفس بنيلها

وكانت الاكثريه في الديركتوار المؤلفة من باراس وغوهيه ومولان
وأنصارهم تتوخى المحافظة على دستور السنة الثالثة . فكان باراس يروم ذلك
لاعتقاده أن بقاء الحال على ماهي عليه يخلد بقاءه قابضاً بيده على زمام السلطة ،
وكان غوهيه ومولان يعتمدان ان بقاء هذه الحال يحفظ حكومة الجمهورية على
شكلها الحاضر . وأما سياس فانه كان يرى غير ذلك . فقد كان يميل سراً الى
الملكية وينفر من الحكومة الشعبية ، ويتحين الفرصة السانحة للمجاهرة بمبادئ
كان يحاذر افشاءها . فاتهم بأنه تعمد خيانة الجمهورية لخدمة أمير من آل برنسيك
كما اتهم باراس بأنه فتح أبواب المفاوضات مع السلالة البوربونيه حين كاد
القنوط يبلغ منه وكادت صروف الزمان تقل حده وتقلم أظفاره . وهذا هو
السبب الذي من أجله كان سياس ميالاً الى الشخص الذي يتجرأ على مناوأة
الديموقراطية وأشياها . وكان روجه دو كوس زميله يسلك مسلكه ويحذو
حذوه . فجهل بونابرت في بدء الأمر حقيقة هذا الرجل حتى أنه في خلال مأدبة
أدبها غوهيه في غد اليوم الذي مثل فيه لدى الديركتوار لأول مرة بعد عودته
خاطبه بلهجة احتقار

وقال سياس بغضب على أثر هذه الوليمة : « انظروا كيف يعامل هذا البذيء
الحقير عضواً من أعضاء حكومة كان من حقها أن تنصبه هدفاً للرصاص »
الا أن ذلك التباعد المتبادل الذي كان يشعر به كل من الفيلسوف والجندي
ماعم أن زال وخلقه ميل مشترك لتغيير شكل النظام السياسي في فرنسا . فقال

بعضهم لبونا برت مرة . « آخذ لك نصيراً بين الاشخاص الذين يعتبرون أصدقاء الجمهورية يعقوبيين (ثوريين متطرفين) واعلم ان سياس زعيم هؤلاء الاشخاص » وشعر الجنرال بأن نفوره يضعف شيئاً بعد شيء ، وزعم بعضهم أنه حالج كتمان هذا النفور رغبة في استمالة ذلك الرجل الذي لم يحسن استقباله في بدء الأمر ولم يكن يميل اليه . وكان يتوخى من وراء هذه المعاملة الاستعانة به لاجراء مقاصده العالية .

وأراد المدير كتوار أن يبعد عنه بونا برت خوفاً منه وتخلصاً من شره فاقترح عليه أن يسند اليه قيادة الفيلق الذي يريده ، الا أن هذا المنصب الذي كان غير بونا برت يسر بنيله لم يكن من شأنه جذب هذا الرجل اليه ، فقد كان يشعر بأن منصباً أسمى وأفضل كان أمامه ، وقال . « لم أشأ أنبذ المنصب الذي قدموه لي بل طلبت منهم أن يمهلوني ريثما تثوب الي العافية . وعمدت الى الاعتزال عن معاشر البشر لئلا يسندوا الي منصباً آخر يشبطني عن اجراء مقاصدي الكبيرة » ولم أكن أشهد بحالهم . وقد آثرت حزب سياس على حزب باراس »

الا أن التداير التي أفضت الى ١٨ برومير تمت على يد لوسيان بونا برت وايدي سياس وتالبران وفوشه وريال ورينيودي سان جان دنجلي وغيرهم . وكان فوشه من الألى عيل صبرهم لتقويض دعاتم طريقة الحكم الجمهوري بعد ما كان من المغالين في خدمة مبادئها ، فقال لكاتب بونا برت . « فليسرع الجنرال والا هلك ولا محالة »

وتردد كباساريس ولبرون في الجزم بهذه القضية ، فان المؤامرة لم تكن مؤاتية لتحفظ الواحد ولا لاعتدال الآخر . ولما علم بونا برت بتردهما صاح كأنه القابض بيده على أزمة الاحكام في فرنسا . « اني لمنكر هذه المؤامرة فلا يتوهم أنني محتاج اليهما ، فليجزما في الامر اليوم والافات الفرصة غداً . فأنا آئس من نفسي المقدرة على الاستقلال في العمل »

وكان جميع القواد المشهورين في باريس يذهبون مذهب بونا برت حتى أن مورو نفسه جاهر بأنه يرفع لواءه فوق رأسه ، وسنرى عن قريب المهمة التي رضي بأن ينهض باعبائها في اليوم الذي كان فيه كل شيء مهيباً له . وكان يعوز هذا المتأمر العظيم مناصرة زميل من زملائه يخشى معارضته ودهاءه وطباعه .



المرشال ناى دوق الشنجن واميرالموسكوف
ولد فى سارلويس ١٧٦٩ وقتل رمياً بالرصاص فى باريس ١٨١٥

فقد كان برنادوت مصراً على وجوب الدفاع عن كيانه الجمهورية وحرمة دستور السنة الثالثة . الا أن نسيبه يوسف بونابرت جاء به الى اخيه صباح اليوم الثامن عشر من شهر برومير (٩ نوفمبر سنة ١٧٩٩) فكان عنده جميع القواد السكبار وهم لا يسون بزاتهم الرسمية . وكان برنادوت لابسا ثوباً بسيطاً ، فاستاء بونابرت منه وأبدى له تعجبه وخلا به في غرفته ، وباح لديه بما كان قد عقد عليه عروة العزم قائلاً له . « ان حكومة الديركتوار ممقوتة ، والدستور بال ، فيجب والحالة هذه تطهير الحكومة من أعضائها وانشاء هيئة جديدة لها . فاذهب واتشح بزيك ، وأنا لا أستطيع أن انتظر وقتاً طويلاً . فستجدني في التويلري بين جميع رفاقنا . واياك أن تتشكل على مورواو برنوفيل أو غيرهما من القواد . وحين تتعمق في اختبار الناس تعلم أنهم يكثرون من المواعيد وينجزون القليل منها . فلاترك اليهم » فقال له برنادوت انه يأنف من الاشتراك معهم في المؤامرة ، فطلب منه بونابرت أن يلزم خطة الحيات التام ، فأجابه برنادوت جواباً لم ينقع له غلة قائلاً . سأظل ساكناً كوطني ، ولكن إذا أمرني الديركتوار بالعمل فلا أثنى بدا من مواقع جميع المشاغبين . فلما سمع بونابرت هذا الكلام لم يفر فائره بل كظم غيظه مخافة أن يتدخل في القضية عدو داهية شجاع يفسد عليه أمره ويحبط سعيه

وبينا جميع هذه الامور تجري في منزل صغير بإسراع النصر حيث يقيم بطل ار كول والاهرام أرسل اليه مجلس الشيوخ القرار الاتي نصه بطي رسالة أولاً — ان الحكومة الاشتراعية انتقلت الى سان كلود

ثانياً — تنتقل المجالس اليها في صباح الغد في ١٩ برومير عند الظهر ثالثاً — فوض الى الجنرال بونابرت وضع هذا القرار موضع الاجراء ، وهو مقضي عليه بأن يتخذ جميع التدابير اللازمة لصيانة ممثلي الامة . وبناء عليه يجب أن يخضع رأساً لامره قائد الفرقة السابعة عشرة العسكرية ، وخفراء الحكومة الاشتراعية ، والحرس الوطني ، والجنود المربطة في باريس وضواحيها والانحاء الممتدة اليها سلطة الفرقة السابعة عشرة العسكرية الانفة الذكر .

رابعاً — ان الجنرال بونابرت مدعو الى المجلس ليستلم هذا القرار ويقسم اليمين ويفاوض المندوبين المفوضين في المجلسين . »

وكان بونابرت ينتظر مثل هذا القرار الجاري الاتفاق على وضعه بينه وبين أنصاره في المجلس . وبعد تلاوته على مسمع من الجنود قال لهم :
« أيها الجنود ،

« ان القرار الصادر فوق العادة من مجلس الشيوخ منطبق على المادتين ١٠٢ و ١٠٣ من الدستور ، وهو يخولني الزعامة في المدينة والجيش . قبلت ذلك رغبة في تيسير التدابير التي ينوي اتخاذها والتي تلائم كل الملاءمة مصلحة الشعب »
« وقد جنح عن الطريقة الممثلة القاعون بادارة حكومة الجمهورية في السنتين الاخيرتين ، وقد أملت أن يضع رجوعي حداً للساوى العديدة الطارئة فبالنعم في الاحتفاء بي مما يدل على توثق عرى الاتحاد القاضي عليّ بأجراء أعمال لا ألقى منتدحاً عن اجرائها . وأنتم اضطلعوا بما يسند اليكم فتقوموا بنصر قائدكم بما شاهده فيكم دائماً من الهمة والثبات والثقة ،

« ان الجمهورية الفرنسية تستعين بالحرية والنصر والسلام لاستعادة المنزلة التي كانت لها في أوروبا بعد ما أفقدتها إياها البلاءة والخيانة . »
ولما نشر قرار الشيوخ دقت الطبول في جميع أنحاء باريس مؤذنة بحشد العساكر ، فأذاع بونابرت الذمرة الآتية :
« أيها الوطنيون ،

« ان مجلس الشيوخ المعتبر مستودعاً لحكمة الامة أصدر القرار المبينة صورته بطيه ، وذلك بناء على السلطة المستمدة من المادتين ١٠٢ و ١٠٣ من الدستور .

« وأراني مضطراً الى اتخاذ جميع التدابير لصيانة كرامة ممثلي الامة ، فالانتقال من حال الى أخرى ضروري ومعجل ، وفي وسع الحكومة الاشتراعية أن تدفع عن هؤلاء الممثلين الخطر الوبيل الذي يقودنا اليه تفسك اجزاء جميع الاقسام الادارية .

« وهو في الحال الجوهرية الحاضرة محتاج الى الاتحاد وثقة الوطنيين به ، فالتفوا حوله مناصرين ، وهذه هي الوسيلة الوحيدة الممكن التوصل بها لتوطيد الجمهورية على قواعد الحرية المدنية والسعادة الداخلية والنصر والسلام . »
وبينا بونابرت يتكلم بالفعل وبصورة شرعية على القيادة العليا في

للعاصمة لم يكن الديركتوار يجري شيئاً أو انه في الحقيقة لم يكن يستطيع اجراء شيء لاجباط المساعي التي كانوا يدبرونها حوله ، والمحافظة على سلطته والدستور في وقت واحد . وأقام غوهيه في منزله بالكسمبور على جبل انتظار زعيم المتأمرين الذي جاء من تلقاء نفسه لتناول الطعام عنده . ولم يكن يتجرأ أن يتهم ضيفه الكبير بأنه أراد بهذه الزيارة أن يحصر رئيس الجمهورية في ردهة الطعام فيبقيه جاهلاً للتدابير الجارية لناواة حكومة الديركتوار .

وكان مولان يكسر الارعاض على بونابرت منكرأ تلك الاعمال وهو لا يجسر على المجاهرة بها ولا على معارضة تيارها . وعلم باراس أن الانقلاب الذي أخبروه عنه ووعدوه بأن يجعلوه يشاطروهم احراز فوائده سيتم بدونهم ، وأنهم قادرون على الاستغناء عنه . فلم يكن من سبيل الا الاذعان الى ما قدر له من بقاءه صغراً الى اليسار . وصمم سياس وروجه دوكوس على الاستقالة من منصبهما ، وانتظما في سلك المتأمرين فلم يبق لبونابرت وجه لأن يلقى معارضين له الا في المجلس .

فتوجه في الساعة الواحدة بعد ظهر اليوم التاسع عشر من شهر برومير الى المجلس بعد ما أقام في جميع المواقع المهمة جنوداً تحت لواء القادة الخاصين واستصحب برتيه وليففر ومورات ولان الخ . وأبقى مورو بمثابة سجان لغوهيه ومولان عضوي الديركتوار الشديدي التصلب في رأيهما ، وأذيع بين القوم انهما استقالا من منصبهما ، على أن مثل هذه القرية تغتفر في مثل هذا اليوم . وأما سياس وروجه دوكوس فانهما استقالا بالفعل فلم يجد الاول منهما منفذاً يخرج منه عند نزول النوازل والمأم الملمات . فدبر طريقة اضطرت به الى مغادرة منزله ، وأوقف تاليران باراس على الغاية التي تشف عنها زيارة بوريان له ، فاستقال باراس وانطلق لساعته الى غروبوى تاركاً رسالة لزعيم مجلس الشيوخ يقول له فيها بعد ايراد تجرده وحبه الشديد للوطن والحرية : « انه يسر بأن يعود وطنيا بسيطاً ، ويغتبط بأن يلقى عن منكبيه أعباء الجمهورية خالية من كل وصمة وعزيزة الجانب كما تسلمها من دون أن يؤثر فيها ماثار عليها من عواصف الفتن والأحزاب »

ان المتأمرين وان توهموا ذواتهم متسلطين على مجلس الشيوخ ابدوا مقاومة

لبونابرت لم يكن يحلم بها ، وصار وجوده بين ظهرانيهم موضوعا للقلق والقال ولما كان بونابرت متموداً أن يخاطب جموعاً تطيعه طاعة عمياء ولا تنكرعاه أذنى كلمة من كلامه ساء جداً موقف بعض الجمهوريين المتطرفين المتذرعين بلقب ممثلي الشعب ، ووقوفهم سداً في وجهه ، وكان ذلك الامر يحول دون بلوغ أمنيته في ذلك اليوم العظيم . وحين تسنم منبر الخطابة لم يستطع التفوه الا بمبارات متقطعة وكلمات قليلة المعنى جعلت الحضور يتذمرون منه ، فكان تارة يحمل على الحزب الديموقراطي حملة شعواء ، وتارة يصوغ عقود الثناء والاطراء عليه مريداً بذلك تبرير نفسه وتبرئة ساحته بذكري أعماله الماضية . وختم مقاله بتذكيره اياهم بوجوب رعاية حرمة الحرية والمساواة ، فافتنم لنغله الفرصة وذكره بالدستور ، فحينئذ صاح بونابرت بلاء فيه قائلاً . « أتقول الدستور ، وأنتم قد دلستموه في ١٨ فركتيدور و ٢٢ فلوريال و ٣٠ براريدال ، أتقول الدستور ، وجميع الاحزاب تستنجد به ، وجميع الاحزاب قد خرقت حرمة . . . واليوم تجري المؤامرة باسمه ، واذا قضت علي الحال بكشف المخبات واعلان أسماء الاشخاص بادرت الى هذا الامر وقلت ان باراس ومولان عضوي الديركتوار هما اللذان اقترحا علي أن أراس حزباً يعمل على قلب الحكومة المؤلفة من أشخاص معروفين بحرية الفكر »

فأيقظت كلماته الاخيرة انعواطف الكامنة في صدور الحضور حتى أن بعضهم قام يطلب اجراء التحقيق بواسطة لجنة سرية ، الا ان الاكثرية لم تذهب مذهبه . ودعي بونابرت الى الايضاح والتصريح لدى الامة فاضطرب اضطراباً لم يشعر بمثله قبل ذلك الحين ، ولم يجد له مخلصاً من ذلك المأزق الا بالنسحابه في وسط الضوضاء صائحاً بأعلى صوته « من يحبني فليتبعني »

وكانت العاصفة تعج بعنف في مجلس الخمس مئة لأن الاكثرية فيه كانت شديدة الاعتصام بأهداب الاخلاص للجمهورية والدستور . وأيدت تلاوة رسالة باراس ما كانت حوادث اليوم السابق تنذر بوقوعه وأطلقت الاسنة بلاذع الوعيد وقوارص التهديد لكل من تحدته النفس بتغيير شكل الحالة الحاضرة . واصاخ ممثلو الامة لتجريض دبلر لجددوا الاقسام على المحافظة على الجمهورية ومبادئها واذا بونابرت قد اطلع على الحاس تحيط به ثلة من الجند . ولما وقعت انظار

الجماعة على بونابرت ورفاقه امتلاً و غيظاً وصاحوا جميعهم « فليسقط الحاكم المستبد ، فليسقط كرمول ، وليتبرأ القانون من بونابرت » ونهض بعض النواب عن مقاعدهم ومشوا لملاقاة الجنرال بونابرت ليعنفوه على تدنيسه هيكل الشرائع المقدس ، فانتهره ببعونه قائلاً . « ماذا تفعل أيها الوقح ؟ اغرب عن هذا المكان » ولما شاهد بونابرت أن الاستياء من عمله كان عاماً لم يرقه ما أبصره من المقاومة غير المنتظرة التي لقيها في مجلس الشيوخ ، وعلم أن لا قبل له بمناوأة البرلمان ، فعاد ادراجه الى الجيش مخفوراً بالجنود الذين واكبوه . فأفرخ روعه عند وصوله اليهم ، وثابت اليه الثقة بنفسه وهادئته جرأته لما وافاه شقيقه لوسيان بعد ما اضطر الى الاستقالة من زمامة المجلس حين أتى أن يتسقط زملاءه عن رأيهم في أمر ابعاد أخيه ، ولم يكتف لوسيان بأن يأتيه بمعاوضة السلطة التي هجرها مختاراً في وسط المجلس وظل مستنداً اليها في الخارج ، بل ظاهره بفصاحته وشجاعته وهمته

واستطاع لوسيان صهوة الجواد وجعل يتنقل بين صفوف العساكر ويصيح بهم كأنه لا يزال ناظراً نصب عينيه مدى السفاحين مشهورة للفتك به .
« أيها الوطنيون ، أيها الجنود ،

« ان رئيس مجلس الخمس مئة يعلن لكم أن الاكثريّة في هذا المجلس راعها الآن تهديد فريق من نواب الشعب استلوا المدى للايقاع بهم وأحاطوا بالمنبر قاذفين بالموت على زملائهم ، فأعلن لكم أن هؤلاء السفاحين الجريئين المأجورين ولا مراء لبريطانيا ثاروا على مجلس الشيوخ وتجراًوا على القول بأن القانون يتبرأ من الجنرال الموكل اليه اجراء قرار المجلس الموما اليه . فهم يتوهمون أننا لا نزال في عصر الرعب الذي كانت السيادة فيه لهم ، حين كانت كلمة « يتبرأ منه القانون » تكفي لاطاحة أعز الرؤوس لدى الوطن عن مناكب أصحابها

« فأعلن لكم ان هذا الفريق القليل العدد من أولئك الناقين يتبرأ القانون منهم من جراء ما أتوه من الاعتداء على حرية هذا المجلس . فباسم الشعب الذي أصبح منذ عدة سنوات ألعبوبة بيد أبناء الرعب الاشقياء هؤلاء أفوض الى الجنود أمر انقاذ أكثريّة نوابهم لعل هذه الاكثريّة تنجو من المدى بقوة الحراب وتتمكن من انتفاض بشأن الحظ المقدر للجمهورية

« أيها القائد ، أيها الجنود ، أيها الوطنيون ، ينبغي لكم ألا تعتبروا مشرعين لفرنسا إلا الذين التفوا حولي . وأما المتخلفون عنا فليطردوا بالقوة لان هؤلاء اللصوص لا يعتبرون ممثلي الشعب بل ممثلي المدينة . فليظل هذا اللقب مطلقاً عليهم وليصبحهم أني ساروا . ووقت ما يجروون على البروز للشعب فليشر الجميع اليهم بالبنان بأنهم استوجبوا لقب ممثلي المدينة . . . فلتحي الجمهورية ! » وظل الجنود مترددين بعد سماعهم هذا الكلام ، حينئذ أزال لوسيان ذلك التردد من بينهم بهذه العبارة المشهورة « أقسم على اني أضمن صدر أخي اذا ما ألتست منه ميلا الى مس كرامة حرية الفرنسيين »

وكان بعد ذلك ان هذا القسم الملفوظ بلهجة عنيفة تغلب على تردد الجنود ، ومع ذلك لم يكن بونابرت خالي البال حين أمر مورات بأن يزحف برجاله لتزريق شمل ممثلي الامة . فانه لما أخفق سعيه من نيل أمانيه بمجرد حضوره وخطبه الرنانة انتقاد الى أخيه وزعماء المتأمرين وصمم على حل المجلس بالقوة . فلم يك غير قليل من الحين حتى خلت ردهة المجلس من النواب

وأراد مدبرو حركة ١٨ برومير بعد الفوز الذي ظفروا به ان يبرهنوا للملا طراً عن شرعية عملهم باستعمالهم الشكل الدستوري الذي هدموا أركانه فبحشوا في كل جهة لادراك هذه الغاية عن أعضاء المجلس الذي حلوه بتلك الطريقة العنيفة ليؤلفوا منهم شكل مجلس وطني . فتمكن لوسيان ان يجمع في ناحية سان كلود ثلاثين نائباً آلوا على نفوسهم القيام باعباء السلطة السامية التي كان بونابرت صاحبها الحقيقي ، وقرروا ماعدا عزل واحد وستين عضواً من زملائهم حل الديركتوار وتأليف مفوض قنصلي من ثلاثة أعضاء وهم سياس وروجه دو كوس وبونابرت . وقد تم هذا الانقلاب الخطير في الساعة التاسعة مساء وكان قد مضى على بونابرت احدى عشرة ساعة لم يذق في خلالها طعاماً . ولما عاد الى منزله لم يهتم بمحاجته الطبيعية مع انه كان قد مضى هزيع كبير من الليل بل صرف هامة النفس الى اتمام مقتضيات ذلك اليوم العظيم بتديره الخطاب الذي كان يراه بلاءاً لا ستمالة القوم اليه . وهذه خلاصة الخطاب .

« لما عدت الى باريس وجدت الشقاق ضارباً أطنابه في جميع دوائر الحكومة

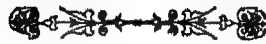
وشاهدت الجميع متفقين على ان الدستور أوشك ان تعبت به يد البلى ، وانه لا يستطيع ان يصون حرمة الحرية

« وجاءني جميع الاحزاب يموحون لي بمقاصدهم ، وينمون لي بأسرارهم ويطلبون مناصرتي ، فأبيت التقييد بحزب من الاحزاب

« ودعاني مجلس الشيوخ فلبيت دعوته ، ودبر أولئك الرجال الذين تعتبرهم الامة نصراء الحرية والمساواة والتملك خطة اصلاحية عامة .

« وكانت الخطة تقضي تدقيماً مقروناً بالسكينة والحرية خالياً من كل تأثير وارهاب . وبناء على ذلك صمم مجلس الشيوخ نقل المجلس الاشتراعي الى سان كلود ، وفوض اليّ اعداد القوة اللازمة لاستقلاله فرأيت ان من المقضي عليّ قبول الزامة حباً بخدمة أبناء وطني والجنود الذين قضوا في جيوشنا والفخر الوطني الذي أصابوه باهراق دمهم »

ثم أفاض بونايرت في الكلام عما جرى في سان كلود وأيد بشهادته القوية اختلاق لوسيان عن شهر المدى والخناجر ، وختم مقاله بهذه الكلمات « أيها الفرنسيون ، لا تخفى عليكم ولا مراة غيرة جنسدي الحرية والوطني المخلص للجمهورية . فقد طادت الى محورها الافكار المحافظة والواقية والحرية بعد تمزق شمل المشاعيين الذين كانوا يضيّقون خناق المجالس وينفرون القوم منهم ويجعلونهم يعتبرونهم من أهل الشقاوة »



الفصل العاشر

— انشاء الحكومة القنصلية —

وكان أصحاب مبادئ التعصب ، والجمهوريون الشديدي الاستمساك بغير مذهبهم يعتقدون انه قضي على مصلحة الشعب وأن الديموقراطية هدمت أركان دستور السنة الثالثة ، ومن ثم لم يكونوا يألون جهداً عن إلباس انقلاب برومير ثوب الاعتداء على حقوق الامة . إلا أن عامة القوم والسواد الاعظم من جميع الاحزاب والاكثرية الراجحة من طبقتي الشعب العالية والمتوسطة ومجموع طبقة العمال على التقريب ، وجميع الذين يعلقون أهمية على نجاح فرنسا الماسدي وسلامها في الداخل وأمنها في الخارج أكثر مما يعلتون من الاهمية على المسائل الدستورية والقضايا النظرية كانوا ما خلا بعض نفر من الالى لا تلين الحوادث مجتهدهم يلقون لبونابرت عذراً يملصه من طائفة المسؤولية عن حادثة سان كلود ، ويعتبرون هذه الحادثة ذريعة لا يستغفون عنها لاصلاح ما أفسدته أيدي العيارين والاقدار .

وقال نابوليون حين كان في جزيرة القديسة هيلانة « لقد اسهبوا وسيسهبون في البحث نظرياً عما اذا لم نكن قد خرقنا حرمة الشرائع وعما اذا لم نكن قد اقترفنا جناحاً ، ولكن هي مسائل نظرية يصلح سبكها في الكتب أو النطق بها من فوق المنابر ، وتقضي الحال نبذها حين تعرض حاجة ماسة ، على أن الشكوى منها تحكي الشكوى من بحار يقطع صاري مركبه تقادياً من الفرق . ويدل واقع الحال على أن الوطن كان مقدراً له الهلاك بدوننا ونحن أنقذناه . وقد كان من الواجب على الكتبة ومن لهم يد في ذلك الانقلاب المشهور أن يحبسوا أقلامهم ويعقلوا ألسنتهم عن الخوض في مجال الانكار وتبرئة ساحتنا ، ويكتفروا بان يجابوا بأنفة المفتريين بمثل ما أجاب به ذلك الروماني . « نعلن على رؤوس الاشهاد أننا خلصنا بلادنا فلم بنا نسدي الشكر للآلهة . »

« ولا يخفى أن جميع المشتركين بتلك الحركة السياسية يحق لهم أن يقولوا ان الجميع أجمعت كلمتهم على أن الانقلاب في نظام الحكومة كان ضربة لازب



المرشال برنادوت وقد تبناه ملك اسوج سنة ١٨١٠
وخلف الملك شارل الثالث عشر على عرش اسوج في سنة ١٨١٣ واتخذ اسم .
شارل الرابع عشر
ولد في بو ١٧٦٤ وتوفي في ستوكهلم ١٨٤٤

وأن الجميع كانوا يلتمسونه ، وكان كل منهم يبتغي اجراءه من جهته . وقد أجريت مهمتي مستعينا بالمعتدين . وكان من نتيجة عملي انقضاء أجل الفوضى الفجائي وسرعة عودة النظام والاتحاد والقوة والمجد . فهل كان اليعقوبيون أو ذوو الاخلاق الفاسدة أفضل منهم ؟ انه ليجوز لي أن أجاب بالسلب على هذا السؤال ، وانه لطبيعي أن يستأثروا ويرفعوا أصوات التذمر منه . وأما اصدار الحكم العادل على هذا الحادث العظيم فهو من اختصاص المستقبل البعيد والاشخاص الذين لا ناقة لهم ولا جمل فيه . »

على أن هذا المستقبل البعيد اقرب وقام الاشخاص الذين ليس لهم في الحادث ناقة ولا جمل ، فالاجيال الحاضرة وان يكن الروح الديموقراطي مستولياً عليها بعد ما نكب بونابرت ممثليه وهدم صرح مبادئه في سان كلود ، لا تشعر شعوراً شخصياً بالتأثير العنيف الذي شعر به الوطنيون المتطرفون على اثر تلك النكبة وهدم صرح المبادئ المذكورة . ولعمري ان الديموقراطيين الحاليين يجب عليهم أن ينبذوا عواطف القلى والحنق التي كانت تهب في صدور أجدادهم ويتساءلون بكل سكينه وترو وتجرد هل كان ذلك الانقلاب الذي شعر بفوائله الثوريون المتطرفون ، وأثار كوامن الحقد والسخط في أفئدة غلاة الثورة والديموقراطية وافر الفائدة جميل العائدة على مجرى الثورة ونجاح الديموقراطية ولما جاء بونابرت والحسام في يده ليجعل فكره الشخصي وارادته الوحيدة يحلان محل الشرائع التي سنّها الشعب والحكام الذين انتخبهم لم يكن في وسع الشرائع والحكام الدفاع عن حقوق الشعب من أعدائه في الداخل والخارج لان الفساد والضعف الطارئ على القابضين بأيديهم على زمام السلطة كانا يتصدیان لمجرى الثورة ويحولان دون الانتهاء بها الى غاية النجاح . وكان يخشى أن يؤدي التفريق الى ايقاظ الفوضى واستفحال أمر الاحزاب في البلاد . على أن فتنة البريطانيين والزمندان والهنديين لم تكن لثني عن منازعة اليعقوبيين الفتوح السياسية العظيمة التي كانت اليعقوبية في ريق أمرها قد تمكنت من مباشرتها وتحقيقها والحفاظة عليها ،

أجل ان الثورة استنزفت جميع موارد سيطرتها على الشعب فنقد شكل من أشكالها . وبعد ما نالت الانتصار بواسطة سيادة الشعب استهدفت للعطب

الوبيل بتحول آلة النصر عليها بعد ما كانت مسخرة لخدمتها ، ولم تكن تحسن ادارتها مدة طويلة من دون أن يصيبها منها الاذى والمضرة وكان موقفها الجديد يقتضي شكلاً جديداً ، أي أنه كان يجب أن تصلح سياسة الفرد ما أفسدته سياسة الجماعة . وقد كان وايم الحق مظهر من أجمل مظاهر قوة الثورة بتيسر تلك السهولة للعثور بحسب مقتضيات ذلك العهد على أشخاص ذوي همم عالية وأفكار سامية يستعان بهم على استئناف أعمال رجال الحرية بشكل يتوهمه الناس ضرباً من ضروب الارتجاع ويظنونهم معارضة للمبادئ الجمهورية على أن هذا العمل لم يكن في واقع الحال سوى تنمة للمشروع الجمهوري الخطير وخدمة للمصلحة العامة . وبعد ما ارتعدت أوصال الملكية والارستوقراطية في أوروبا أمام ذلك الشعب العظيم حين كان يتكلم بالسنة الملايين ويحرك ملايين الاذرع القوية تعودتاً ألا تخافه وبدأت تأخذان بعض النفوذ عليه منذ الحين الذي عبثت به فيه أيدي الشقاء من جراء كثرة الزعماء وحلت عرى تلك الوحدة الموقرة التي أنشأها في أيام الخطر وهي أيام فخاره . وكانت الحال تقتضي بأن يضطر ذلك الشعب العظيم أعداءه اللداء الى الشعور بالخوف منه والاحترام له بعد ما كانوا قد جالوا التحير من زيقته على اثر رفعه في عواصمهم علم الاصلاح الذي دافع عنه من اعتدائهم عليه . ولم يكن محتاجاً الى ادراك تلك الغاية الجميلة إلا لتغيير خطة العمل والظهور بمظهر عظيم . ولا يخفى ان وفرة عدد الزعماء عرضته للاختلافات والمشاحنات الداخلية حتى بلغ الوهن من السواد الاعظم منهم ونضبت موارد همهم ونفدت أموالهم وتولاهم التبرم والسأم وفقدت القوة والوحدة بما كان ينشأ بينهم من التضامن والتناظر فلم يبق له مندوحة عن اسناد شؤونه الى فرد ممتاز بالدهاء والاقدام يستطيع ان يعيد اليه تينك القوة والوحدة . وبناء على ماتقدم بيانه يمكن القول ان بونايرت لم يخلع الشعب عن عرش سلطته في سان كلود بل غير شكل الحكومة وجعلها واحدة بعد ما كانت متعددة . ولم تخف هذه الغاية على الشعب فاستقبل شكل الحكومة الجديدة بكل ارتياح . وكما كان المجلس الوطني الدستوري ولجنة الامن العام يعبران عن ارادة الامة في أثناء تداعي صرحها ومقاومتها كان الحاكم الجديد الذي اتخذ على التعاقب لقب قنصل وأمبراطور يعبر عنها تعبيراً فصيحاً مجيداً في أبان ترميم ذلك الصرح وتوسيع

دائرته بقوة السلاح . وبعد الهفوات العديدة التي ارتكبتها ذلك الرجل العظيم ، وانحرافه عن جادة الحرية مرات كثيرة وبعد النكبات الوافرة التي دهمته والصغارة التي تمجوع كثؤوسها ظل الشعب ثابتاً على مبادئه ، وهذه المبادئ دون سواها تؤيد العصمة ثباتها . وعلى متن هذا المحيط السياسي الذي يبتلع مده وجزره كل يوم شهرة دهاة الرجال ونوابغهم ظلت شهرة نابوليون وحده طافية على صفحه غير مكتثرة للعواصف والانواء التي زادت هذه الشهرة ارتفاعاً كأنها ترداد شهادة العواطف الشعبية التي لا يخفي عليها شيء من الاشياء .

فليست عجائب سيفه هي التي جلبت اليه محبة الشعب بعدما بهرت نواظره ، وقد دلت شهرة اسمه المحفوظة في الاكواخ وفي القصور على السواء على انه لم يقف سداً في وجه المبادئ الديمقراطية وتبسطها بل كان يستوجب أن يطلق عليه اسم أكبر ديمقراطي في أوروبا . وبصيب الشعب في اعتباره إياه ثورياً زعزع أركان العروش القديمة ونسخ من الأذهان العبودية لاصحاب النجار القديم والثروة الواسعة بتحريره الاهلية الشخصية من قيودها حتى أصبحت الميزة الوحيدة الضامنة لنيل المناصب ، وصار منتخبوها يجلسون على العروش ويدوسون بأقدامهم تشامخ وعظمة أبناء الملكية القديمة العهد ويفتحون مجالاً واسعاً للمساواة من أدنى درجة في سلم الهيئة الاجتماعية الى أعلاها .

فلا ينبغي والحالة هذه للمهتمين كل الاهتمام بحظ بلادهم ومستقبل الانسانية ان يقتصموا بالخصوصيات الشخصية التي فشت بين جمهوري السنة الثامنة وبنقاشوا بونايرت الحساب على دستور السنة الثالثة ، على افتراض ان اختلاسه للسلطة ، كما يريدون أن يزعموا ، لم يكن سوى صورة يتقوى بموجها الروح الثوري في فرنسا ويمتد الى جميع جهات أوروبا . وكان ميرابو ذاته مختلساً لأنه لكي يصير في مكانة سامية ذلك المجلس بعدما شعر من نفسه بمقدرة على التسلط عليه بقوة الكلام دفع جمهور الشعب على احتقار الشروط المقترحة ونسخ الامتيازات القديمة وهدم الشرائع الجاري العمل بموجها ليتيسر له حصر السلطة الدستورية بيده . ولم ينهض إلا المتطرفون من أنصار الملكية للتجاسر على القول بأن القسم الذي حلقه مندوبو الامة في ٢٠ يونيو سنة ١٧٨٩ كان عملاً يدل على الكفر والجريمة لمسه أنظمة الملكية الاساسية ولحدوثه بطريقة اجبارية .

ومعلوم انه من خصائص الفقهاء وأشباع المذاهب والمنخدعين بشعورهم بالاهانة والوساوس ان يناجوا عقولهم منازعينها شرعية مهمتهم حين تتمخض هذه العقول بأمور خطيرة

واذا لم يكن بونا بارت قد تمس بالبركان الديمقراطي كما اتهمه بعضهم مرة بعد مرة وهناك بنجاته من شره ، واذا كان قد خبأ في بدء الامر فوهته تحت الكرسي القنصلي وبعد ذلك تحت العرش الامبراطوري فلا بد من ان يبرره الروح الجمهوري لتضحيتته بصور الديمقراطية على مذبح مصالحها الجوهرية وخلاصها وانتشارها. وهب لم يكن بونا بارت فقد كان دملر الجمهورية مقرراً ، ولكن كان يؤمل ارجاؤه بضم سنوات ، وكان ينتظر بقاء الجمهورية خاضعة لشرائع لانفي بالغاية المقصودة وسلطة مبتذلة ، مما يزيد في طين تلك الحالة بلة وفي طنبورها نعمة ويحقق التهم العديدة الموجهة اليها . وهذا كان من شأنه ان يزيد في تفاقم اللالة واستفحال أمر النفور فتحدث حركة ارتجاعية عنيفة لمعارضة الثورة من دون ان ينفصح المجال في وجه دعاتها لتدبير مجراها ارادة الوصول الى مصالح جديدة ، فتعود السلالة البربونية في صدر القرن التاسع عشر بدلا من عودتها بعد خمس عشرة سنة . أجل ان عودة هذه السلالة لم تتم على شكل ثابت لانها لم تقع على اثر اختلافات أهلية واضطرابات داخلية ورغبة وطنية تقيها من تلك النقيصة الناشئة عن مخالفتها للاجنبي والمسببة هلاكها منذ نشأتها . وكانت تستطيع في ذلك العهد أن تلقى أمامها شطراً عظيماً من الاجيال التي نشأت في عهد الحكم السابق ، وكان استيائها من مساويء الثورة داعياً الى ابقاء أفكارها ميالة الى العهد القديم ومن جهة أخرى كان أبناء الثورة الذين صاروا رجالاً سنة ١٨١٥ وحمل انتظامهم في سلك الشؤون العامة سلالة البربون وأنصارها على اليأس ينظرون بأعينهم معاكسة الحرية في بدء أمرها . وقد وصلوا الى عهد كرهوا فيه الجمهورية ولا سيما لطول عهد نزعها . وبناء على ماتقدم بيانه يمكن القول ان بونا بارت هدم الطريقة الجمهورية لاجل خدمة مبادئها وانه يمكن ان يقال ان ذلك كان رمية من غير رام . والمافل يدري انه لم يقض على الجمهورية ولا على

الثورة ولكنه حال دون اثاره استياء القوم منهما وحنقهم عليهما ، وأصلح ما كان قد فسد من أمرهما

ولم يكن احلاف الجمهورية في ذلك العصر يستطيعون ان يحكموا حكماً صائباً على ذلك الانقلاب الذي غشيه ، فأقلق استيائهم الحكومة الجديدة حتى انها فكرت في ابعاد بعض زعمائهم ، الا ان الوطنيين الملحقوظي المكانة الصادر عليهم قرار النفي أبدلت المراقبة بذلك الحكم عليهم .

ويكفي المرء ان يعلم حقيقة الاضطراب الذي كان سائداً في فرنسا في عهد حكومة الديركتوار وقت ما انزع بونابرت منها السلطة حين يعلم انه لما أراد القنصل ان يسير رسولا الى شمبليونه قائد جيش ايطاليا لم يجد في خزانة الحكومة ما يقوم بنفقة الرسول . ولما أراد الوقوف على حقيقة أحوال الجيوش اضطر الى ارسال مندوبين الى الجهات لعدم وجود جداول في دوائر وزارة الحرب . ولما قال بونابرت لموظفي الوزارة « كان يجب ان يكون لديكم بيان للمرتبات تتمكن من الاستعانة به لادراك غايتنا » أجابوه « نحن لا ندفع هذه المرتبات » ومن الجلسة الاولى التي عقدها المفوض القنصلي كان سياس يأمل ان ينال الاكرام من زميله الشاب مراعاة لسنه وحياته السياسية الماضية وكانت قد دبت له في صدره عقارب الحسد ، فألقى هذا السؤال « من منا يرأس الجلسة ؟ » التي هذا السؤال وهو ينتظر من زميله التنازل له عن الرئاسة ، الا ان روجه دو كوس أجابه بشدة قائلاً « ألا ترى ان الجنرال يرأسها ؟ »

ولم يكن سياس يعتقد ان شاباً خارجاً من صفوف الجند قضى زمانه في الدرس والاعمال الحربية يمكنه ان ينازع أمر تنظيم الحكومة الجديدة مشرعاً شابت ناصيته في العمل مما جعل الناس يقولون عنه كما كانوا يقولون عن توما باين ان في جيبه دستوراً في كل حين . فأعرب زميله بكل جرأة عن نتيجة تأملاته اليومية ، ولما اقترح تنصيب منتخب سام يجعل اقامته في فرسايل ويخصص له ستة ملايين فرنك مرتباً سنوياً ، ويفوض اليه أمر انتخاب القنصلين بموافقة مجلس الشيوخ الذي يستطيع الغاء هذا الانتخاب والغاء منصب المنتخب السامي نفسه قهقه بونابرت ضاحكاً من اقتراح زميله

وكان سياس مع عجزته جباناً لا يثبت في موقفه لدى تصلب خصمه في الرأي فأراد ان يتمحل لنفسه عذراً عما فاه به ، فأجابه بونابرت « انك ترى سوء استعمال السلطة مبدأً والشبح شخصاً ، فكيف جال في وهمك يا مسيو سياس ان امرأاً فيه حنرة من الشرف ونز من العقل يرضى بأن يلعب دور خنزير يتمرغ في حمأة بعض الملايين ؟ »

ومن ذلك الحين كشف النقاب عن كل شيء بين الفيلسوف والجندي ففهم كل منهما انه لا يمكنه السير مع الآخر مدة طويلة . وكان قد أذيع دستور السنة الثامنة ، وجاء في مندرجاته انشاء شكل حكومة شعبية تنقسم الى عدة أقسام كمجلس الشيوخ ومجلس النواب والمجلس التشريعي . وأما الحكومة الحقيقية فقد كانت بيد القنصلية وبعبارة أخرى بيد القنصل الاول

ولما استتب لبونابرت الامر وقبض بيده على السلطة العليا تخلص من سياس ، وهذا رضى بالانسحاب بعد ما خصصت له الامة مرتبةً دالا على اعترافها بخدمته ثم تخلص أيضاً من روجه دو كوس ، فهذا أثر الجلوس على كرسي مجلس الشيوخ على مشاطرة بونابرت حمل اعباء القنصلية . وحينئذ استبدل بونابرت بزميله كباساريس ولبرون

وكان أول عمل باشرته حكومة القنصلية اصلاح المختل فالغت قانون الرهائن والقروض الاجبارية ، وأحلت التساهل محل الاضطهاد ولما أفضت الحكومة الى أنصار الفلسفة أبيع للمؤمنين استدعاء خدمة دينهم وترميم مذابحهم ، وأذن بالعودة الى الوطن للمهاجرين والمنفيين السياسيين على اختلاف مذاهبهم وأزمنة ابعادهم . وكان من جملتهم كارنو ، فعاد من المنفى الى الندوة العلمية فالوزارة

وكان بونابرت في عهد حكومته الاولى وفي أثناء اقامته في الاسكسبور محافظاً على البساطة في ذوقه وأطواره وعاداته من دون ان يكون قد فقد شيئاً منها في خلال مكثه الطويل بين الجنود . وكان معتدلاً في طعامه وشربه إلا انه كان يشعر بأنه سيصير فاحش الاكل ، وان هزاله سيزول ويخلقه السمن ، على ان الاستحمام بالماء الحار الذي كان يزاوله كثيراً كان من أقوى العوامل لانشاء التغير فيه . وكان ينام سبع ساعات في اليوم ، ويوصيهماً بالآ يوقظوه لغير ما سبب موجب ويقول « الخبر السار لا يقتضي الاحاح ، أما خبر الشؤم فلا

ينبغي تأخير دقيقة واحدة . »

أجل أن بونابرت كان يعيش عيشة بسيطة في قصره القنصلي ، إلا أنه كان يستقبل فيه كل يوم مشاهير الرجال ودهاتهم ، وكانت جوزفين تستقبلهم أيضاً بما اشتهر عنها من اللطف والرفقة وحسن الذوق وهناك عادوا الى استعمال ألفاظ المجاملة التي كان غلاة الجمهوريين قد نبذوها من الحديث ، وصاروا يستعملون كلمة « مسيو » بدلا من كلمة « وطي » .

ولما كان القنصل الاول يقضي معظم وقته في الافتكار والتأمل لم يكن يتسنى له كثيراً أن يشاطر زائريه أحاديثهم المبنية على المعاني السامية والموسوعات العالية ، إلا أنه كان في بعض الاحيان يجلس من وقته ساعات يلتقي من نفسه فيها ميلا الى المحادثة فيبرهن بذلك عن أن الانسان يمكنه بمجرد ارادته أن يكون لطيف المباشرة طلق الحيا ، ولكنه لم يكن يريد هذا الامر مرات عديدة . وقد كانت السيدات يتذمرن من عدم ارادته . وكانت ظواهر بونابرت تدل على الفظاظة والميل الى سرعة الغضب الا أنه كان يخفي وراء هذه الظواهر نفساً رقيقة طبعته على عواطف المودة ولطف الشعور . وانه بمقدار ما كان متجهماً الوجه عبوس الجبين فجح الطبع خشن المراس صعب المقادة شديد التصلب في اثناء مزاولته للشؤون السياسية وفي خلال حياته العامة كان لين العطف خافض الجناح واسع الخلق حلو المباشرة في معيشته البيتية وبين اودائه

ويمكننا أن نثبت ما ذكرناه بهذا الصدد بإيرادنا بعض عبارات من كتاب أرسله في السنة الثالثة الى أخيه يوسف وهو يقول له فيه : « مهما كان المركز الذي يسوقك اليه الحظ فأنت تدري يا صاح أنه ليس لك صديق أفضل مني يعزك ويتمنى لك الهناء . . . الحياة كطيف كرى يزول بسرعة اذا ارتحلت وخيل اليك أن هذا الارتحال قصير الاجل فارسل الي صورتك . لقد عشنا معاً سنوات عديدة بالوفاق والوئام فاتحد قلبانا اتحاداً تاماً . وأنت تعلم أكثر من غيرك مقدار تعلق قلبي بك . وأشعر وأنا أخط هذه السطور بتأثير لم أشعر بمثله في ماعبر من أيامي ، وتناجيني النفس بأنه سيطول علينا الوقت قبل انتظام قملنا ، فلم تبق لي طاقة على كتابة شيء آخر . . . »

وان عقيلة ليتيسيا التي كانت تعرف نجلها حق المعرفة كانت تقول عنه وهو

في عنفوان عظمته « مهما فعله الامبراطور من الامور فهو كريم الاخلاق »
 وشهد له المسيودي بوريان عينه هذه الشهادة مع اعتقاده بأن نابوليون لم
 يكن يعترف بالصدقة ، وانه جاهر بأنه لم يكن يحب احداً . ويفسر هذا التناقض
 باختلاف المواقف . فليس لرجل الحكومة عواطف مودة شخصية ، ومن هذه
 الجهة وبلاستناد الى هذا المبدأ ومراعاة للمصالح العامة الموكولة اليه كان نابوليون
 يقول أنه لا يجب احداً . ولكنه مع صرف النظر عن السياسة كان يجعل الطبيعة
 تستوفي جميع حقوقها . وقد شوهد غير مرة يلطف بهجة الانتصار وحاسته في
 ساحة المعركة باظهاره عواطف كانت الحرب تضطره الى كتمانها . فقد حدث في
 أثناء حروب ايطاليا أنه مر بعد معركة هائلة بأركان جيشه بين القتلى والجرحى ،
 وكان الضباط قد سكبوا بسلافة النصر وجعلوا يحاؤون بحماستهم من دون أن
 ينفقوا أمام تلك المشاهد التي تتفتت منها الأكباد . فسمح القائد الظافر كلباً ينبج
 الى جانب جثة جندي نمسوي ، فقال لرفاقه . « انظروا أيها السادة الى هذا
 السكب فهو يعلمنا مقتضيات الانسانية »

ولكن مهما كانت في قلب بوناپرت منزلة العواطف المبنية عليها الفضائل
 الشخصية والهناء المنزلي ومهما كانت قيمة هذا الهناء كان بوناپرت يضحى به
 في سبيل مجد وسعادة الشعب الذي كان هو ممثله الوحيد ، فانه مع لقاء الدستور
 الجديد بمقاليد السلطة الاجرائية الى ثلاثة فصول كان الجميع يعملون أن الحاكم
 كان واحداً فقط . ويقول دي بوريان ان كمباساريس ولبرون كانا شاهدين أكثر
 منهما زميلين لبوناپرت . وقد اعيدت الملكية على تلك الصورة تحت اسم
 جمهورية . فكان القنصل الاول يفعل كل شيء ، وكان مقضيا عليه أن يفعل
 كل شيء بحسب ما كان منتظرا من مقدرته وعلو همته ومعاذة الاحوال له .
 وكان تاليران قد عرف هذا الامر وخطب بوناپرت من اليوم الاول الذي باشر
 فيه الاعمال معه بصفة وزير خارجية قائلاً له . « يا حضرة الوطني القنصل ، لقد
 قلدتني وزارة الشؤون الخارجية ، فأراني مقضيا علي بأن أصرح لك من الآن
 بأنني لا أريد العمل الاممك . ولا تدفعني الانفة الفارغة الى التفوق بهذا الكلام
 وانما أخطبك به حبا بمصلحة فرنسا . على أن أفضل الشروط لاحكام القيام بادارة
 حكومتها وايجاد الوحدة في العمل انما هي أن تكون أنت القنصل الاول وأن



المرشال اوجرو دوق كستليونه
ولد في باريس سنة ١٧٥٧ وتوفي في سنة ١٨١٦

تكون قابضا على أزمة السياسة رأساً أي على وزارة الداخلية وإدارة الشحنة في الداخل وعلى وزارة الخارجية ، وعلى الذريعتين الكبيرتين للإجراء وهما الحربية والبحرية فيليب والحوالة هذه بالقاء بأعباء هذه الوزارات الخمس أن يعملوا معك دون سواك . أجل إن إدارة العدلية وحسن انتظام الشؤون المالية يتعلقان بالسياسة بأسباب عديدة . إلا أن هذه الأسباب ليست شديدة التوثق . وإذا فسحت لي في القول بإحضرة الجنرال ، قلت لك أنه يلائم أن تطلق يد القنصل الثاني في العدلية فهو من الفقهاء العظام وأن تطلق يد القنصل الثالث في الشؤون المالية فهو واسع الخبرة في القوانين المالية . وهذا الأمر يشغلها ويلهيهما . وأنت بإحضرة الجنرال يبقى لديك باقي الخطط الحيوية في الحكومة ، فحينئذ يمكنك الوصول إلى الغاية النبيلة التي تتوخاها أي تجديد شباب فرنسا »

ولما خرج تاليران من حضرة بوناپرت قال لكتابه . « إن تاليران شديد الرأي داهية سليم الذوق . . . وقد أدرك مرمى أفكاره واعلم أن ما يشير به علي تميل نفسي إلى إجرائه ، وهو مصيب في اقتراحه . فالإنسان يسرع في الجري حين يكون وحده . إن لبرون رجل شريف النفس بيد أنه خال من السياسة فهو يؤلف الكتب ، وكمباساريس يروي كثيراً من التقاليد الثورية ، فيجب أن تكون حكومتي حكومة جديدة »

وكانت الحال تقضي بأن يفهم الجميع ضرورة إنشاء حكومة جديدة فمن الجهة الواحدة كان أشياخ الثورة يهللون للحكومة القنصلية وإن يكن صرحها قد شيد على أنقاض الدستور الجمهوري للسنة الثالثة ، ومن الجهة الأخرى كان الأهلون المعتصمون بأهداب الحكومة الجديدة غير مباليين بطريقة التساهل والثروي التي جرت عليها من نشأتها

وكان القنصل الأول يخاف من حدوث حرب أهلية في غرب البلاد فوجه إلى أهليها نشرة حذرهم فيها من مكاييد البريطانيين وفسائسهم . وعضد هذا الإنذار بحميش قوامه ستون ألف مقاتل بلغ به أمنيته وتلافى وقوع فتنة عظيمة وأما زعماء الحزب الملكي فإنهم ظلوا متشبثين بأرائهم واتفكوا على الأجانب ولبثوا يترصدون فرصة ملائمة للنهوض على الحكومة الجديدة ، فاستاء بوناپرت من عملهم ولم يشأ اغضاء الطرف عنه وقابلهم بما هو مشهور عنه من شدة

الصريعة ، فأدخل عليهم الذعر بنشرة أنفذها اليهم وضمها كثيراً من الوعيد والتهويل .

وأدرك الحزب الملكي أن زمن الاهلية انقضى ، وأنه لم يبق له من سبيل لمجاذبة ممثل الثورة الجديدة ومواقفته ، ورأى من الحكمة الرضاء بوضع حد لتاريخ القنده . وكان الملكيون يمدون ذواتهم سعداء بأن تستثنى من تاريخ أمانتهم وبسالتهم أعمال النهب والقتل والسرقة والاعتداء التي صارت تأتيها من ذلك الحين فصاعدا عصابات تألفت في الجهة الجنوبية والغربية بعد انحلال عرى الجيوش الملكية

وكان بونايرت واضعاً نصب عينيه هذه الغاية وهي التضيق على أعداء الجمهورية المكابرين أو ائزال انكأ العقوبة بهم ومكافأة نصرائها الشجعان . ولما كان يعلم مقدار محبة أصحاب الاهلية للامتياز عن سواهم ولشعور الناس بهذه الميزة وزع مئة سيف شرف على الجنود الذين امتازوا بماثر خطيرة . على أن الشعب الذي شاهد أهل البسالة والمروءة يكافأون بما كان يكافأ به في ماضي الحين أبناء النبلاء كبر عند توزيع السيوف المذكورة ، وعلم أن ذلك الامر لم يكن مخالفاً للمساواة التي من أجلها جرت الثورة بل كان موطداً لدعائها على صورة ثابتة تزينها العدالة ، أي على قاعدة المجازاة بالنسبة الى الخدمة والفضل .

وانتهت اليه رسالة شكر من سرجان في فصيلة القنابليين يقال له أون ، فأرسل اليه الجواب الآتي : « وردتني رسالتك يارفيقي الباسل ، فقد كنت في غنى عما نوهته لي بأعمالك العالية لمعرفتي اياها كلها ، . انت أشجع قنابلي في الجيش بعد بنزيت الهام المتوفى . وقد أصبت سيفاً من السيوف المئة التي وزعتها على الجيش . فاتفقت كلمة جميع الجيوش على أنك قد نلتها باستحقاق . وأنا مشتاق كثيراً الى رؤيتك ، وقد أنفذ اليك وزير الحرب أمراً بالعودة الى باريس »

ان بونايرت مع ما كان يرمي اليه من الغاية السرية في تلك التظاهرات اصاب الغرض باستمالته اليه الشجعان ومكافأته اياهم ولو كان الطمع دافعاً اياه الى هذا العمل . وهذا الامر أفضل من رؤيته في الاحتفالات المقامة للأشخاص الذين

انقذوه في سان كلود من المخاطر الوهمية

وهب سلمنا جدلاً مع الزاعمين بأن بونابرت كان يستميل الناس اليه بمعضده المطامع الهابة رياحها في صدره ، وهب كان لاعتبار عظمتة الشخصية وسطوته الخاصة ومنزلته السامية وشهرته البعيدة شأن عظيم في جميع أعماله الحربية والسياسية وجب علينا أن نعلم أيضاً أن تينك السطوة والعظمة لم تكونا سوى سطوة وعظمة فرنسا الملقاة مقاليد حظها بين يديه . وكان عنده أن العمل لمجده الخاص ونجاح مطامعه وخلود اسمه هو العمل عينه لارتفاع ورقي ومستقبل الشعب الذي أطلق عليه هو قبل غيره لقب « عظيم » والذي كان متجسماً فيه على أن السلطة المطلقة التي خولها كانت وسيلة يتوسل بها ليمهد لروح المساواة والتقدم الحديث سبيل النجاح في شؤون لم يكن روح الحرية يبلغها من جراء ما يقوم في وجهه من عقبات يمز اجتيازها . وكان يكفي العلماء والصناع على صور شتى تنشيطاً لهم وبعد ما كادت الصناعة الوطنية تبور على أثر الفتن الداخلية عادت فراجت رواجاً لم يسبق له نظير . فانشئ مصرف فرنسا ووضعت طريقة جديدة للموازن والمكاييل ، وقصارى الكلام حقق بونابرت وهو زعيم الحكومة الفرنسية ما كان يتصوره ويريد به أيام كان قائداً بسيطاً من قواد جيوش الجمهورية وحين كان يلقي على الاساتذة الاسئلة العلمية ويجعل العلماء في مقدمة أركان الحرب ويسعى لنيل الاحترام والاكرام من الشعب بصفة كونه عضواً من أعضاء الجمعية العلمية اكثر مما كان يسعى لنيلهما قائداً اكبر للجيش وكان القنصل الاكبر يسر كثيراً بأن يكون زعماً للفتوح العقلية ومشجعاً لتقدم العلوم . وقد كان من حداثته يحلم بنيل المجد العالمي والتفوق على نيوتن ومن جملة ما قاله في هذا الموضوع : « حين كنت حدثاً فكرت بأن أصير مخترعاً على مثال نيوتن » وروي جفروى سان هيلار انه سمعه يقول : « اتخذت الحرب مهنة لي غير مختار ، وقد كان ذلك اجابة لداعي الاحوال » وفي أواخر مدة اقامته في مصر سمع منج يردد كلمة لاغرانج القائل : « لا يستطيع أحد أن يصيب مجداً كمجد نيوتن لانه لم يكن سوى عالم واحد للاكتشاف » فأنهره بمجدة قائلاً : « ماذا تسمع أذناي ؟ ولكن ما قولك في عالم التفاصيل فن افكر به ، لقد كنت افكر به من الخامسة عشرة من صري وهل من

أحد انتبه الى ما لافعال الذرات الدقيقة من خاصة القوة والجذب على مسافة قصيرة جداً مع أننا في حكم الضرورة من ملاحظتها . »

وفي أثناء أعمال بونابرت الحربية وانتصاراته اليومية التي امتازت بها حروبه في ايطاليا ظل محافظاً على ذوقه ، وبقي مسيراً على السواء توسيع عظمة فرنسا السياسية والفتوح العلمية في سبيل خدمة الانسانية والعمران

وكان وهو في بافيا يباحث سكاربا العالم الفسيولوجي ، وسنة ١٨٠١ جرت مداولات علمية بينه وبين فلتن احد أقطاب الفلسفة الطبيعية فجاد عليه بالصلوات السنية . وسنة ١٨٠٢ أرصد جائزة قدرها ستون ألف فرنك لمن يتوفق في الكهرباء الى اكتشافات واختبارات تماثل اكتشافات واختبارات فرنكلين وفلتن فطلب من الندوة العلمية بيان خلاصة ما أصابته الفنون وعلم الادب والعلوم الطبيعية من النجاح بعد الثورة الكبرى وفوض الى شينيه بيان رأيه في المسائل المتعلقة بعلم الادب

ولم تكن العناية بالقاء السلام في داخلية الجمهورية وتنظيم شؤونها تستغرق كل وقت القنصل الاول بل كان يفكر أيضاً بتمعزيز السلام في الخارج ارادة ان يجعله متمماً للمنة التي دلت على ارتقائه الى أوج السلطة . وفتح لهذه الغاية ابواب المفاوضات مع حكومة لندرة على يد تاليران وكتب بذاته في ٢٦ ديسمبر سنة ١٧٩٩ الى ملك بريطانيا العظمى الكتاب الآتي تعريبه حين قبض بيده على زمام القنصلية بالاشتراك مع كباساريس ولبرون

« من بونابرت قنصل الجمهورية الاول الى جلالة ملك بريطانيا العظمى وارلندة »
« انتدبتني رغبة الامة الفرنسية الى الحلول في المركز الاول في الجمهورية ، فرأيت من الملائم عند قبضي بيدي على عنان هذا المنصب ان أشعر جلالتك بذلك رأساً . وهل تضي أن تدوم الحرب التي تخرب أربعة أقطار العالم من ثماني سنوات ؟ او ليس من سبيل لايجاد واسطة للاتفاق ؟

« او يليق بالامتين المحترمتين في أوروبا بالمدنية والقوة والبأس اكثر مما تقتضيه حالة امنهما واستقلالهما ان تضحيا في سبيل أفكار العظمة الكاذبة بمرافق التجارة واليسر الداخلي وهناء العميال ؟ فكيف لا نشعر بان السلم يعتبر اول شغل كما يعتبر اول حاجة ؟

« لا يمكن أن تكون هذه المواطف غريبة عن فؤاد جلالتك ، فانت متول حكومة امة حرة ، وغايتك الوحيدة من ذلك هي تيسير اسباب الهناء لها
 « وسترى جلالتك في هذه المقدمات رغبتى الصادقة في العمل للمرة الثانية بطريقة فعالة في سبيل السلم العام بسعي سريع بتمام الثقة ، خال من تلك الصور التي مع ضرورتها لاختفاء استقلال البلدان الضعيفة لاتظهر في البلدان القوية الا الرغبة المتبادلة في المحادعة

« ان فرنسا وبريطانيا باسءاء استعملهما لقوتيهما تستطيعان أيضاً مدة طويلة ، وذلك لنكد طالع جميع الشعوب ، أن ترجئا زمن نقادها . وأجروا على القول بأن حظ جميع الامم المتعدنة معلق بنهاية حرب تدم ضرورها المستطيرة العالم طراً
 بونايرت »

ولم يكن ذلك الامر سوى تظاهر فارغ بالاعتدال ومحبة الانسانية على أنه لو كان بونايرت كما زعم بعضهم راغباً في مداومة اصلاء نار الحرب ولو لم يكن ميالا الا للحرب كما قد أقاموا عليه النكير من جراء ذلك ، لما كان شيء لمن الاشياء يضطره الى ذلك السعي المعجل والموجه رأساً الى ملك بريطانيا . أجل . انه كان يعتقد أن السلم مفيد لحكومته الا أنه كان يبتغي ان يثبت أركان هذه الحكومة ويصير الملأ طراً ميالين اليها حباً بمصلحة فرنسا والتمدن الاوربي . وما كان أشد تلك اللهجة التي تسلم بها بحرية وأنفة عن احتقاره للصور التي كانوا يتخذونها في المراسلات السياسية . ويعرف القاري من مجرد تلاوته لهذه الرسالة أن كاتبها هو أحد أبناء الديمقراطية ومستودع مصالح الثورة . وعليه أبي الملك الشيخ الرضى بالشكل الجديد الذي طالع الحاكم الجمهوري ادخاله على العلاقات السياسية ، فأوعز الى اللورد غرانفيل أن يجاوب الحكومة الفرنسية بأن الكتاب الموجه اليه رأساً من القنصل الاول لم يكن ليروقه ، وفوض الى الوزير نفسه بأن ينظم مذكرة يضمنها كثيراً من العتاب لفرنسا . فلم يغرب عن علم بونايرت أن استمالة هذا العدو العنيد المعاكس لنهضة فرنسا السياسية واضطراره الى الملاينة والمسالملة يقتضيان ذريعة أخرى غير مخاطبته بلهجة تدل على التعقل والتأني وكرم الاخلاق ، الا أنه لم يكن يشاء أن يكون

له في وقت واحد عدوان شديدا البأس أعني بهما بريطانيا والنمسا . وبناء على ذلك فتح بونايرت أبواب المفاوضات السلمية في وقت واحد مع الحكومتين طمعاً بفصل احدهما عن المحالفة على فرنسا ولكنه عاد بصفقة المغبون ولم يجن من المفاوضات سوى الخيبة والخذلان . فان النفور الذي شعرت به الحكومات الاجنبيات من الشعب الفرنسي على اثر فتنته الكبرى لم يكن ليزول الا بعامل الانتصار أو بعامل الضرورة

الفصل الحادي عشر

في نقل مركز القنصلية الى التويلري — حرب ايطاليا الجديدة
معركة مارنغو

وكان القنصل الاول يعلم حق العلم أهمية الصور التي تبدو بها السلطة وتأثير الظواهر كبرها وصغيرها ، فأراد أن يجعل سلطته محفوفة بكل ما يؤثر الى توسيع دائرتها وتعزيز شأنها وإظهار بها في عيون الشعب فقد كان قصر اللكسبور مقراً لسلطة ضعيفة تألفت من عصابات الثورة ، وسقطت بنهوض الملائ الفرنسيين عليها ونفور القوم منها مما كان يخشى أن تقضي الحال معه الى الفوضى . وكان هذا الامر وحده يكفي لأن يجعل بونايرت نفسه مضيقاً في مثل هذا المقر . على أن ما كان كافياً لايواء حكومة وقتية مزقت أحشاءها عوامل الاضطرابات والنكبات والفتن وجعلت الناس ينكرونها ويتأففون منها لم يبق لائتقاً بحكومة تشعر بأنها ذات حول وظول وقوة ووحدة وتطمع بأن تعمّر سطوتها ومجدها مدة طويلة فكانت الحال تقضي من ذلك الحين بان يقيم القنصل الاول في مقر الملوك لانه كان في واقع الحال يزاول سلطة الملوك . وكان قصر التويلري وحده يليق بسكنى بونايرت لان هذا القصر كان في عرف الجميع مقراً طبيعياً لرؤساء الحكومة . فهل كانوا يخشون ان يؤثر به ذكر الملكية القديمة بعد ما كانوا يتهمون به بأنه عامل على ترميم صرحها ، هذا ما كان الجمهوريون المتريبون يحاذرون وقوعه ويحاولون ان يدسوه في الصدور . إلا

انه كانت بين ١٠ أغسطس و ١٨ برومير (٩ نوفمبر سنة ١٧٩٩) وبين لويس السادس عشر و نابوليون بوناپرت أيام وسلطات يعز الديموقراطيون ذكرها . فقد تعاقب في الإقامة بذلك المقام الملكي الكنفسيون ولجنة الامن العام ، وكانت الإقامة فيه كافية لافتتاحه للثورة ولابعاد شبح طريقة الحكم القديم وكل ما يعيد الى الازهان ذكره القديم . ولما قر رأي القنصل الاول على ذلك الامر ضرب اليوم التاسع عشر من شهر يناير موعداً للانتقال الى المقر الجديد . ولما أرف اليوم المعين قال بوناپرت لكتابه . « هذه الليلة ترقد في التويلري . . . فيجب علينا ان نمضي اليه بموكب حافل ، وهذا الامر يبعث على التبرم ولكن لابد من مخاطبة العيون ، وهذا شديد التأثير في الشعب . فقد كانت حكومة الديركتوار بسيطة ولذلك لم يكن القوم يحترمونها الاحترام الكافي . فالبسطة في الجيش لا تخطى ، موقعها ، ويجب على رئيس الحكومة في مدينة عظيمة وفي قصر نخم ان يستميل اليه جميع الانظار بجميع الذرائع الميسورة . . » وفي الساعة المعينة رح بوناپرت الى الكسمبور يحف به موكب حافل يزيد نغمة تألق الجنود في ملابسهم . فكان كل فيلق يسير والموسيقى أمامه ، وكان القادة وأركان حركهم ممتطين الجياد ، والشعب كالبنيان المرصوص يتزاحمون بالمناكب ويأخذ بعضهم برقاب بعض ليشاهدوا الموكب ويبصروا الهام الهصور الذي ظفر بالاعداء في وقعات متعددة ، وينظروا نخبة الجنود الذين أصبحت أمماؤهم في جميع الافواء بعد المعارك التي أوقدوا سعيها . وكانت أنظارهم تبحث بنوع خاص بين الجموع عن الرجل الذي امتاز بينهم بما أوتي من الدهاء وشدة الصريمة وقوة العارضة ، وما أداه من الخدم الجلييلة لوطنه ، فهو الذي حصر في شخصه نحر الحرب في ذلك العهد ، وكانت فرنسا تعلق حظها بحظه متباهية . وكانت جميع الاحاظ شاخصة الى القنصل الاول الجالس في عربة تجرها ستة من الجياد البيض أهدها اياها طاهل الالمان بعد عقد وثيقة كمبو فرميو . وكان كمباساريس ولرون جالسين بأزاء زميلهما كأنهما من حجابيه . واجتاز الموكب شطراً كبيراً من مدينة باريس ، فأثار بوناپرت دفين الحماسة في الصدور ولما وصل القنصل الاول الى ساحة القصر عرض الجيش ، وكان الى كل جانب من جانبيه مورات ولان ، ووقت ما مرت أمامه القصائل السادسة والتسعون

والثالثة والاربعون والثلاثون رفع قبعته وانحنى احتراماً عند ما رأى اعلامها الممزقة من نار العدو والمسودة من البارود ولما فرغ من عرض الجيش أقام من دون مباهاة في المقر الملكي القديم

إلا أنه أراد أن يبعد عن الاذهان تصور اعادة الملكية على ذلك الشكل الفجائي فشاء ألا يصير المقر الملكي مقراً له إلا باسم قصر الحكومة . وراعى عواطف الجمهوريين بادخاله الى مقره الجديد كثيراً من صور وتماثيل مشاهير رجال العصور القديمة ، فقد كان يعلم ان ذكراهم تلذ لاحلاف الحرية وأوعز الى داود المصور بأن يضم صورة يونيوس بروتس في أحد أروقة القصر القنصلي الجديد ، ووضع فيه أيضاً تمثالاً نصفياً لبروتس الثاني جيء به من ايطاليا .

وقد دلت جميع هذه المحاذير على أن القنصل الاول مع شدة ميله الى الملكية كان يشعر شعوراً عظيماً بحقيقة أصله وفصله وحالة موقفه الثوري . وظلت هذه العاطفة متسلطة عليه حتى انه لما عمد فيما بعد الى الخروج من دائرتها أبقاها له الشعب . واذا لم تكن والدته قد انخدعت حين قالت عنه واصفة جودة قلبه . « مهما فعله الامبراطور من الامور فانه كريم الاخلاق » فان الشعب الفرنسي كان يصير بعاطفة سرية على القول عن القنصل ثم عن المعامل بأنه وان لم يكن حافظاً لعهد الامانة لمهمته في المستقبل ، وان يكن قد أعاد زخارف العرش وبهرجته فان بوناپرت ديموقراطي بقطع النظر عن الافعال التي فعلها .

وينتمي الى اقامته في قصر التويلري عصر الاصلاحات والانشاءات التي باشرها وكان قبلاً قد أشار الى بعض منها كالامر الذي أصدره بشأن اقفال باب المهاجرة ، وانشاء مصرف فرنسا ، وتقسيم الولايات . وحدثت حادثة ألبست الجمهوريين في أميركا ثياب الحداد ، وأوجدت لبوناپرت سبباً جديداً أظهر به انه وان يكن يسير موسماً الخطي نحو العرش فلا يزال يعتبر ذاته أول موظف للجمهورية ، ويعد نفسه مرتبطاً كل الارتباط بحفظ الشعوب الحرية . وأذاع على الجيش نشرة جاء فيها ما يأتي : « مات وشنطون ! لقد أصلى هذا الرجل العظيم الجور والظلم حرباً عواناً ، ووطد أركان الحرية في وطنه ،



المرشال ماسينادوق ريفولى وامير اسلنغ
ولد فى نيس سنة ١٧٥٦ وتوفى فى سنة ١٨١٧

وسيظل ذكره عزيزاً ومكرماً عند الشعب الفرنسي وعند جميع الأحرار في العالمين القديم والجديد ولا سيما عند الجنود الفرنسيين الذين نسجوا على منواله ومنوال الجنود الأميركيين في القتال دفاعاً عن الحرية والمساواة .
« وبنا عليه يأمر القنصل الأول بأن توضع علامة الحداد عشرة أيام على رايات الجمهورية وأعلامها . »

وفي اليوم عينه أعلن القنصل خلاصة الاقتراح على الدستور الجديد، وكان عدد المقترعين ثلاثة ملايين واثني عشر ألفاً وخمسمائة وتسعة وستين ، فنبذه ألف وخمسمائة واثنيان وستون ، وجاهر بوجوب العمل به ثلاثة ملايين واحد عشر ألفاً وسبع مئة .

وانتهت الى الحكومة في خلال ذلك الحين أنباء من جيش مصر موجهة الى الديركتوار ، وكانت تتضمن كلاماً بذيئاً وجهه كليبر الى بونابرت متهماً إياه بأنه غادر جيشه بالحاجة والضيق . ففزع القنصل الأول الرسائل ، وقد أسعده الحظ بوقوعها في يده . وكانت الأحوال تقضي عليه بأن يضحي بعواطفه الشخصية على مذهب مصالح فرنسا العامة فأجاب كليبر جواب رجل يستطيع التجلد وكظم غيظه مما يدل على أنه كان يستوجب أن يتولى الزمامة والأمر والنهي وكان جوابه بشكل نشرة موجهة الى جيش الشرق ، وقد حاذر كل المحاذرة أن يدع أحداً يشتم منها رائحة الشكوى التي أودعها كليبر رسائله منه ، وهذا تعريب للنشرة .

« أيها الجنود ،

« ان قناصل الجمهورية يكثر من الاهتمام بشؤون جيش الشرق .
« ان فرنسا تدري ما للفتوح التي أصبتموها من التأثير على انهاض تجارتها من كبوتها وانهاض العالم ، فأوربا جماء شاخصة اليكم بأنظارها وأنا في أغلب الأحيان أصحبكم بالفكر . وفي أي حالة أوصلتكم إليها أهواء الحرب ظلوا جنود ريفولي وأبي قير الذين لا يشق لهم غبار ولا يجارون بمضمار
« انظروا الى كليبر بثقة غير محدودة كما كنتم تنظرون بها الي ، فهو جدير بذلك ، أيها الجنود ، افكروا باليوم الذي تعودون به ظافرين الى بلادكم المقدسة ، فسيكون ذلك اليوم يوماً عظيماً محفوفاً بالمجد والفخر تحتفل به الأمة بأكملها . »

الا أن حكومة فينا ثابت من القنوط الذي ألقها في وهدته انكساراتها المتوالية في حروب ايطاليا العديدة ، وأصاحت الى صوت القلى القديم الذي كانت تشعر به نحو الجمهورية الفرنسية ، وبادرت الى الاتفاق مع بريطانيا على تلك السياسة العدائية . نابذة جميع الاقتراحات السلمية التي بسطها بونابرت . فحينئذ أمر القنصل الاول بأن ينشأ في ديجون فيلق احتياطي مؤلف من ستين ألف مقاتل ، وأسند قيادته الى برتيه بعد ما خلفه كارنو في وزارة الحرب . بيد أنه ماعتم أن مضى بذاته وتولى قيادة الفيلق جاعلا اياه جيشاً جديداً لايطاليا وفي ٦ مايو برح بونابرت بجيشه مدينة باريس فأنهى في ١٥ منه الى جبل القديس برنردس العظيم فاجتازه في ثلاثة أيام . وفي ١٨ منه كتب بونابرت من مرتينجي وقد اتخذها مقراً لاركان حربه الى وزير الداخلية يخبره بأنه قطع المعبر الصعب المرتقى وبأن الجيش برمته سيدخل أرض ايطاليا في ٢١ منه . واليك ما كتبه اليه

« أيها الوزير الوطني ، وصلت الى سفح جبال الالب في وسط القاله أجل ان مصاعب عديدة تصدت لنا في جبل القديس برنردس العظيم إلا أنها ذلت لدى الجرأة الممتاز بها الجنود الفرنسيون في كل موقف وقد بلغ الى ايطاليا ثلث الفرسان ، نزل فيها الجيش عنوة ، واحتل برتيه البيامونت . وبعد ثلاثة أيام ينقضي كل شيء . »

وقد انقضى والحق يقال كل شيء على ما كان ينظر اليه بعين الفكر بنظام وسرعة وبعد ما استولى الفرنسيون بسرعة غريبة على مدينة أوستي ثبطهم عن التقدم حصن بارد المنيع المشيد فوق صخر عمودي الشكل والمنتهى عنده واد عميق لم يكن لهم منتدح عن عبوره . فتغلبوا على الصعوبة بنقرهم في الصخر فكان لا تدركهم فيه قذائف مدافع أعدائهم طريقاً لمروور المشاة والفرسان . ثم أنهم أحاطوا في احدى الليالي المظلمة بالتبن عجل المركبات والمدافع وتمكنوا باجتياز الحصن بقطعهم مدينة بارد الصغيرة . وكانت في أثناء ذلك الحين اثنتان وعشرون بطارية من المدافع تخطر عليهم النيران والقنابل ، الا ان القذائف المطلقة على غير هدى لم توقع كثيراً من الاذى بالفرنسيين وفي الايام الاولى من شهر يونيو نقل بونابرت مركز أركان حربه الى

ميلانو وحينئذ التي في الجيش الخطبة الآتية بعد ما أعلن إعادة جمهورية ماورا،
الالب .

« أيها الجنود

« كان أقليم من أقاليمنا في حوزة العدو ، وكان الذعر منتشرأ في جميع أنحاء
فرنسا الشمالية ، وكان القسم الأكبر من الارض الليغورية الشديدة الموالاة
للجمهورية قد غزي .

« وكانت جمهورية ماوراء الالب التي تضعضعت أركانها في الحرب الاخيرة
قد أصبحت ألعبوة بيد الحكام ذوي الاقطاعات . ولكن لم تكادوا ترحفون
أيها الجنود ، حتى أنقذت الارض الفرنسية ، وخلف في بلادنا الجذل والامل
العرب والوجل . ، وانكم ستمعيدون الحرية والاستقلال الى شعب جنوى
فيتخلص الى ما شاء الله من أعدائه الابديين .

« أنتم في عاصمة جمهورية ماوراء الالب ، والعدو المذعور لا يطعم إلا
بالبلوغ الى حدود بلاده . وقد استوليم على مستشفياته ومخازنه واهرائه
الاحتياطية .

« قد انتهى أول عمل في هذه الحرب ، وكل يوم يوجه اليكم ملايين من
البشر شكرهم ، فلا يخرق أحد حرمة الارض الفرنسية من دون ان تدركه طائلة
العقاب . وأنتم لا تتركون الجيش الذي قذف العرب على عيالكم يعود الى مواطنه
فهبوا الى القتال . . .

« اقتفوا آثار العدو وحولوا دون انسحابه وانزعوا منه أغصان الفار التي
كان يتباهى بها ، واجعلوا بهذا الامر جميع الناس يعلمون ان اللعنة تحل على
المغفلين الذين يتجرأون على اهانة أرض الشعب العظيم . وستكون نتيجة جميع
مساعينا مجداً أثيلاً وصلاحاً متيناً

« ان المجد الاثيل كان قد أحرزه من عهد بعيد الجيش الفرنسي وقائده
الهام وأما الصلح المتين فقد كان يصعب عليهم نيله ، وكانوا مع ذلك قد أوشكوا
ان يوفدوا سعيهم معركة نهائية تجعل أشد الاعداء عناداً يطفئون وقتياً على
الاقل نيران بغضائهم »

وعبر بونابرت نهر البو في ٩ يونيو وظفر بالنمساويين في منتبلو حيث اشهر نائب

من نوابه يقال له الجنرال لان اشتهاراً عظيماً وأدرك النمساويين في سهل مارنغو في ٢٤ منه وانتصر عليهم انتصاراً من أعظم الانتصارات التي امتازت بها جيوش الجمهورية . ولندع ذلك الغازي الهصور يروي بذاته حوادث هذا اليوم المشهور .

« بعد واقعة منتبلو زحف الجيش ليعبر السيارة . ففي ٢٤ يونيو التقت طلائعنا التي كان يقودها الجنرال غردان العدو الذي كان يزود عن البراميدا والجسورة الثلاثة بضواحي الاسكندرية فقهرته وغنمت منه مدفعين وأسرت منه مئة مقاتل .

« وفي الوقت عينه أقبلت فصيلة الجنرال شابران على طول ضفاف نهر البو بازاء فالنسه وصدت العدو عن عبور هذا النهر . فأصبح ميلاس والحالة هذه محصوراً بين البراميدا والبو ، وأضحى المكان الوحيد الذي كان يستطيع الانسحاب اليه بعد معركة منتبلو مسدوداً . لم يكن العدو قد صمم بعد على اتيان أدنى حركة حربية ، وفي ٢٥ منه عند افترار نهر الفجر اجتاز العدر البراميدا على الجسورة الثلاثة وهو عاقدة العزم على اختراق منفذله . نخرج بكل ما عنده من القوة وفاجأ مؤخرتنا ، وبأشر بشدة معركة مارنغو الشهيرة التي كانت حداً فاصلاً لحظ ايطاليا والجيش النمساوي

« فتقهقرنا في أثناء المعركة أربع مرات ثم عدنا فهجمنا أربع مرات وأخذنا ثم استرجع أكثر من سبعين مدفعاً من الفريقين بأما كن عديدة وساعات مختلفة . وهجم الفرسان أكثر من اثني عشرة مرة بنتائج متفاوتة وكانت الساعة الثالثة بعد الظهر وقد أحاط بيمينتنا عشرة آلاف من المشاة

في سهل القديس يوليئاس المشهور ، وكان تحت صف من الفرسان وكثيرون من المدفعيين يعصدونهم قائمين بنصرهم في السهل الفسيح ووقف فرسان الحرس كحصن من الصوان في وسط السهل فلم يستطع شيء من الاشياء أن يقلل حدهم ، وزحف اليهم على غير جدوى الفرسان والمشاة والمدفعيون ، وقد استنتج من ذلك ما تستطيع فعله عصابة من ذوي القلوب الصارمة

« وكانت المناوشة الشديدة داعية الى ايقاف ميسرة العدو عند حده ،

وكانت ميمنتنا مسنودة فتمكنت من المقاومة حتى وافاها الجنرال مونييه فاستولى على قرية كستل شريولو بقوة الحراب
 « وأجرى فرسان العدو حركة سرية نحو ميسرتنا وقد كادت تنضفع
 أركانها، الا ان هذه الحركة عجبت في انسحابها
 « وكان العدو يزحف الى طول الخط وهو يطلق النار من مدافعه الزائد
 عددها عن المئة

« وكانت الطرق مغطاة بالهاريين والجرحى واشلاء القتلى، وخيل ان النصر قد مال عنا، فترك العدو يتقدم الى مرمى بندقية من قرية القديس يوليئاس حيث كانت فرقة ديزه تقاتل ومعها ثمانية مدافع خفيفة في المقدمة وفصيلتان احتياطيتان عند جناحيها. واحتشد وراءها جميع الفارين، وكان العدو قد ارتكب هفوات أُنذرت بتزلزل أقدامه. فإنه كان قد نشر جناحيه كثيراً
 « وأنهمض حضور القنصل الاول هم الجنود من عشارها

« فكان يقول لهم: « يا أبنائي، اذكروا اني متمود الرقاد في ساحة القتال
 « ولما علا الهتاف « فلتحيي الجمهورية ا فليحيي القنصل الاول ! » حمل ديزه بفرسانه حملة صادقة على وسط الاعداء، ولم يك غير القليل حتى ولوا الادبار. وكان الجنرال كلرمان قد ذاك كل النهار بفرسانه عن ميسرتنا مسهلاً لها سبيل الانسحاب، فهاجمهم هجمة شديدة في الوقت الملائم كان من ورائها سقوط ستة آلاف من فرسان النمساويين والجنرال زاخ رئيس أركان الحرب في حبائل الاسر، واعتظام كثيرين من قواد العدو. وكان جميع الجيش يتتبع هذه الحركة، فانقطعت ميمنة الاعداء وقذف الدعر والرعب على صفوفهم وهجم فرسان النمساويين على الوسط ليحموا طريق الانسحاب فتلقاهم بسيار قائد احدى الفرق في مقدمة فرسان الحرس وحمل بسرعة وجراًة مخترقاً صفوف فرسان العدو. فكان ذلك العمل سبباً لانكساره التام

« وغنمنا خمس عشرة راية وأربعين مدفعا، وأسرننا ستة آلاف الى ثمانية آلاف مقاتل، وتركنا أكثر من ستة آلاف محارب مجندلين في ساحة الوغى
 « وقد استمحتت الفصيلة التاسعة الخفيفة السير لقب « فاقدة النظير » والنحف

الفرسان والفصيلة الثامنة من الدراغون بمطارف المجد . وكانت خسارتنا جسيمة .
فقد بلغ عدد قتلتنا ٦٠٠ وجرحانا ١٥٠٠ وأسرا ٩٠٠
» وقد جرح القواد شمبو ومرمون وبوده .

» ومزق الرصاص ملابس برتية القائد الاكبر ، واضطر كثيرون من حجابيه
الى الترحل . وقد أصبنا بخسارة شعر الجيش بثقل وطأها وستشعر الجمهورية جمعا
بشدة وقعها ، وأقفلت أبواب قلوبنا في وجه الفرح فقد أصيب ديزه برصاصة عند
هجوم فرقة فات لساعته . ولم عمله المنية ان يقول للبرون الشاب الذي كان
بجانبه غير هذه العبارة . « اذهب وقل للقنصل الأول بأنني أموت متأسفاً على
عدم تمكني من اتيان ما يجعلني أحييا في الاجيال الآتية »

» ففي أثناء حياة ديزه قتل أربعة جياد تحته وأصيب بثلاثة جروح ولم
يكن قد انضم الى الجيش الا من ثلاثة أيام ، وكان يلتهب رغبة في القتال . وقال
مرتين الى ثلاث مرات في الليلة السابقة الى حجابيه « انقضى علي وقت طويل
لم أقاتل فيه في أوربا ، فلا تعرفني القذائف وسينزل بنا حادث » ولما جاؤوا في
أثناء اشتداد وطيس الحرب وأنباء القنصل الاول بوفاة ديزه لم يفه بغير هذه
العبارة . « لا يمكنني ذرف الدموع » ونقلت الجثة الى ميلانو لتحنط فيها
وبعد يومين كتب بونابرت الكتاب الآتي الى القنصلين عن مركزه العام
في طوري دي غاروفالو :

» في غد اليوم الذي نشبت فيه معركة مارنغو طلب الجنرال ميلاس من
جنودنا المحتلين المواقع الأمامية الترخيص له بانفاذ الجنرال سكال الي وقد
تقرر في النهار الاتفاق الذي تلقون بطيه نسخة عنه . ووقعه في الليل الجنرال
برتية والجنرال ميلاس . وأؤمل أن يسر الشعب الفرنسي من جيشه »
وكان من نتائج معركة مارنغو تسليم البيامنت واللمبرديا لفرنسا وأقام
القنصل الاول مدة قصيرة في ايطاليا ، فأبدى القوم في ميلانو حماسة شديدة عند
استقباله حتى أن الكهنة أنفسهم شاطروا الشعب التظاهرات الاكرامية وخطب
بونابرت كهنة المدينة بالكلام الآتي رغبة في استمالته اياهم واصابته مناصرتهم .
» يا خدام دين اعتبره ديناً لم ، أنتم من أعز أصدقائي . فأعلن لكم بأن
من يسوق أدنى اهانة لنا المشترك أو يتجرأ على ابداء أدنى اهانة

لاشخاصكم المقدسة اعتبره شغافاً وعدوا للراحة العامة وأراني مضطراً الى انزال أنكا العقوبة به حتى الموت .

« لقد حاول فلاسفة هذا العصر جهد استطاعتهم أن يقنعوا فرنسا بأن مذهب الكاثوليك عدو لدود لكل طريقة ديموقراطية ولكل حكومة جمهورية . وهذا هو السبب الذي من أجله سافت الجمهورية الفرنسية مر الاضطهاد الى الدين وخدامه ، وهذا هو السبب الذي من أجله حلت جميع الفظائع بهذا الشعب العائر الجدد . . . وأنا أيضا فيلسوف بيد أني أدري أن الانسان لا يعتبر في المجتمع الانساني ذافضيلة وعدالة ان هو جهل من أين أتى والى أين يذهب . على أن العقل البسيط لا يسمعه أن يقدم لنا في هذا الصدد أدنى مشكاة تنيرنا ، فبدون الدين يظل الانسان يخبط خبط عشواء في دياجير الجهل . والمذهب الكاثوليكي وحده يمنح الانسان نوراً حقيقياً ساطعاً يهديه الى مبدئه وغايته الاخيرة . . . »

ولا ينبغي لنا أن نعزو هذه اللهجة التي فاه بها بونابرت الى سياسة جندي طماع ، أجل انه لم يكن يكثرث للشؤون الدينية كما استدل على ذلك من سيرته في القاهرة ، الا أنه كان يقول : « ان عقلي بجملي أرتاب في كثير من الامور بيد أن التأثيرات الباقية لي من صبوتي والالهامات التي كانت تنتاب مخيلتي في حدائتي الاولى تلقيني في هذه الشك والتردد » ومع ذلك من المحقق أن بونابرت كان في عمله هذا الاخير منقاداً الى ضرورة سياسية تجعله ينادي على رؤوس الاشهاد بوجوب وجود الدين . وفي « مذكرة القديسة هيلانة » و « مذكرة نابليون » يشهد على ذلك الدكتور اوميرا وبيله دي لالوزير وطيبدوو فقد كان من جملة أقواله في هذا الموضوع : « اني لا أرى في الدين سر التجسد ولكن سر النظام الاجتماعي ، فهو ينسب الى السماء فكر المساواة الذي يحول دون فتك الفقير بالغني . . . » — « لقد شاهدنا جمهوريات وديموقراطيات خالية من الدين والعبادة والسكينة ولكن لم نجد دولا على هذه الحال . »

وبناء عليه يجب علينا أن ننسب الى هذه الجهة من النظر في المسائل الدينية استقبال بونابرت لخدام الدين في ميلانو والخطاب الذي أوردنا بعض

عباراته . وبعد استرجاع إيطاليا ببضعة أيام أسرع القنصل الاول في العودة الى فرنسا بعد ما أنشأ مجلس شورى لاعادة تنظيم جمهورية ما وراء الالب وجامعة بافيا ، وفي ٢٦ يونيو نقل جثمان دينه الى جبل القديس برنردس، وأمر باقامة أثر تاريخي في هذا المكان لذلك البطل الشاب

« وفي ٣٠ منه وصل الى ليون فأراد أن يجعل مروره في تلك المدينة مقروناً بفعل يدل على ميله الشديد الى الاصلاح ويستميل اليه عواطف السكان في تلك المدينة الصناعية العظيمة . وكان من نتيجة عمله هذا ابقاء اسمه فيها مكرماً ومحترماً . فقرر ترميم واجهة بلكور ووضع بونارت بيده الحجر الاول فيها ودخل مدينة باريس ، أي بعد خروجه منها بأقل من شهرين في ٣ يوليو دخول الظافر فاستقبله شعبها استقبالا عظيماً باهراً . وكان أول عمل باشره فيها مكافأة الجنود على إسهالهم . وكان في بدء هذه الحرب قد منح عند سفح جبل القديس برنردس لاتور دفرنيه الشجاع لقب « فارس الجمهورية الاول » وكان هذا يأبى التقدم في سلك الجندية وعند عودته من تلك البعثة القصيرة الاجل وقد أصاب فيها نصراً مبيناً جاد بعلامات شرف عديدة على كثيرين من أصحاب الاهلية .

وبينا القنصل الاول يستعيد في أيام قليلة أجمل قطعة من إيطاليا كان برون وبرنادوت قائدا حيوش الغرب يسكنان متحركات الفستن في برطانيا . وقرر الاحتفال بعيد انضمام جميع الفرنسيين ، فأصدر القنصل في ١٢ يونيو قراراً بإرجاء الاحتفال بذلك العيد الى ١٤ يوليو في حاضرة كل افليم ، وبنصب العمود الوطني في باريس بساحة فندوم ، ليتسنى للامة ان تحتفل في يوم واحد بعودة الوفاق والوئام وبذكرى نشأة الحرية . وكانوا يريدون الا ينقص تلك الحفلة شيء من الاشياء فضرب ذلك اليوم موعداً لوضع الحجرارة الاولى في الاعمدة الاقليمية والعمود الوطني على ان تنصب الاعمدة الاقليمية وذلك اكراماً لذكرى الابطال الذين بذلوا حياتهم في سبيل الدفاع عن الوطن والحرية وكان من احدى عشرة سنة قد التأم في تلك الساحة مندوبو الحرس الوطني من جميع أنحاء فرنسا للاحتفال بتذكار اليوم الرابع عشر من شهر يوليو للمرة الاولى بعد انشاء الجمهورية ، وقد استنفدوا الميسور في ذلك الحين طمعاً بأن



١٢٥

الجنرال مورو

بعد ما جاهد في سبيل الجمهورية الفرنسية اصبح خصما للجنرال بوناپرت
وقتل في درسدن وهو يحارب جيوش وطنه
ولد في مورله سنة ١٧٦٣ وتوفي في درسدن سنة ١٨١٣

بجملوا ذلك اليوم مصطبناً بصبغة سلبية . وكان لافايت يمثل الوطنية الناشئة .
 والبران الايمان المتقطعة أنفاسه . وبعد عشر سنوات حدثت في أثناءها فتن
 داخلية وانتشبت في خلالها حروب خارجية تألب في الساحة الكبرى بمدينة
 باريس العاصمة أنصار الثورة ولم يكونوا يرمون في ذلك الاجتماع الى الحلف
 بأن ينتصروا او يموتوا ، ولكنهم كانوا يتوخون ان يثبتوا جهاراً بواسطة
 مندوبي الجيش ان مندوبي الحرس الوطني اضطلموا خير اضطلاع بقسمهم وان
 فرنسا الحديثة ظفرت بأوربا القديمة .

« وأنفذ جيشا الرين وايطاليا ضباطاً آمن لذهما نشروا أمام القناصل الرايات
 المأخوذة عنوة من الاعداء وقدموها للحكومة علامة اكرام للوطن . فخطبهم
 بونايرت بالكلام الآتي :

« ان الاعلام المقدمة للحكومة أمام شعب هذه العاصمة الكبرى برهان
 سامع عن دهاء القادة الكبار مورو وماسينا وبرتيه ، ومواهب القواد الحربية
 ونوابهم وبسالة الجنود الفرنسيين . فقولوا للجنود عند عودتكم الى الجيش
 ان الشعب الفرنسي ينتظر عند احتفاله بعيد الجمهورية في أول فنديمار إما
 اعلان الصلح وإما رايات جديدة علامة انتصارات مستقبلة اذا ظل الاعداء
 يقيمون في وجهنا عقبات يمز قطعها »

وكان في هذه الخطبة الوجيزة نقطة تستوقف النظر وتستوجب الانتباه .
 فان بونايرت لم يجد له بدا من الانزواء عند اطرائه القواد والجيش . على أن
 تجاوزه عن تبين فضله جعل الشعب يقدر له هذا الامر حق قدره ، فقدم في
 الذكر اسمي القائدين اللذين بينه وبينهما خصومة ، وذكر اسمي مورو وماسينا
 قبل اسم برتيه صديقه الحميم ومستودع سره . وهذا أيضا عمل سياسي يراد
 به ابعاد كل تهمة من الناس له بأنه يحسد ذينك القائدين الشهيرين ، كما أنه أيضا
 كان يدل بذلك العمل على أنه لم يكن يمتزجها خصمين يستحقان أن يحسب لهما
 حساب وأن تتخذ التدابير لاسقاطهما . فهذه أنفة الدهاة ، اذ أن التواضع الذي
 تدعو اليه الالهجة الرسمية يشف عنها ولا يبين بمجلاء شعوره بتفوقه الا باظهاره
 للعلاء طرا أنه لا ينفى الا باظهار فضائل غيره من الناس

وختم ذلك النهار بمأدبة شائعة أدها القنصل الاول لكبار مأموري الجمهورية
وشرب فيها النخب الآتي
« أشرب نخب ١٤ يوليو والشعب الفرنسي صاحب السيادة علينا »

→...←

الفصل الثاني عشر

انشاء مجلس شورى الدولة — مؤتمر لونا فيل — عيد تأسيس الجمهورية

الدسياسة الجمهورية — المكيدة الملكية — الاداة الجهنمية

وتم توقيع القنصل الاول على مقدمات الصالح بين فرنسا والنمسا بعد
الاحتفال بعيد الجمهورية في ١٤ يوليو بمدة قصيرة . وقد أثبت هذا الامر ما كان
بونابر ت يحاهر به من الميل الى السلم في حضرة المندوبين الموفدين الى باريس
من لدن جيوش المانيا وأيطاليا

وبعد شهر من الزمان صرف بونابر ت همالة النفس الى انشاء مجلس شورى
الدولة وتسمية أعضائه . وفي ٣ سبتمبر عقد وثيقة حماية وتجارية بين فرنسا
والولايات المتحدة . وفي ٢٠ منه لما أبى الامبراطور التوقيع على مقدمات الصالح
الأنفة الذكر أبدي القنصل الاول ميلا الى عقد مؤتمر آخر في لونا فيل . وكان
الجنرال كلارك يمثل الجمهورية فيه

ولم تقل أبهة الاحتفال بعيد أول فنديمييار عن أبهة الاحتفال بعيد ١٤
يوليو ، فقد شهدته مندوبون من جميع حكومات الاقاليم . وكان ذلك اليوم
مضروباً لوضع الحجر الاول من الاثر الوطني المقررة اقامته في ساحة النصر لذكرى
ديزه وكليبر اللذين صرعهما المنية في يوم واحد الاول منهما في مارنغو بقذيفة
من قذائف الاعداء والثاني في مصر بمدينة أحد السفاحين وقد زاد في نخامة
الاحتفال بعيد تأسيس الجمهورية نقل رفات طوران الى هيكل اله الحرب بناء
على أمر القنصل والقي كارنو وزير الحرب في تلك الحفلة خطبة لم يكن أحد
أجدر منه بالقاء مثلها في اطراء ذلك الجندي الخالد الذكر الذي تكرم فرنسا

رفاته . فكان الوطني الجمهوري العظيم يسهب في وصف العلوم الحربية والدهاء المقرون بالتواضع والفضائل العامة والخاصة للممتاز بها ذلك القائد الملوكي الكبير . وكان كارنو نفسه متحلياً بتلك المزايا النبيلة وقد وقفها على خدمة وطنه . وأضاف كارنو الى اسمي ديزه وكليبر اسم لاتوردوفرنيه المشهور بشجاعته وعلمه ، وكان هذا الجندي الهام قد اختبره الحما في ألمانيا فانقرضت بوفاته سلالة القائد الداهية الذي وفاه كارنو جقه من النأين . وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً احتشد فيه جميع الفرنسيين المفازين بذلك الاسم العظيم في ظل حكومة أسندت وزارة الحربية الى مثل كارنو والزعامة الى مثل بونايرت

وزاد افتتاح مجلس الشيوخ الدائم الانعقاد في سان سير نخامة الاحتفال بالعيد الثامن لافتتاح العصر الجمهوري

الا أنه مع ما كان يحف من الابهة بتلك الاعياد الوطنية ومع ما كان يبذل القنصل الاول من الجهد لئلا يدخل الخشية على الوطنيين المرتابين في نوع ما يخبئه من الافكار المبهمة ، وطريقة استيلائه على السلطة ، والحركات التي كان يجريها مما يدل على نفاذ صبره لهدم صرح الانظمة الجمهورية هب بعض اشياح الحكومة الجديدة المغالين في تعزيز مبادئها وحرشوا بعض المتعصبين على الفتك بذلك الرجل الذي لم يكن في نظرهم سوى محتلس وطاغية . وكان من جملة اولئك الافراد ايرنا النائب السابق وجيراخي النجات وطوبينو لبرون تلميذ داود المصور ودامرفيل . وقد شاءت الاقدار أن يستفيد رجل يقال له هارل من بغضائهم لبونايرت ، فجرحهم الى تدبير مكيدة لاغتياله ثم أنه خانهم قابلاً لهم ظهر المجن وكشف لادارة الشحنة مخبآت أسرارهم . فنجى القنصل الاول من شرهم ، ولم يشأ أن يتخلف عن الحضور في ملعب التمثيل ليشهد رواية فائقة العادة . وكان المتآمرون قد صمموا على الفتك به في خلال التمثيل

وكان حزب البوريون الشديد الاستمسك بغرز مبادئه قد أخفق في ما دبره بعد ما لمعت له بارقة أمل الاعتماد على بونايرت والتعويل عليه في ارجاع السلالة البوربونية الى عرش فرنسا . وحينئذ صمد الى تدبير مكيدة للبطش بالقنصل الاول . فأتحد الاجانب والمهاجرون ومريدو الملكية وتحالفوا على ادراك أوطارهم ، وقد كان من نتيجة اتحادهم وتحالفهم انفجار تلك الآلة الجهمية .

وتحرير الخبر ان القنصل الاول كان منطلقاً في ٣ نيفوز الى ملعب التمثيل ومعه لان وبرتيه ولوريستن . فبينما هومار في شارع القديس نيكاز سمع انفجار برميل من البارود كانت موضوعاً على مركبة . فلو كان بونا بورت قد تأخر عشر دقائق عن المرور في ذلك المكان لكان قد هلك ولا محالة هو وجميع بطانته . إلا أن بمن طالع دبر أن يكون حوذي مركبته سكران وأن يلهب الجوادين بحمة سوطه خلافاً لما لوف حادثه ، فكان عمله هذا واقعاً لذلك الرجل العظيم من فائقة الردى ، إذ أنه لو كان قد هلك ذلك الداهية لكان مصرعه قد غير ولا مراء وجه الاحوال في فرنسا خصوصاً وفي أوروبا عموماً . ولما سمع القنصل الاول دوي ذلك الانفجار الهائل صاح بلاء فيه قائلاً : « لقد نسفنا » . فألح عليه لان وبرتيه بالعودة الى التويلري ، فقال لهم بغير تردد : « لا . لا . بل نذهب الى الملعب » ولما انتهى الى الملعب جلس على الكرسي المعد له في صدر الردهة وأبدى من السكينة ما أدهش جميع الحاضرين كأنه لم يحدث له شيء إلا أن مراحل القلق والاضطراب كانت تغلي في صدره وقد طالج كتبها بكل ما يستطيعه من الجهد . وبعد ما قضى في الملعب هنية من الزمان أسرع في العودة الى التويلري حيث كان جمهور غفير من كبار القوم وأصحاب الكلمة المسموعة في ذلك العصر قد جاؤوا ليقفوا بذواتهم على ما جرى ويراوا ما كان منتظراً حدوثه . ولم يكذبونا بورت يصل الى القصر حتى فار فائره وهاج هائج وصاح بصوت كالرعد القاصف « أنظروا الى عمل اليعقوبيين ، فاليعقوبيون قد تعمدوا قتلي . فليس تمت نبلاء ولا كهنة ولا متحزبون للملكية . . . وأنا أدري الطريق الواجب علي انتهاجه . فهؤلاء هم سفاحون وقتلة اتخذوا ديدنهم المجاهرة بمناوأة جميع الحكومات ، وهؤلاء هم صنائع ومصورون وذوو تصور شديد الاحتماد ، وذوو تفوق في العلم على الشعب ونفوذ تام عليه ، وهؤلاء هم سفاحو فرسايل ولصوص ٣١ مايو ومؤتمرو براريل واصل جميع الجرائم المرتكبة ضد الحكومة فاذا لم يتيسر غل أيديهم وجب تمفية آثارهم ، والضرورة تقضي تطهير فرنسا من هذه الخثالة المنبوذة . فهل يستحق الشفقة مثل هؤلاء السفاحين ؟ . . . »

وقد كررت على التقريب هذه الكلمات المقرون فيها الخلق الى الاتهام في

جواب وجهه القنصل الاول الى وفد أفليم السين . ومما يستوجب الاسف انها تلاها تعذيب المتهمين الذين أسلمهم هارل الى رجال الشحنة ونفي مئة وثلاثين وطنياً جعلتهم شدة وطنيتهم ومحافظتهم على مبادئهم منظوراً اليهم بعين الريبة وصيرتهم موضوعاً للظنة . وكان فوشه ناظر الشحنة يبتغي ان يبرر نفسه من تقصيره عن اكتشاف المكيدة واحباط مساعي أصحابها . فبالغ في التمثيل بالمتهمين ورافت القنصل الاول التنايير التي اقترح عليه اتخاذها . وكان فوشه يحمره من عهد بعيد على الجمهوريين مسوداً صحيفتهم في عينيه . ودبرت أمور يصعب حل عقدها لم يكونوا يقفون بموجبها عند حد اصدار الاحكام العرفية بحق جماعة من الارباء بل تعمداً سوق الخسيفة والصنارة اليهم بضمهم أسماء طالوت ودستريم ولبلتية وسان فرجو وغيرهم من كرام القوم الى أسماء بعض الطغام الأجورين . وأطلقوا عليهم لقب « سبتمبرين » تحقيراً لهم ليسهل عليهم تشويه وجه صيتهم . ومعاملتهم معاملة الجناة . وبعد شهر من الزمان استعان ان المكيدة كانت من تدبير الملكيين ، وثبت ان اثنين من الحزب الملكي يقال لهما كرون وسان ريمان كانا صاحبي المكيدة المذكورة فحكم عليهما بالاعدام وأحري ذلك الحكم بحقهما . ان معاقبة المجرمين الحقيقيين لم تلغ القرار الذي اتخذته الحكومة ساعة الخلق بحق الديموقراطيين الارباء الذين أوشكوا في أثناء مرورهم بنانت ان يذهبوا فريسة لسخط الشعب

ولم يكن لمعاملة الحكومة للديموقراطيين على هذه الصورة من معاكسين لان الرأي العام كان ميالاً الى بونايرت . فأبدى الامبراطور منه بعض ملاحظات للدفاع عن ذمار الحزب المعتصم هو باهداب مبادئه ، وشكا من الفساد المتطرق الى الروح العام من تلك المنشورات المزينة ارجاع الملكية والحكومة الوردية . وكان في كلامه هذا تلميح الى النشرة المعنونة « مقابلة بين قيصر وكرمول وبونايرت » والمنشرة بإيعاز من وزير الداخلية والمراد بها سبر استعدادات لشعب الفرنسي في ما يتعلق بالفتنة التي كان بونايرت يفكر في اضرام موقدها

الفصل الثالث عشر

انشاء محاكم استثنائية — الاشغال العامة — وثيقة لونايفيل — تقدم العلوم والصناعة — عقد الصلح مع اسبانيا و نابولي وبارما — عقد وثيقة مع البابا (كونكردا) — صلح اميان — صلاة الشكر في نوتردام

لما كانت الكتابات المعدة لهيئة الافكار لمباشرة تغيير جديد في شكل الحكومة قد نبذت نبذ النواة ولم تحمل لدى القوم في المحل الذي تقتضيه منزلة القنصل الاول عندهم ، وكانت هيئة الافكار والانظمة الثورية قد سقطت ، بادبروا الى التوحيه على الناس بكتمان حقيقة أصلها وفصلها ، وألهمهم السداد ان يرحلوا الى فرنسا أخرى وضع المقاصد التي كانوا يتوخونها موضع الاجراء . الا ان الآلة الجهنمية مهدت في وجههم السبيل لانشاء محاكم خاصة لها اختصاصات استثنائية ، فأصبحت المحاكم آلات سريعة الفعل للسلطة المطلقة التي كان القنصل الاول يزاولها ، زاوله فعلية في فرنسا . وأثار هذا النظام الهائل المعارضة الشديدة من رتبته في مجلس النواب على أيدي بنيامين كستمان ودونو وجنغه وشنيه واسنار وغيرهم . وارتفعت في مجلس الشيوخ أصوات لمبرخت ولنجوينه وغارات ولنوار لاروش باقامة النكير على ذلك الامر بيد أن أنصار الحرية العامة كانوا يؤلفون الاقلية فيه ، وما عتمت رغائب القنصل الاول أن أصبحت شريعة .

وكانوا في كل يوم ينظرون الى جانب تلك الحركة الرجعية أعمالا صادرة عن الداهية المكتوب له أن يبلغ بمجد فرنسا وسطوتها الى أعلى ذراها . فألشت الطرق واحتفرت الترع في كل ناحية ، وأزهرت الفنون الجميلة ، وعضدت الاكتشافات العلمية ، وفتحت للتجارة والصناعة أبواب كانت مبهولة حتى ذاك العهد .

وفي ١٧ يناير سنة ١٨٠١ صدر الامر باعادة الشركة الافريقية ، فكان القنصل الاول يتنقل بالفكر من جبال الاطلس الى جبال الالب مهتما بشؤون الحضارة

— ١٩٣ —

عند الشعوب البربرية اهتمامها عند الشعوب العربية في المدنية والعمران ، وفي الميرم عينه أصدر أمراً الى الجنرال طارو بأن يرأس الحفلة المقامة لافتتاح طريق ممبلون الجميلة .

وفي ٩ فبراير تم التوقيع على وثيقة الصلح في لونا فيل بين فرنسا والدول الأوروبية ، فاعتنم بونابرت الفرصة باتهام الوزارة البريطانية بأنها حجر عثرة في سبيل السلام العام . وقد قال في رسالته الموجهة الى الهيئة التشريعية والى مجلس النواب . « لماذا لا تكون هذه الوثيقة وثيقة للسلام العام ، فهذه هي الأمنية التي تحلم بها فرنسا وهي الغاية الوحيدة التي ترمي اليها الحكومة ، الا أن جميع ما بذلته من الجهود لادراك هذه الضالة المنشودة ذهب على غير طائل ، ولا يخفى على أوروبا شيء مما عالت الوزارة البريطانية اتيانه لاحتباط مفاوضات لونا فيل » ولما أجاب فيما بعد على التهانئ التي رفعها اليه مجلس الشراع ثم بما يكنه ضميره من المقاصد الكبيرة لاقامة الحصار العظيم حول الديار البريطانية فقال : « ان دول القارة مقتنعات باجبار بريطانيا على المسير في طريق الاعتدال والنزاهة والتعقل »

وسر القنصل الاول بعودة السلام الداخلي الذي تقدم السلام الخارجي ، وباح بابتهاجه مما شاهده من الاتحاد والاتفاق في الاقاليم التي تفقد شؤونها ، فقال : « وعليه لا ينبغي أن تعلق أدنى أهمية على الخطب الخالية من المعنى التي يخطبها بعض الناس » وكان يلح في قوله هذا الى الخطب التي خطبت بكل جرأة في مجلس النواب عند انشاء المحاكم الاستثنائية . ومن ذلك الحين صار هذا المجلس معتبراً الملجأ الوحيد للروح الجمهوري ، فقضت الضرورة بضربه ضربة قاضية وذلك بابعاد أعضائه في بدء الامر ثم بالغائه الغاء نهائياً . وتلا وثيقة لونا فيل المنعقدة مع حكومة النمسا واثائق أخرى أبرمت أسبابها بين فرنسا و نابولي ومديرد وبارما . وفي خلال ذلك الحين أنشأ بونابرت أقاليم روار ولاسار والرين وموزل ومون طونير . ولما كانت الحال تقضي بأن يسير توسيع الجمهورية وتسكين الفتن فيها مع عمرانها المادي جنباً الى جنب ، وضعت شريعة تحول القنصل الاول تخصيص جوائز للتجارة . فأمر بأن

يقام في كل سنة من ١٧ سبتمبر الى ٢٢ منه معرض عام لنتاج الصناعة الفرنسية .

ولما سقط عنه النظر في أمر دول القارة ووفق الى عزل بريطانيا ولو في الظاهر بحسب الطريقة الجديدة التي رسمتها الثورة الظفيرة للسياسة الاوربية ، بنى قصوراً شاهقة من الآمال على أساس الصداقة الشخصية التي كانت أسبابها تربطه بالقيصر بولس الاول ، الا أن مصرع هذا العاهل في الليل الذي بين ٢٣ مارس و ٢٤ منه هدم جميع تلك الآمال . ولما انتهى اليه النبأ حزّن حزناً شديداً وكتب في المونيتور ما يأتي .

« في الليل الذي بين ٢٣ مارس و ٢٤ منه قضى بولس الاول ، وفي ٣٠ منه اجتاز الاسطول البريطاني مضيق السند ، وسيرينا التاريخ ما بين هذين الحادتين من العلاقات »

وهذه المرة الثانية التي شاهد فيها بونابرت الحوادث تهدم ما بناه من المصايد الكبيرة للقضاء على الدولة البريطانية في الهند ولم يكن القنصل الاول يكتفي بالانتصار على اوربا ، وتسكين متحركات الفن في فرنسا ، واحياء موات التجارة والصناعة ، والعمل لتقدم الفنون والعلوم ، بل كان يشعر وهو يعمل هذه الاعمال المحيطة الجسيمة والانشآت المفيدة العظيمة بان خطة تنظيماته لاتزال ناقصة وأنه يعوزها شيء وهو افراز محل خاص للدين اجل أنه لم يكن حتى ذلك الحين قد فعل شيئاً يدل على جهله له او احتقاره اياه ولكنه لم يكن قد نظم شيئاً لاجله لا في الوثائق ولا في الشرائع . على أنه اذا كان رجال الدين قد نالوا قسطهم من عوارف القنصل الاول فان موقفهم الجديد مع كونه محفوفاً بالكرامة بفضل بونابرت لم يكن مبنيًا على قاعدة ثابتة . فشاء القنصل الاول ان يجعله راسخاً على أركان شرعية ، فباشر المفاوضات في هذا الشأن مع رومية ، وعقد مع البابا بيوس السابع وثيقة عرفت باسم الكونكردا . وكان الفلاسفة خلطاًؤه قد راقهم فتنة برومير لتوطيد دعام حظهم الفجائي فرفعوا عقائريهم متذمرين من ذلك الارتجاع الديني ، وكانوا يتمنون من صميم القواد أن يعلن بونابرت ذاته زعيماً للدين الفرنسي وأن يقطع العلاقات قطعاً تاماً مع الكرسي الرسولي . الا أن القنصل الاول



الاميرال برويكس قائد اسطول حملة مصر
ولد في سنة ١٥٧٩ وتوفي في سنة ١٨٠٥

كان ينظر بغير المقلّة التي كانوا ينظرون بها الى مقتضيات الدين عند الاكثرية ، وكان يخشى أن يحرج عواطف السواد الاعظم من الامة بتلك القضية الدقيقة

وفي أثناء الثورة وفي عهد الحكومة المبنية على الفلسفة والمناوأة للجبل وللدبركتوار شعر بعض الناس بالتراغ الذي تركه زوال الدين في البلاد ، مع أنهم كانوا يمالجون أن يجعلوا القوم يستعوضون عنه بطرق متنوعة كإقامتهم الاعياد للسكان الاسمي ، والاعتقاد بالله دون الاضطراب الى مزاوله شعائر الدين . وكان روبسبيار يقول : « ان من يستطيع استبدال الالهية : بـها في العالم أعده آية في الدهاء ، وأما الذي يسعى لنسخها من أفكار الناس من دون أن يستبدل بها شيئاً آخر فاني أعتبره آية في البلاءه وفساد الاخلاق »

وبعد بضع سنوات نهض رجل من أصحاب الادمغة المفكرة وذوي العقول السامية وهو ديميستر وجعل وهو في المنى يندب تراخي الاربطة الاجتماعية ووهن المبادئ الادبسية وتقلقل السلطات غير المبنية على قواعد ثابتة ، وعزا الاضطراب العام الى فقدان الدين وجعل ينادي بأنه في مثل هذا المشهد المؤلم لا يجدر بكل فيلسوف حقيقي أن يتخير مذهباً من هذين المذهبين :

« اما أن يحدد شباب الدين المسيحي على وجه غير عادي واما أن ينشأ دين جديد »

ولابد من القول بأن بونابرت مع ما كان موصوفاً به من الدهاء لم ير الخيار بين امرين : البادي بطريقة معجلة والمبسوط من المفكر المسيحي لكل فيلسوف حقيقي . وكان يقوم في وجدانه ان المعتقدات الدينية المختلفة عند الشعوب لم تكن سوى وساوس قدسها الزمان وتصورات خامرت عقول البشر في بدء امرهم ، وقد ناصبها العقل عداء مستمرا لوقوفها حجر عثرة في طريقه ، ولكنها عند دنوها من زمان الهرم اصبحت تداري صاحب الامر والنهي الاكبر . وكان يقول عن الدين المسيحي مع اطلاقه عليه اسم الدين الحقيقي بان « التعليم والتاريخ عدوان لدودان له »

وكان هذا الكلام بمثابة حكم على الجبار الالهي الذي ظل مدة خمسة عشر

قرنا مستودعا للعلم ومعلماً للعقل البشري ليس بصورة تأثيره على التمدن في عهد عظمته فقط بل بصورة مناظرته للعلم والعقل في عهد انحطاطه . فان بونابرت بجمله التعليم والتاريخ يعارضان الدين المسيحي على هذه الصورة من غير ما يميز بين الزمان والمكان ذهل عن العلاقة الشديدة الاحكام بين الدين والعلم وبين الدين والسياسة عند نشأة الهيئات الاجتماعية الحديثة في الصراع الناشئ بين المعتقدات المسيحية والاخلاق الدالة على المروءة والتقاليد الداعية الى النفور في العالم الوثني والواسوس المسيحية المنتشرة بين الشعوب المتسكعة في ظلمات الوثنية . وقد اشتهر في تلك العصور بولس واكليجنزوس وأوغسطينوس وايريميوس وبرنردس وهيلدبرندس وشارلمان والفرد وأمثالهم

وكان دهاء بونابرت مي بالحدود وقتياً على مثال ما كان يجري في غالب الاحيان هو ميروس حتى أنه جاهر بوجود تناقض دائم بين معتقدات الدين المسيحي والمذاهب الفلسفية ولم يكتف باسكاره مناصرة رجال الدين في ماضي الحين لا تساع دوائر الشؤون العقلية وكال الهيئات الاجتماعية السياسي بل تطرق الى انكار قابلية العقل البشري لادراك الكمال في الامور الدينية . وهذا ما كان يعبر عنه بهذه الصورة المبتذلة حينما كان يقول « من المقضي على كل انسان أن يظل على الدين الذي تربى فيه أي دين أبائه ، وألا ينشئ ديناً جديداً »

واذا كان بونابرت قد اعتقد بما يكون للدين من التأثير الاجتماعي في المستقبل فمن الممكن أن يكون قد افترى بأن هذا الدين لا يمكنه أن يكون بعد ثلاثة قرون انقضت بالمجادلات والشكوك الفلسفية بعد ما كون وديكارت وفلتيرو وروسو على ما كان عليه في القرون المتوسطة وكان يتسنى له أن يضيف الى مهمته كفائح ومشرع وثوري سياسي مهمة المصلح الديني ، وقد أدرك ضرورة الاختيار الذي كان دي مستر يقترح اخضاع الفلاسفة له ، وكان بتجريكه عوامل دهائه في الشؤون الدينية قد ساعد على تجديد شباب الدين المسيحي ودعا الناس الى مباشرة ذلك التجديد ، أو انشاء معتقد جديد بحسب ما يتقرر بخصوص مذهب من هذين المذهبين كجريه على المنهاج الذي انتهجه لامنه فيما بعد أو كسيره على السبيل التي عالج المسير عليها أصحاب بدع جديدة استوجبت جرأتهم اطراء كبار الشعراء في فرنسا كبرانجه ولامارتين وغيرها . الا أن بونابرت المعتقد باله واحد

والخاص دينه باعتقاد مجرد لم يكن يرى كفيلسوف في الديانات الوضعية سوى أعداء دائمين يمارضون العقل والعلم ، وكسياسي سوى وسائل مؤثرة بالشعب أو موانع معترضة للسلطة بحسب نوع علاقتها بالحكومة . ولما كان بونايرت يرى أ كثرية الشعب الفرنسي متعلقة بالمذهب الكاثوليكي ويناجي نفسه بأن هذا التعلق ناجم عن المبدأ المعتصم هو به وهو أن كل إنسان ينبغي له أن يعيش ويموت على دين آباءه لم يلق مندوحة عن الاتفاق مع الكرسي الرسولي على تنظيم مصالح المذهب الكاثوليكي ، وأبدى رغبته في إعادة ماضي بهاء الكنيسة وخدامها ، ورضي بتخيم آرائه الشخصية وعدم اكترائه للدين وجحوده تحت ظواهر دين رسمي فلم يبال بتهم حاشيته وكان جميع أفرادها من تلامذة فلتير ، وأمر باقامة صلاة الشكر في نوتردام لما عقدت الوثيقة مع البابا وأبرمت أسباب الصلح مع بريطانيا في اميان ، وقد شهد هذه الحفلة الدينية جميع مشاهير الرجال في ذلك العهد . ولما عرف لان واوجرو وهما في حاشية القناصل أنهم ذاهبون بهما الى الكنيسة لاقامة الصلاة هما بالرجوع ، الا أن بونايرت أمرهما بالبقاء . وفي الغد أراد أن يمزح مع اووجرو فسأله بسوء نية عن رأيه في الحفلة الآتفة الذكرفأجابه هذا الجندي الجريء الذي اشتهر في اركول ولودي بابلائه بالاعداء « وجدتكم بالغة غاية التألق ، ولم يكن ينقصها سوى مليون من البشر بذلوا مهجهم لهدم ما نحن الآن عاملون على ترميمه . »

وكان في ذلك الجواب المرمبالغة شديدة ، فان المليون من البشر لم يسفكوا دماءهم للاشاة الدين بل للحيلولة دون عودة خدام الدين الى الاعتساف والجنوح عن الطريقة المثلى واعادة العصور واعفاء رجال الدين من الضرائب وغير ذلك من الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها ولم ترجع الوثيقة المنعقدة بين الحكومة الفرنسية والكرسي الرسولي شيئا من هذه الأشياء . أجل ان الناس كانوا يتوهمون أن الفتنة الكبرى يراد بها نسخ الدين المسيحي ليستبدل به الدين العقلي ، فهذا ما كان يجب أن تزال آثاره من الازهان . ولم يكن الغرض من الثورة الاقتصار على تقليص ظل الجور والاستبداد ، وضمان ظفر حزب بحزب آخر ، وتحرير الارقاء لاستعباد الموالي ، وايجاد أسباب للفلسفة تناوىء التساهل الديني وتثير الشكوك في العالم من جراء تمادي القوم في الخلاعات والمنكرات

التي لا نهاية ولا حد لها ، بل كان المراد بها أن يبين للعالم طرأاً ان الغرض منها كان خدمة الهيئة الاجتماعية جمعا ، وأن النظام الجديد الذي سنته كان من شأنه أن يقي كل فرد من أفراد الامة من غير تمييز بين طبقاتهم وآرائهم ومعتقداتهم ، وأن ألويتها كانت منشورة فوق التقاليد الجديرة باحترام الشعب لها ، ومظلة جميع المصالح المادية والادبية التي لا تناقض مبادئها . على ان ما أظهرته من العنف والشدة نحو خدام الدين حين شاءت حرمانهم قسما كبيرا من الامتيازات الاجتماعية التي كانوا قد أصابوها من أصحاب طرائق الحكم القديمة أو أن تعتمد بحكم الضرورة الى ترويض جماعهم كان يقضي عليها في الاونة الاخيرة بأن تبرهن بأنها لم تأت ما أتته من العنف إلا لنسخ الامتيازات الفاضحة التي كان خدام الدين قد نالوها ، اذ أنه ولو كانت تلك المعاملة العنيفة قد فضت باقتال المعابد وافراط رسل العقل وتحويل الهياكل الى منتهديات في أثناء بقاء الثورة ناشرة أعلامها فلم يكن لهذه الثورة الظافرة بد عند عودة السلام والوثام من المجاهرة بأن مجاهدتها للدين وخدامه لم تكن سوى عرضية وضرورية ، وانه لم يكن من تنافر بينها وبين ديانة معظم الامة ، وانها لم تكن معتصمة بأواخي الكفر كما كانوا يتهمونها بل كانت بقطع النظر عن ميلها الى التساهل ميالة الى مزاوله الاعتقادات التي مضى على وجودها عهد طويل ، يستبدل بها اعتقادات جديدة عند الشعب المحتاج الى غير المذهب السفطي ومذهب الاعتقاد بمناجاة الله والارواح في الشؤون الدينية . هذه هي الغاية المهمة الضرورية التي رمت اليها الثورة بمعاطاتها المفاوضات مع رومية واشهرها الوثيقة المعروفة باسم الكونكردا وبذهابها الى الكنيسة لحضور القداس باحتفال عظيم قام به أعظم فرد من أبنائها وأشهر ترجمان عن عواطفها . واذا كانت الحزب المعاكس للثورة قد كبر للفوز الوهمي الذي أصابه فانه قد ركب مركب الخطأ . وحين وجد هنري الرابع أن مدينة باريس تساوي « قداسا » ورضي بأن يعترف جهاراً بالمذهب الكاثوليكي لم يكن عمله هذا المراد به تجريد خصومه من السلاح الذي كان في أيديهم لمناصبته سوى مبدد لحزب التحالف . وقال نابوليون في مذكراته : « كانت وثيقة (كونكردا) سنة ١٨٠١ ضرورة للدين والجمهورية والحكومة . . . فقد محت الاضطراب ونسخت

وساوس جميع المستولين على أموال الامة وقطعت آخر سلك ترتبط به السلالة القديمة بالبلاد . . . »

وحدث انه قال في مؤتمر تقدم هذا العمل « لو لم يكن البابا موجوداً لوجب ايجاده لمثل هذه الحال على مثال ما كان الرومانيون يوجدون حاكماً مطلقاً في الظروف الحرجة »

ولما سالم بونابرت البابا بوة أراد أن يثبت انه يتوخى دوام هذه المسالمة بإنشائه ممالك جديدة في البلاد الايطالية التي كان قد نوى أن يكثر من انشاء الجمهوريات فيها . فجعل تسكانيا مملكة صغيرة وانتخب لادارة شؤنها غلاماً باريماً كانوا قد انتزعوا منه بلاده وضموها الى المبرديا . وزار هذا الامير الحامل لقب « ملك اتوريا » عاصمة البلاد الفرنسية متنكراً تحت اسم كونت ليفورني ، فاقبعت له احتفالات شائقة أعيد اليها بهاء الارستوقراطية السابق ، الا ان الاحتفاء العظيم الذي استقبلوا به هذا الملك لم يكن ليموه على القوم نحوه . ولما أبدى بعضهم لبونابرت دهشهم من ترفيع هذا الرجل الحقير الى ذلك المقام السامي أجابهم : « ان السياسة اقتضت هذا الامر ، وفضلاً عن ذلك ليس بضائر أن ترى الشبيبة التي لم تربعينيها الملوك من هم الملوك »

أو لا يستنتج من قوله هذا ومن المقاصد الخبئة وراءه ترميم صرح الملكية المتداعي أنه كان يرمي دائماً في جميع أفكاره وأقواله الى غاية ثورية ؟ واذا كانت الجمعية الاشتراكية والكفنفسيون قد ضربا الملكية بشخص الملك ، فقد كان هو منتدباً لاستئناف عملهما وازالة الابهة الواقية الملكية بصنعه ملوكاً على مثال ملك اتوريا . . .

واذا كان القنصل الاول قد خبأ وراء الاحتفاء الشديد بضيفه الملك احتة رآه كان يشعر به نحو ذلك الرجل الذي ملكه على اتوريا ، فانه من جهة أخرى قلل الاحتفاء والرسيمات ، وبالغ في الاهتمام الحقيقي باستقباله ضيفاً جاءه زائراً من ضفاف التاميز ، ولم يكن هذا الضيف شخصاً ملكياً لا يعبأ به خبأ وراء ستار مقامه وهرجة البلاط سخافة عقله وحقارة نفسه بل كان رجلاً من أصحاب الادمغة الكبيرة والنفوس النبيلة والهمم العالية ، حتى قال عنه نابوليون نفسه

« ان قلبه يضرم نار دهائه ، واما بت فان دهاءه يجفف قلبه » وكان ذلك الرجل يقال له فكس

وبذل بونايرت لذلك الداهية كثيراً من الود والاحترام ، وقد قال في مذكراته « كان يدفعني في غالب الاحيان الى استقباله ما كان قد بلغني عن معو مداركه ، وما عمت أن وجدت فيه نفساً كريمة وقلباً جيداً ونظراً بعيداً ينبىء عن نبالة أخلاقه وحرية أفكاره ، وقصارى الكلام وجدت رجلاً تزدان بمثله الانسانية . فاحبته وكنا نتحدث كثيراً نابذين الاوهام وراء ظهورنا ، ونحوض في مجال موضوعات عديدة فيحسن رجال الحكومات أن يتخذوا فكس مثالا ينسجون على منواله ولسوف تسود مبادئه العالم عاجلاً أو آجلاً . »

وشاطر جميع الفرنسيين القنصل الاول الميل الى فكس فاستقبلوه في جميع المدن التي مر بها استقبالا يليق بالظافر ، وأقاموا الاحتفالات اكراماً له واحتفوا به كل الاحتفاء في جميع الاماكن التي عرفوه فيها

على ان مجالي الاحترام التي أبدتها الثورة الفرنسية لفكس أبدت عينها في بريطانيا بعد سبع وثلاثين سنة من ذلك العهد لجندي من بقايا جنود نابوليون فان مبادئ فكس وما كنتش التي لقيت صدها في فرنسا سنة ١٨٠١ لقيت رجع ذلك الصدى في بريطانيا في سنة ١٨٣٨



الفصل الرابع عشر

من مخالفة اميان (٢٥ مارس سنة ١٨٠٢) حتى انقطاع علاقات فرنسا
مع بريطانيا (٢٢ مايو سنة ١٨٠٣)

ان الفراغ الذي تركته الثورة الفرنسية الكبرى في الطريقة الاوربية القديمة لم تسد ثلثته ، بل كان بعكس ذلك يزداد امتداداً في الانحاء الشمالية والجهات الشرقية بواسطة الفتوح الفرنسية في المانيا وايطاليا ، وقد ضاعف اطلاق خواطر الحكومات الاجنبية . الا أن نفاد الموارد المالية ، وملل الشعوب ، والاضطرار الى ضم متفرق النشر في تلك النكبات الناجمة عن المعارك العديدة التي رفر فوقيهم فيها غراب البلاء ، والمسببة عن الخوف من خطوط جديدة ، والمتسلسلة عن الوسوس المثيرة الاعتقاد بتفوق الجمهورية وزعيمها ، دعت أوروبا المسيحية والنبلاء الى الخضوع لسطوة فرنسا المنبثقة من تلك الفتنة الكبرى . ومن ذلك الحين أصبح الشعب الحر الذي جاهدته مدة طويلة الامم المستعبدة ، واعتبرته كافراً ، وعادته قاتلاً للملوك ، مسالماً للباباوية والملكية من دون أن يفقد شيئاً من مبادئه أو أعماله نحو البابا أو نحو الملوك

ما كان أهمي الموقف الذي أصابته الجمهورية الفرنسية ا فانها بعد ماتحملت بكل بسالة في مدة عشر سنوات أعباء حرب طويلة الاجل متلفة للمهج والارواح سعيًا وراء التملص من ربة استبداد ذوي الامتيازات بلغت أوج العظمة والسؤدد بتمتعها بحسنات المساواة ، واستطاعت أن تبهر أنظار العالم بغرائب السلم كما استطاعت أن تبهرها بعجائب الحرب . واذا كانت جيوشها تتألف من أشجع الجنود وأمرالقواد في ذلك العصر فان خطط ادارتها الاخرى كان يتقدمها أدهى الرجال الخبيرين بادارة الشؤون . وكان في دوائرها السياسية نخبة الخطباء والكتاب ، وكانت ندوتها العلمية تفضل جميع الندوات التي من هذا النوع ، وكان علماءها يتولون الرعامة في الاكتشافات التي باشروها ، وكان لعلماء الادب والشعراء والمصورين والنحاتين فيها المقام الاول بين رصفائهم في جميع انحاء المعمورة ، وراجت سوق تجارتها وصناعاتها . وانفتحت الطرق

في وجهها في مدة قصيرة وبذيت الجسورة واحتفرت الترع العديدة ، وبسط في أروقة اللوفر نتائج التجارة والزراعة الناشئتين في فرنسا الحديثة ، وكسف بهاؤها بدرأهة المملوكية القديمة ، وتمكنت الناشئة من الظهور بمظهر جليل يليق بذلك العصر بدخولها المدارس المشيدة لكل صنف من أصناف الامة وكل فرع من فروع التعليم بأموال الشعب ، وطفحت متاحفها ومكاتبها بما كانت تغنمه في غزواتها وبعثاتها وانتصاراتها ، وكان من جملة ما جاءت به الى باريس زهرة مديسيس وبالاس فلييتري . على أن اسمها الذي كان يدخل الخوف على الملوك أصبح عند الشعوب مكرماً ومعجباً به . وعليه يمكن القول أن الجمهورية أصبحت في ذلك العهد حاصلة على مجد حربي ومجد سياسي ومجد أدبي ومجد علمي ، وعززت شأن العمران بواسطة السلاح والعلم والفنون والصناعة ، وظفرت بالسكينة التامة في الداخل والسلام العام في الخارج ، وكل ذلك نالته على يد بونايرت زعيمها . هذه كانت حالة الجمهورية الفرنسية بعد صاح اميان . ولم يكن ينقص عظمة فرنسا وعمرانها شيء من الأشياء ، الا ان حالة الاتبال هذه التي كانت تثير في فؤاد أوروبا كلها عاطفة الحسد لفرنسا كانت تلقي في نفوس الدستوريين أسباباً للتقلب لا تستطاع ملاقاتها . وكان الجميع يعتقدون بأن النصر الذي أوتيته الجمهورية والسلام الذي نالته والسطوة التي أصابتها والعظمة التي أدركتها كان الفضل في القسم الأكبر منها عائداً الى الداهية الذي ساقته العناية الالهية للأخذ بنصر الثورة ، وكان الجميع أيضاً يعتقدون ان دوام تينك السطوة والعظمة مرتبط بدهاء ذلك الرجل الذي كان سبباً لوجودها . فهل كان يحسن والحالة هذه ان يبعد ذلك الداهية عن ادارة حكومة البلاد وتسلب منه المهمة الالهية المفوضة اليه ، وذلك بقيام بعض أصحاب الدسائس المتسترين وراء الدستور ؟ وهل يعقل أيضاً بأن يفترض أن ذلك الذي برز على سواه بخدمة الصادقة الجليلة ومجده الأثيل وذكائه الرائع وارادته القوية وبجميع الصفات الممتاز بها رجال الحرب ورجال الحكومة يضطر الى شغل المحل الثاني بداعي النظام أو القانون ؟ وقد توهم مجاس الشيوخ انه فعل ما يجب عليه أن يفعله حين سمي بونايرت قنصلاً لمدة عشر سنوات اجابة لرغبة مجلس الامة الذي كان يشاء أن يكافئ بونايرت مكافأة باهرة عن الخدم التي أداها للبلاد . الا ان

تمديد أجل ولاية بونابرت على هذه الصورة لم يكن ينسخ من الازدهان ان مدة ولايته وقتية ، وكان يرجى محاذير ومخاطر لم يكن بد من تجنبها ودفعها . فان رجلا كبونابرت في الموقف الذي أوصل فرنسا اليه وفي الموقف الذي أوصلته هي اليه كان مقضياً عليه بعد عشر سنوات أو بعد خمس سنوات أن يصبح فرداً من أفراد الناس أو أن يصير مرؤوساً بعد ما كان رئيساً . ولم يكن يحول دون تربيته في دست الزعامة في فرنسا الا انفصاله عنها اما بالنفي واما بالموت . وقد أدرك هو وفرنسا هذا الامر لانه لما لم يرعه تقرير مجلس الشيوخ القاضي بمجمله قنصلاً مدة عشر سنوات عمد الى مخاطبة الامة جمعاء ملقياً عليها هذا السؤال . « هل تريدون أن يبقى بونابرت قنصلاً مدى الحياة ؟ » فبادر جميع الفرنسيين خاصة القوم وعامتهم الى الاقتراع ، وكان عدد المجاوبين بلفظة « نعم » ينيف عن ثلاثة ملايين

الا ان مجلس الشيوخ الذي شاء أن ينسى بقدر الامكان تحفظه الذي كان في غير حينه بادر الى ممالأة الامة على رغبتها باضافته الى ذلك الامر امتيازاً جديداً منحه القنصل الاول أي انه خوله اختيار خلقه . واليكم الجواب الذي وجهه بونابرت الى وفد المجلس .

« يا حضرة أعضاء مجلس الشيوخ ،

« ان الانسان مدين بالحياة الوطنية ، ولما كان الشعب الفرنسي يريد أن تكون حياته مخصصة له . . . فاني أمتثل لارادته . . . وانه باعطائه اياي برهاناً جديداً ثابتاً عن ثقته بي يقضى علي بأن أويد طريقة شرائه وأنظمته التي يرمي بها الى ضمان المستقبل . فالعناية التي بذلها والمساعدة التي تمدوني بها ، وجماع أصحاب السلطة لي وما يبيده لي هذا الشعب العظيم من الثقة وحسن الارادة تجعل الحربة والمساواة والسراء في فرنسا آمنة من أهواء الحظ وتقلبات المستقبل فيصبح أفضل شعب أسعد شعب في المعمورة كما يستحق أن يكون ، ويكون من وراء سعادته سعادة أوروبا طراً

« وبيننا يسرني أن ينتدني المجلس الصادر عنه كل شيء الى اعادة العدالة والنظام والمساواة الى الارض ، سأرى غير متأسف ولا قلق زوال آخر رأي من آراء الاجيال الآتية »

على ان آراء الاجيال المعاصرة كانت له ضامناً ثابتاً ومقدمة للتعظيم الذي تدخره له الاجيال الآتية ، ومع ذلك كان ميل الشعب الذي ضمن له التمتع مدى حياته بالسلطة العليا قد لقي بعض المعارضات الافرازية التي كشفت ما كانت من الاخلاق النبيلة من دون أن تقلل تعميم الاقتراع الوطني وضرورته . ولم يكن مستطاعاً وقوع خلاف هذا الامر ، فان القنصلية مدى الحياة كانت تر بطحظ الجمهورية بحظ رجل واحد ، وتلشئ نوا من الملكية مدى الحياة يضع الجمهورية على حدود الملكية الارثية فكيف زالت بغتة الاوهام الراسخة في الازهان والمخاير التقليدية والاعتقادات الثابتة التي خالجت عقول المعتصمين باهداب الحرية وتأصلت فيها منذ سنة ١٧٨٩ وخلفها استحسان عام لسكل ما كان مستهجنًا في أنظار القوم . وصاروا يتوهمون في ذلك الحين ان فرنسا لم تفعل بالقائها الى بونايرت بمقاليد السلطة السامية ذلك الامر منقادة الى دواعي الاحوال ، وانها بدلا من أن تتصرف وقتياً تصرفاً مبدئياً على التعقل والضرورة بتسليمها أعنة الاحكام لحاكم مطلق ، كانت تتصرف تصرفاً تدعوها اليه مبادئها ، وتوطد أركان الدستور وتوطيداً ثابتاً ، وتهمل في سبيل خدمة زعمائها العمل بمبادئ التؤدة والثروي التي ناضلت عنها وصانها من مواليها الاقدمين . الا ان الثورة بتعظيمها بونايرت واعتبارها اياه ممثلاً أميناً لمصالحها الحاضرة ومقتضياتها الجديدة لم تكن تنكر نفسها باشخاص ممثليها الاقدمين بل كانت بعكس ذلك تدفع بعض المتقدمين في المجالس الوطنية الى السعي وراء تحقيق أعمالهم الخطيرة ومعاكسة أهواء الشعب الرائلة في سبيل خدمة حقوقهم الثابتة ولا بد من القول بأن القنصلية لم تنفرد بانقاذ الثورة من خصومها وتعزير شأنها ، فقد نهض باعباء هذه المهمة قبل القنصلية الجمعية الوطنية وحكومة الكنفنسيون . فانهما لقياً أنصاراً يقيمون النكير بافهمهما على ميل الافكار الى السلطة المطلقة ، ويحولون دون نسيان القوم للمبادئ الحرة التي انتشرت في سنة ١٧٨٩ وكانت مبالغة الشعب الفرنسي في تعزيزها سبباً لخلاص البلاد في سنة ١٧٩٣ فانبعثت الجمعية الوطنية الدستورية في شخص لافاييت وتمجست فيه ، ولم ترض الا باقتراع مبني على أسباب قانونية في مسألة انشاء القنصلية مدى الحياة . وأما الكنفنسيون فانه استعار لسان كارنو المشهور وكان اقتراعه فيه سلبياً

وكان القنصل الأول متوقفاً معارضة لافاييت لأنه لم يتمكن في أثناء
مفاوضته له بعد عودته الى فرنسا من اقناعه بقبول عضوية مجلس الشيوخ .
ولو كان بونابرت يعرف لافاييت حق المعرفة لكفى نفسه مؤونة معالجة استمالته
الى انتحال مذهبه السياسي الجديد . بيد ان لافاييت لم يكن باقياً على ما كان
عليه في سنة ١٧٨٩ ، بل كان يهيمه كثيراً ان يعلم الملا طراً في فرنسا وأوروبا
وأمركا انه لا يزال على ما كان عليه . وكان يملأ ذهنه ذكر الدور المهم الذي
مثله الى جانب واشنطن والى جانب ميرابو ، وظهر بمظهر رجل سياسي يعد
من الطبقة الأولى ، وكان يحاذر كل المحاذرة ان يدع أدنى وصمة تلتطخ برده
موقفه ، ولم يكن يرضى بوجه من الوجوه ان يخضع لاي كاث . وقد حملته
الدعوى على تمثيل عصر من العصور . والتعبير عن فكر من الأفكار ، والوقوف
كراية حية لوطني سنة ١٧٨٩ . وحين كانت عيننا ذلك الرجل تنفتحان لرؤية
حقيقة ذاته ، وعلى جبينه تلمع بوارق المجد الذي أحرزه في يوم « لعب الكرة »
ويوم « البستيل » ، وحين كان يقابل ذلك الأمر على معرفة الجميل الوطنية
التي تمت الأمة بأسرارها له في أيام الجمعية الوطنية الجميلة ، وحين كان يعتبر
بحق مركزاً تاريخياً أحرزه بلا تردد ذلك المركز الذي كان يشغله في صدر الصورة
المرسومة فيها أعظم المشاهد الدالة على انتصار المساواة على الامتيازات ، لم
يكن ذلك الرجل يرضى بأن ينحدر عن المنصة التي نصبها له ظافرو ١٤ يوليو ،
ويتغلغل متوارياً بين جماعة الخدام المطيعة بظافر ١٨ برومير أجل ان منظم
الكون الاسمي الذي لاتدرك مقاصده كان يرى ١٨ برومير و ١٤ يوليو يومين
يرتبط الواحد منهما بالآخر كل الارتباط ، ويرمى بهما الى غاية وحيدة وهي
تعزيز المصلحة العامة واعلاء منار الوطن الا ان هذه العلاقة المتينة المحجوبة
وراء استار طريقة العناية الثورية المبدئية كانت تنشئ بين الأدوات المختلفة التي
كانت العناية تستخدمها مرة بعد أخرى بحسب مجرى الاحوال لبلوغ غاية
واحدة ، جميع أسباب التنافر والكراهة الشخصيين الممكن حدوئهما على
اختلاف المقامات والطبائع والمدارك . وعليه لم يكن وطني التحالف الأول
الغمور على ثباته يستطيع قط الاتفاق مع الحاكم المطلق في سنة ١٨٠٢ ، ومن
جاء ذلك نبذ لافاييت عضوية مجلس الشيوخ وآثر الانزواء بشرف في منزله

بلاغرانج على قضاء حياته خاملاً بين حاشية التويلري وأنشئ نشان جوقة الشرف في أثناء المدة التي انقضت بين اصدار المجلس الوطني قراره باسناد القنصلية الى بونابرت مدة عشر سنوات واقتراع الشعب على اسناد القنصلية اليه مدى الحياة وقال بونابرت لمريديه ومعبري أفكاره لدى المجلس الاشتراعي : « ان هذا النشان سينسخ امتيازات النبلاء التي كانت تقدم المجد التليد على المجد الطريف وأبناء الرجال العظام على الرجال العظام » وكان هذا الفعل الذي أتاه بونابرت دليلاً على انصرافه الى تعزيز مبادئ الفلسفة الحديثة ، وتوطيد دعائم المساواة الحقيقية على أساس مكافأة المرء على قدر أهليته واستحقاقه . الا ان بونابرت عمد الى انشاء هذا الامر الخطير بين شعب لا يزال فيه بعض نفر من أشياع أصحاب الامتيازات الشخصية قذري في أعينهم ، وبعض الطامعين بالانشاء المساواة الحقيقية الذين كانوا يعتبرون عمل بونابرت هذا تجديداً لهضة الارستقراطية القديمة أو انشاء أرستقراطية جديدة في اكرام أصحاب الامتيازات الشرعية . ولم يكن سكوت الناس عن معاكسة انشاء جوقة الشرف بالامر الهين ، فلا بد لنا من القول بأن ذلك الانشاء هب لناهضته أشخاص لم يكن أحد مرتاباً بخصومتهم للارستقراطية أو بتطرفهم في الانتصار للديموقراطية . فتمجب بونابرت من هذا الامر وألقى تبعته على الخطباء الذين شحذوا ظبي ألسنتهم للدفاع عن ذلك المشروع ، وكان يقول . « اذا كان اختلاف المقامات بين الفرسان وتخصيص نوع مكافأتهم قد أفرز كل طبقة من طبقاتهم عن الاخرى ، فان نشان جوقة الشرف وتعميم منحه يعتبران بعكس ذلك الامر راموزين للمساواة من دون سواهما » وقد استند الى هذا المبدأ حين نبذ مشورات الذين كانوا يرتأون تخصيص نشان جوقة الشرف لرجال الجندي . فقال لهم « ان مثل هذا الفكر كان يحسن في أيام أصحاب الاقطاعات والفرسان أو في العهد الذي غزا فيه الفرنج بلاد الغالين ، فقد كانت الامة في ذلك العهد راسفة في قيود العبودية ، وكان الظافرون يستأثرون بالحرية ، وكانوا كل شيء ولم يحرزوا تلك الميزة الا لكونهم جنوداً وعليه لا يصح الآن أن نقابل عصور الهمجية بالعصور الحاضرة . فنحن ثلاثون مليوناً من البشر تربطنا جامعة

المعرفة والتملك والتجارة ، ولا تعد شيئاً مذكوراً ثلاث مئة شخص أو اربع مئة شخص من الجنود بازاء مجموع الامة ولا يخفى أن القائد ماعدا كونه لم يتقلد القيادة الا بصفته المدنية ، حين يعتزل المنصب يعود الى حالته المدنية . ان الجيش هو الامة ، وان نحن اعتبرنا الجندي صارفين النظر عن علاقته بالحالة المدنية قام في وجداننا أنه لا يعرف شريعة غير شريعة القوة ، وانه ينسب كل شيء اليه ، ولا يرى غير نفسه ومن اختصاص الجندي أنه يبتغي احراز كل شيء بطريقة استبدادية أما الرجل المدني فانه يحكم المناقشة في كل شيء ولا يلجأ الا الى الحقيقة والعقل ولا أتردد أبداً في الاعتقاد بأن الافضلية يجب ولا مرأه أن تمتح الى المدنيين فأنا لا أتولى الحكم لكوفي قائداً ولكن لأن الامة تعتقد اني محرز صفات مدنية تصلح لان يتولى صاحبها الحكم وحين لا تعود الامة ترى هذا الرأي يتداعى صرح الحكومة هاوياً . وقد كنت عارفاً حق المعرفة ما كنت أفعله وأنا في مقدمة الجيش حين كنت أطلق على ذاتي لقب عضو الجمعية العلمية ، وكنت موقناً بأن الجميع حتى آخر جندي يدركون مرعي كلامي واذا لم يعتبر نشان جوقة الشرف مكافأة على الخدم المدنية كما يعتبر مكافأة على الخدم الجندي فلا يحسن والحالة هذه أن يسمى نشان جوقة الشرف » وقال بعد ذلك . « حين يبتعدون عن النظام الاول ينسخون فكراً سامياً وتصبح جوقة الشرف أثراً بعد عين . . . »

ولقد كانت ذلك الفكر وأيم الحق من أقوى العوامل لتحريك ساكنات المنافسة والمباراة بين أفراد الامة بفتحه في وجوه الجميع على السواء طريق امتيازات الشرف على مثال فتحه طريق المناصب . وقد أصبحت الاهلية الشخصية من ذلك الحين كل شيء ولم يبق شرف الاصل والفصل شيئاً مذكوراً ويمكن القول ان هذا الامر كان نتيجة انتصار الثورة وتملصها من ربة الحوادث العرضية ، وتقديسها كل ما كانت قد توخته من دون ان تنصرف عنه دقيقة من الزمان .

وهب نهض في بدء الامر لمعارضة جوقة الشرف فريق من غلاة الوطنية فذلك ناشئ عن عدم اعتقادهم صحة ما كان خطباء الحكومة يعالجون اقناع الامة بفائده ، وعن توهمهم بأن بونابرت كان يرمي الى ايجاد أشخاص يكونون

أطوع له من بنائه ، وانه ينوي ان يعيد الالقاب القديمة الى بعض أفراد من الامة من دون ان يدعها تشعر ، وهو يوههم بأنه لم يفعل ماتوخى فعله الاليكافى المبرزين في خدمة الوطن على سواهم ، ويضع مبادئ المساواة موضع الاجراء بانشائه نشاناً يستطيع الجميع على السواء احرازه . وعلى هذا النمط يمكن القول أن المعارضة الشديدة التي بدت في وسط المجلس كان صدورها عن خوف القوم من طموح بونايرت الى عرش الامبراطورية أكثر مما كان خوفهم من بقاء القنصل الأول قابضاً بيديه على أزمة الاحكام .

وكان من جملة الانشاءات القنصلية أمر لم يكن في طاقة حزب من الاحزاب أو في ذرع شيعة من الشيع أن يقللوا من اعتراف الناس له بالجليل على انشائه وتقديرهم إياه حق قدره . وهو القانون المدني . وكان بعض الناس يزعمون على غير طائل ان هذا القانون من أوضاع مشاهير الفقهاء الذين أنبتهم الثورة ، إلا أن الكثيرين يعلمون انه حينما كان الجدل يشتد ويحمى وطيسه كان بونايرت ينهري لا بداء رأيه وكثيراً ما كان يتسنى له أن يحسم بكلمة واحدة جدالا طويلا ويذلل مصاعب شديدة بكلمة واحدة من الكلمات التي يستأثر بها في غالب الاحيان أصحاب الدهاء . وقد أضاف الى القانون الفصل الخامس المبحوث فيه عن حالة الجنود المدنية حين يكونون خارج أرض الجمهورية فقد كان الفقهاء يقولون : حسب أولئك الجنود أن يخضعوا للقانون الجاري العمل بموجبه في البلدان المخيم فيها ظلهم . فقال لهم بونايرت على الفور : « ان الجندي لا يكون أبداً في دار غربة حين تظلمه الارية ، فحيث تكون الارية يكون الوطن . »

وكان بعد صلح اميان أن جميع قوات فرنسا الحربية ظلت لا عمل لها وباتت رهن اشارة بونايرت ، وحينئذ اغتم القنصل الاول الفرصة من السكينة السائدة في أوروبا وفكر في نقل ميدان الحرب الى أميركا لفتح سان دومنك ، وفوض الى صهره لسكرتير قيادة تلك البعثة التي لم تكن حميدة المغبة على فرنسا . وكل ما أمكنهم أن يستفيدوه من تلك الحملة أن أسروا توسان لوفرتور زعيم الزنوج ، وهو رجل ممتاز بين بني جلدته . فنقلوه الى فرنسا ولكنه ما لبث أن استوفى بخته من هذه الدنيا في قلعة جو ، واغتالت طائلة الحمام في هذه البعثة قائدها لسكرتير . خلفه روشمبو ، إلا انه لم يتمكن من حفظ تلك الطارئة

لفرنسا بل فقدتها بما ارتكبه من المظالم وأناه من المساوىء . وكانت إيطاليا مهد مجد بونابرت ومنشأ بأسه شغلا شاغلا له . ففي مفتح سنة ١٨٠٢ التأم في ليون مجلس ايطالي مؤلف من سراة البلاد ودهاتها ، وبعد مفاوضات أجمعت كلمتهم على أن يقدموا لبونابرت رئاسة جمهورية ما وراء الالب التي لم يكن أحد بين الايطاليين قادراً على النهوض بأعبائها . فقبل بونابرت تلك الزعامة المقدمة له وقال لوفد تلك الامة : « ليس عندكم سوى شرائع خاصة فيجب أن يكون لكم شرائع عامة وليس لشعبكم سوى عادات مكانية ، فعليه أن يقتبس عادات وطنية » وفي خلال تلك السنة عينها ضم بونابرت البيامنت الى فرنسا وقسمها الى ست ولايات وهي : بو ودوار وسزيا وستورا وطانارو ومارنفو .

وفي مفتح سنة ١٨٠٣ نظم الندوة العلمية الوطنية تنظيماً جديداً على شكل رآه ملائماً ، فقسمها الى أربعة أقسام :

أولاً — ندوة العلوم .

ثانياً — ندوة اللغة وعلم الادب .

ثالثاً — ندوة التاريخ وعلم الادب القديمين .

رابعاً — ندوة الفنون ، وقد نسخ بهذا التقسيم من الندوة العلمية الوطنية العلوم الادبية والسياسية . وكان نسخ هذا الفرع ناجماً عن استيائه من معارضة بعض أصحاب الصحف والكتبة المشتغلين بالعلوم العقلية للخطة التي كان يتوخى انتهاجها في ادارة شؤون الحكومة وتجرئهم على رفع صوتهم لمعاكسته في مجلس الامة نفسه .

وفي ذلك الحين أنشأ القنصل الاول أيضاً معاهد مختلفة ذات أهمية كبرى من جملتها مدرسة فنتنبلو الحربية ومدرسة الهندسة والفنون في كميانيه .

ان بونابرت الذي ظفر بملوك أوروبا ، وألقى السلام في الجمهورية الفرنسية ، أراد اتيان أمر آخر عظيم الأهمية ، وهو تدخله في شؤون سويسرا وتوسطه لايجاد السلام والوئام بين أجزاء هذا التحالف . فأنشأ لها نظاماً جديداً كان خاتمة للخلاف الناشئ بين الانحاء المتألقة منها هذه الجمهورية . وأصبحت سويسرا بموجب النظام المذكور مؤلفة من تسع عشرة ولاية لكل منها

دستور خاص تجري عليه تحت حماية فرنسا العالية .

وجه القنصل الاول نشرة الى جمهورية سويسرا تقتطف منها ما يأتي :
 « ليس من أحد فيه ذرة من العقل والذوق السليم الا يرى أن النظام الذي
 وضعته لكم هو أفضل منحة لبلادكم من فضل العناية التي لم تقتأ في خلال
 الانقلابات السياسية وصدمات الاقدار ساهرة على كيان أمتكم واستقلالها ،
 وان تدخلي في شؤونكم على الوجه الذي تعرفونه هو الدريعة الوحيدة الباقية
 لكم لضمانة كيان كلا الامرين » وكانت الحكومات الاجنبية تنظر شرراً الى
 التفوق الغريب والسيادة العامة اللذين نالتهما فرنسا وزعيمها الشاب في تنظيم
 شؤون أوروبا . وكانت الحكومة البريطانية أشد جميع تلك الحكومات استياء
 وقد ساورها القلق من جراء طول مدة السلم في أوروبا . فتألب في لندرة جميع
 أعضاء الارستقراطية الاوربية وأساطينها المناهضة للديموقراطية الفرنسية
 ودهاقنتها . وهل كان يعقل أن مثل رجال الحكومة الذين شاطروا تشفي
 آل برنسيك من الشعب الفرنسي أو حبذوا عملهم يستطيعون أن ينظروا
 بعقلة الرضى الى اشتداد منكب ذلك الشعب الذي كانوا يعلمون نفوسهم بأن
 يسلموه الى جنودهم غنيمة باردة ؟ وكان الكتبة المنتمون الى حزب المحافظين
 والرافعون فوق رؤوسهم لواء برك وبث يحبرون المقالات المسبهة ويعقدون
 الفصول الطويلة متهمين على الثورة الفرنسية الكبرى ومقبحين أعمال زعيمها
 الاكبر . وقد كان عملهم هذا داعياً الى اضرار لظى الحرب الوطنية بين ظهري
 الامة الغربية التي أصابت سلباً محموداً . وكانت كتاباتهم جميعها تدور على هاتين
 الغايتين المهمتين .

١ ايجاد شكوي من فرنسا ، ٢ عقد محادثات واستمالة الدول الاوربية الكبرى
 الى مجاراتهم على ميادئهم
 وكانت أهم شكوايهم مسائل سويسرا ، فأثارت هذه المسائل حسدهم من
 مريضه ...

وكانت المذكرة الرسمية مختومة بتعليق النفس بالمحافظة على السلم مع المجاهرة
 بان فرنسا كانت مستعدة لشهر الحرب وأنهم لا يستطيعون أن يصيبوا شيئاً
 منها بالوء والتهويل ... المذكرة مذكورة أخرى جبرتها البراعة نفسها

التي حبرت أختها من قبلها وقد ختمت بهذه الفقرة المشهورة . « انه لا يسر على أمواج المحيط أن تقتلع الصخور التي تتكسر عليها من أربعين قرناً من أذكاء العصاة المعادية لأوربا وللشعب نار الحرب ، وجرها ويلاتها في غربي أوربا ، وخسوف بدر الشعب الفرنسي مدة من الزمان »

الا أن القنصل الاول لم يقتصر على نشر المناقشات والمجادلات في جريدته الرسمية بعد تحقيقه ما كان للهجائن البريطانيين من النفوذ لدى الحكومة البريطانية بل نشر في المونيتور المقالة الآتية التي رن صداها في جميع أنحاء أوربا . وهذا تعريبها . « لا تزال جريدة التامس التي يزعمون أنها تنشر تحت مراقبة الوزارة البريطانية تشحن أعمدتها بالقدح في فرنسا . . . وكل ما يخطر على قلب بشر من الدناءة والسفالة والشر تنسبه تلك الجريدة الساقطة الى الحكومة الفرنسية . فما الغاية التي ترمي اليها ياترى ؟ . . . ومن هم الذين يدفعون لها الاموال لادراك هذه الغاية ؟ . . . »

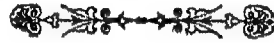
« وثمت صحيفة أخرى تفوق جريدة التامس في السفاهة ، وهي صحيفة ينسج بردة مقالاتها بعض نفر من اشقياء المهاجرين وشذاذ الافاق وشراد الاوصار والاجلاف الذين لفظهم وطنهم وتبرأ منهم الشرف والنبيل ، فاتوا منكرا ، وارتكبوا فظائع لا تقوى على محوها أيدي العفو العام »

« لقد اجتمع في لندرة أحد عشر أسقفاً بزعامة أسقف أراس اللفظ الطباع وجاهروا على رؤوس الاشهاد بالتمرد على الوطن والكنيسة وأذاعوا نشرات تقيض طعننا بالاساقفة الفرنسيين ، وأوسموا الحكومة والبابا اهانة لانهما أعادا السلام والانجيل الى أربعين مليوناً من المسيحيين

« ان جيرة جرسي تغص بالاشقياء الصادر الحكم عليهم بالموت من المحاكم لارتكابهم جنایات قبل الصلح ، كجرائم القتل واغتصاب العرض واضرام النار . . . ومن جملة شروط وثيقة الصلح المعقودة في اميان شرط يقضي بتسليم المتهمين بجرائم القتل ، الا أن الامر جرى بعكس ذلك ، واستقبل السفاحون على الرحب والسعة في جرسي . . . »

« ان جورج يتباهى بتعليق النشان على صدره في لندرة ، وقد أنعم عليه بالنشان مكافأة له على الاكلة الجهنمية التي دمرت ناحية من نواحي باريس

وأهلكت ثلاثين شخصاً من النساء والاولاد الآمنين . أفلا يحق لنا أن نفتكر
والحالة هذه بأنه لو كان قد أدرك غاية أمنيته من الامر المنكر الذي تعمد اثيانه
لكان قد كوفيء بنشان ربطة الساق ؟
« واذا دام الحال على هذا المنوال فكيف يصبح صلح اميان ؟ »



الفصل الخامس عشر

انقطاع العلاقات بين فرنسا وبريطانيا — رحلة بونابرت الى بلجيكا

وعلى الشواطئ البحرية — مكيدة يشغرو وجورج موت

الدوق دنگان — نهاية القنصلية

ان الوحدة الاوربية التي نشأت عن المسيحية والفتح واستطلت فيما بعد
بكنف السياسة تداعى صرحها لدى الثورة الفرنسية الكبرى . وقد دخلت
الخشية على جميع الحكومات القديمة حتى أن الحكومة البريطانية نفسها وهي
تتباهى باطلاق اسم أرض الحرية على بلادها جاهرت بمعادة فرنسا لأنها كانت
تمثل تحت شكل الحكومة الدستورية الارستقراطية البالغة غاية المناوأة للحرية
الحقيقية ، وتميز نفوذ أصحاب الاقطاعات بطريقة استبدادية لا يحاكيها استبداد
في أوروبا طرا . فلم يكن من سبيل لبقاء السلم الثابت الحقيقي بين فرنسا وهذه
الدولة أو بين فرنسا وغيرها من الدول الاوربية اللواتي تؤثر بهن مبادئ
الحكومة البريطانية . فقد كانت تمت عداوة كامنة وراء ستار التظاهرات السلمية
بين الحكومة الفرنسية والحكومات الاوربية الاخرى ، على أن ذلك النفور
المبني على معاكسة المبادئ والمصالح معاكسة أصلية كان يزداد مع ازدياد
نفوذ مبادئ المصالح الدو . . . طانت واقفة حاجزاً حصيناً في وجه الاستقراطية

الناقة والملكية الساخطة . واذا كانت الحكومات في بعض الاحيان تضطر بوهن الشعوب وشدائدتها ورفع أصواتها الى القاء السلاح فلا يكون من وراء ذلك الامر سوى ابرام وثائق واهنة وقتية تلازمها جميع أسباب الحرب مع الاحتفاظ بتجاوز حدودها عند سنوح أول فرصة .

وكانت أوروبا القديمة دائماً التفكير في استعادة وحدتها ، وهي لا يخفى عليها البتة أن ذلك الامر حيوي لها ، وانها بدونها صائرة الى التضعف والدمار . ولما لم يكن ميسوراً لها أن تؤمّ جهازاً تلك الغاية كانت تحجى حقيقة مقاصدها تحت سجوف الرثاء والمواربة . وأما أوروبا الفتاة فقد كان مقضياً عليها أن تعمل تارة ببسالة جنديها وتارة بدهاء صاحب الامر والنهي في الحكومة ليتسنى لها ايجاد وحدة جديدة ، وهي لم تكن غافلة عن أن المساواة تظل محفوفة بالمخاطر ما دامت امتيازات النبلاء مقدمة على حقوق سوام . وقد شعر بونايرت بهذا التنافر الذي لا يزول والذي جملة يقول : « بعد خمسين سنة تصير أوروبا قوزاقية أو جمهورية » وهو يعني أنه في أثناء هذه المدة يتمكن أنصار الثورة أو معاكسوها من توطيد أركان الوحدة الاوربية . ولما لم يكن من الناموس الطبيعي أن سلطة المستقبل والخصب اللذين ينشئان شدة الشبية تنزع منها وتعطى بطريقة عجيبة الى الشيخوخة لم يكن والحالة هذه مجال لرجع صدى مفاوضات القديسة هيلانة وادخال الفرق على الا الى يطعمون بمجعل الهمجية الروسية تهج منهاج المدنية الفرنسية .

واذا كان بعد أكثر من ثلاثين سنة قد حال دون انفجار بركان المبادئ تأثير استعداد الشعوب وحاجاتها مع كون ذلك البركان لا يزال ينجلي في الصدور مع ما يبدو في ظاهر الحال من رسوخ دعائم السلم بين الحكومات ، فكيف كانت الحال سنة ١٨٠٣ حين كان مرجل العواطف متواصل الغليان ، ولم تكن الثورة بعد قد عززت موقعها وثبتت مبادئها بانتصار الامبراطورية ومحاوله حزب الملكية على غير طائل ارجاع السلالة البربونيه ، وحوادث سنة ١٨٣٠ الهائلة ؟ وعليه كان منتظراً حدوث مناصبة جهادية بدلا من الخصومة السرية حين يتيسر اعلان ذلك الامر لاعداء فرنسا الكاشحين .

ولم يمض سنتان على صلح اميان حتى تبرمت الحكومة البريطانية من هذا

الصلح الكاذب ، ولم يثبطها شيء من الاشياء عن اضرار نيران حرب طاحنة بين امتين لم يكن ينقصهما سوى التعقل واسناد شؤونهما الى حكومتين بنيت مبادئهما على اس الحرية الحقيقية وفوضت ادارتهما الى رجال من امثال فكس ، فتسير في مقدمة الشعب وتعمل متفقتين على القاء السلام والوفاق في المعمورة وتمهيد سبل اليسر والعمران في وجه الهيئة الاجتماعية

وفي ٢٠ مايو سنة ١٨٠٣ أنفذ القناصل مذكرة الى مجلس الشيوخ والمجلس الاشتراعي ومجلس الامة ضمنوها ما انتهى اليهم من سوء مقاصد الحكومة البريطانية ، وأبدوا فيها خشيتهم من قرب نشوب الحرب . فبادرت المجالس الثلاثة المشار اليها الى المجاوبة على الرسالة بكلام يقضي بوجود التسبب بجميع الاسباب الفعالة لاحترام الوثائق المعقودة والمحافظة على كرامة الشعب الفرنسي ولما تلا القناصل ذلك الجواب فاه القنصل الاول بهذا الكلام الشديد اللهجة . « نحن مكرهون على المحاربة لدفع التعدي علينا والظلامة عنا ، وعليه سنقاتل بافتخار

» واذا كان ملك بريطانيا مصمماً على اعداد بريطانيا العظمى الى الحرب لتعترف له فرنسا بحق اجراء الوثائق أو نقضها على هواه ، ويسوغ له أن يمين الحكومة الفرنسية في نشراته الرسمية والخاصة من دون أن تتمكن من الشكوي من ذلك فقل على الانسانية وحظها السلام

« نحن نبتغي ولا مرأ أن نترك لاعدائنا الاسم الفرنسي مكرماً وخالياً من كل وصمة . . . ونحن في كل حال ندع لبريطانيا الاقدام على أعمال العنف المعاكسة للسلام واستقلال الامم وسنمطيها مثالا للاعتدال يمكن الاستمانة به وحده على المحافظة على النظام الاجتماعي »

وكان ملك بريطانيا يستند في نقضه وثيقة اميان الى احتلال جزيرتي لمبدوز ومالطة واخلاء بلاد القاع ، الا أن الحقيقة كانت غير ذلك ، فقد دفعته الى شهر الحرب هذه المرة أيضا الاسباب عينها التي دفعته الى انشاء المحالفة الاولى لمواقعة فرنسا ، أي حرب احواف مبادئ الارستقراطية لانصار الثورة الفرنسية وكان طاهر روسيا وملك بروسيا يظهران الميل الى التوسط بين فرنسا وبريطانيا الا أن الحوادث التي حدثت فيما بعد دلت على انهما كانا متحالفين سرّاً مع

البريطانيين ولكن مالم تسكن بريطانيا قد أصيبت بأفات الحروب الاولى كما أصيبت بها دول القارة الاوربية ، لم تكن محتاجة نظيرهن الى ضم متفرق شملها لتتمكن من شهر الحرب ، فترأست المحالفة الجديدة التي تألفت لمواقعة فرنسا ومجاذبتها

وكان أول أمر باشرته بريطانيا بعد اعلان الحرب وخيم التبعة عليها فان الجيوش الفرنسية احتلت هانوفر ، فترك قائد الجيش البريطاني الهانوفري مركزه وتلا ذلك الامر نشوب الجيش المذكور في حباله أسر الفرنسيين ورحب بونايرت فرنسا مبتغياً تعهد شؤون بلجيكا فدخل مدينة بروسل دخول الظافر ، واحتفى به الشعب البلجيكي في جميع الاماكن التي مر بها احتفاء شديداً يدل على ابتهاجه بانضمامه الى الجمهورية الفرنسية . فقابلهم بونايرت كما كان يقابل الاقوام الذين ينزل بين ظهرانهم أي أنه أنشأ لهم معاهد عامة مختلفة وأمر بضم الرين الى الموز والاسكو وتأليف توعة كبيرة تسهل المواصلات في تلك البلاد .

ولما عاد بونايرت الى باريس أمر بفتح جسر الفنون للجميع على السواء ، وحول البريطانة الى مدرسة عالية . وكان يهتم أيضاً بالشؤون الخارجية . فأبرم محالفة مع سويسرا ، وأكرم وفادة السفير العثماني بمبالغته في الاحتفاء باستقباله ، وأعلن تخليته اللويزيانا للولايات المتحدة الاميركية في مقابل ستين مليوناً من الفرنكات تدفعها هذه الاخيرة للحكومة الفرنسية بمثابة تعويض .

وكان الشغل الشاغل لأفكار القنصل الاول حربه مع بريطانيا العظمى ، فكان ينوي غزو تلك البلاد ، وقد قال فيما بعد « اذا كان القوم في باريس قد ضحكوا من مقاصدي الكبيرة من هذه الجهة فان بت لم يضحك منها في لندرة »

ورح بونايرت باريس في أوائل شهر نوفمبر ، فجول على الشواطىء متفقداً بذاته اجراء الاعمال الجسيمة التي كان قد أمر باجرائها لادراك الغاية التي كان يجري اليها ، وشهد معركة حدثت في بولون بين فصيلة من الاسطول البريطاني

والاسيطليل الفرنسي . ولما عاد بونايرت الى باريس وجد رسالة كان جورج الثالث ملك بريطانيا قد وجهها الى البرلمان الفرنسي وكان من جملة ما ورد فيها انه يتهيأ للزحف في مقدمة جيشه ، وأن فرنسا تتمرس بالدستور البريطاني ودين الامة البريطانية واستقلالها ، وأنها لا تحيي من عملها بعد اتخاذ التدابير التي عقد عروة العزم على اتخاذها سوى ثمار الخيبة والخذلان والاندحار المرة الطعم

فاستشاط بونايرت غضباً عند تلاوة الرسالة وبادر الى نشر المقالة الآتية في المونيتور

« أو مثل ملك بريطانيا زعيم أمة أصابت السيادة في البحار ومدت لواء سلطتها فوق بلاد الهند يفوه بمثل هذا المقال ؟ أو يحجل الذين يوحون اليه مثل هذا الكلام غير المبني على التروي أن هارلد الناقض اليمين قد زحف أيضاً في مقدمة شعبه ! أو يجهلون أيضاً أن شرف المحتد وروايز السلطة العليا ومطارف الارجوان المرتدي بها الملوك لا تكون سوى مجان واهية في الحين الذي يتنقل فيه الموت بين صفوف جيوش المتحاربين منتظراً اشارة من داهية الحرب أو غفلة منه لينقض على الفريق الذي يختار منه فرائسه ؟ ففي يوم القتال تكون راية المساواة منتشرة فوق الجميع من غير ما تميز

» ان الانتصار والانكسار معقودان بتعود المتحاربين اقتحام غمرات الهيجاء وتفوق المقاتلين في فن الحرب ورباطة جأش القائد ، فالملك الذي بلغ من العمر ثلاثا وستين سنة ، والذي يقود للمرة الاولى جيشه الى ساحة الوضى يكون عند اشتباك الجيشين معرقلاً لذويه وسبباً لانتصار أعدائه عليه .

« يتكلم ملك بريطانيا عن كرامة تاجه والمحافظة على الدستور والدين والشرائع والاستقلال ، أولم يضمن صااح أيمان التمتع بجميع هذه الاشياء الثمينة ؟ وأي علاقة لصخور مالطة بدينكم وشرائعكم واستقلالكم ؟ ليس من خصائص العقل البشري معرفة ما تكون العناية الالهية قد قررتها بحكمها العميقة عقاباً لنفاضي اليمين ومثيري الشقاق ومسببي الحروب ومقدي الاعذار الواهية أو الاسباب السرية لنيل مطاعم دنيئة ، وسافكي الدماء البشرية من غير ما تميز ولكننا نستطيع أن ننظر بعين الفكر بكل تأكيد الى ما يكون من نتيجة

هذه الخصومة المهمة ونقول انكم لن تستولوا على مالطة ولا لمبدوز وانكم ستوقعون وثيقة صلح لا تكون مؤاتية لکم نظیر وثيقة اميان « الفشل والاندحار والنكبات . . . ان جميع هذا الكلام لا يليق بشعب عظيم وبانسان ذي ذوق سليم . فلو كان ملك بريطانيا قد أصاب انتصارات تعادل ما أصابه الاسكندر وحنبعل وقیصر لما كان التفوه بمثل هذا الكلام يليق به فالخط في الحروب متعلق بأمر تافه للغاية وعليه لا بد من أن يكون المرء خالياً من العقل حتى يؤكد بأن الجيش الفرنسي الذي لم يتهمه أحد حتى الآن بالجن لا يلقي في ارض بريطانيا العظمى الا الفشل والاندحار والنكبات . . . »

وكانت الحرب قد جعلت الناس يعتقدون أن بونابرت أكبر قائد ظهر على متن البسيطة ، والحكومة قد جعلت الناس يعتقدون ان فيه دهاء رجال الحكومة . وقد بقي عليه أن يبين لعملاً طراً انه من مشاهير الكتاب في ذلك العصر الذي كان للقلم فيه قوة سياسية هائلة أجل ان النشرات التي كان بونابرت ينسج برودها والخطب الرسمية التي كان يخطبها كانت أكبر برهان على قوة عارضته وطلاوة اسلوبه والنسجام عباراته الا أن ذلك الامر لم يكن كافياً لبيان قواه العقلية واتساع مداركه . فقد كان دهاؤه يلهمه بأنه ينبغي له أن يحسن استعمال جميع سلاح ذلك العصر من مثل السيف واللسان والقلم ، والا يدع وسيلة تفوته من الوسائل اللازمة لصاحب السلطة لنيل التفوق في الامة في الداخل والدفاع عن حقوقها في الخارج . وعليه كان للصحافة من هذه الجهة تفوق لا يختلف فيه اثنان ، وكان ذلك يكفي بحيث أن بونابرت مع كونه فاتحاً ومشتراً لم يأنف من أن يضيف الى هذين اللقبين لقب صحافي . وأصبح بونابرت بذلك الامر رجلاً كاملاً في عصره . وبدلاً من أن نعتقد بأن بطل مارنغو خالف الاصول والعادات المرمية باقباله على مزاولة الكتابة في الجرائد ومعالجة الموضوعات الانتقادية ، نعتقد بأن احترامه لنفسه لم يكن يقل وهو قابض بأمانه على القلم لمناضلة أعداء فرنسا بقوة العقل عن احترامه لنفسه وهو منتفض الحسام في ميدان القتال للزحف الى أعدائه بكتائبه الرجراجة . ولا بد لنا من القول بأن بونابرت أعلن غير مرة انه لو خبر بين الصفات المدنية والصفات الحربية لما تردد

طرفة عين عن تفضيل الصفات المدنية . وقد رأيناه في ما مضى من حياته يؤثر في مصر وإيطاليا لقبه « عضو الجمعية العالمية الوطنية » على لقبه « القائد الأكبر » ولا يتوهم أحد أنه متصنع من هذه الجهة ، فقد كان بونابرت طارفاً الشروط الممكن من ذلك الحين فصاعداً التقيد بها لتولي حكومة شعب أثارتها الفلسفة مع حكومة لويس الرابع عشر الحربية . وكان يدري أيضاً أن الثورة الفرلوسوية لم تكن سوى مغالبة العقل للأنظمة الاقطاعية التي وضعتها القوة الوحشية . وإذا كانت تلك الثورة قد اضطرت في بعض الأحيان الى الاستنجاد بالقوة الوحشية للذود عن حياتها فلما لم تفعل ذلك إلا مرغمة على فعله . وعليه كان بونابرت يؤثر خدمتها بسلاحه الطبيعي أي بالمنطق الذي ينير الافكار ويلجها ليتسنى له اخضاعها لسلطة العقل على خدمتها بالجنود الذين يستخدمون في الحروب لسفك الدماء الغزيرة ولا يكون من وراء عملهم هذا إلا اخضاع العقل للقوة الوحشية ، وهذا ما ينجم عنه ما نسميه ضد الثورة . وكان بونابرت في جميع الحروب التي أوقد نيرانها ان جنرالاً وان قنصلاً وان امبراطوراً قد أثبت على مثال ما أثبتته عند نقض وثيقة اميان انه لم يكن يرضى بالحرب الا مكرهاً لدفع الظلام والاعتداء ، وانه كان يلقي على أعداء فرنسا مسؤولية الشرور المسببة عن الحروب . وكان القنصل الاول وهو يدبج براءته السيالة المفالات الانتقادية وينشرها في جريدته الرسمية رداً على أقوال الملك جورج المشحونة تصلفاً يعنى بتنظيم الشؤون الداخلية في الجمهورية ، وفي ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٠٣ عقد المجلس واستصدر منه قراراً بادخال التغيير على نظام المجلس الاشتراعي الذي فتح في ٦ يناير سنة ١٨٠٤ وجعل المسيو دي فونتنان رئيساً له . وكان بونابرت بتفضيله المسيو دي فونتنان على المرشحين الآخرين مع معرفته بأن له علاقة بحزب الملكية يعمل لتعزيز طريقة التوفيق بين الاحزاب التي كان يأمل منها مساعدته على ضم أعداء الديموقراطية المعتدلين الى أنصارها المتطرفين ، أي أولئك الذين نظروا الى الثورة بعقل النفور والاستيحاء وأولئك الذين غرروا بنفوسهم وقذفوها الى خدمتها . فان فونتنان وفوشه كانا زعيمين لجميع الذين تدفعهم الحكمة والمطامع والتبرم من الماضي والارتياح في المستقبل الى التوفيق بين الاحزاب واعادة السكينة والراحة الى نصابهما .

وفي جلسة ١٦ يناير بسطت لدى المجلس الاشتراعي حالة الجمهورية ، فكانت صورة جميلة مثلت فيها جميع أسباب النجاح والعمراف التي أصابتها الامة الفرنسية . ورأس المسيو دي فونتان وفداً رفع الى القنصل الاول تهاني المجلس المشار اليه . وهذه خلاصة الخطاب الذي خطبه بين يديه .

« ان المجلس الاشتراعي يعرضك الشكر باسم الشعب الفرنسي على ما أتيت به من الاعمال الزراعية والصناعية التي لم تحل الحروب دون اتمامها . وقد جرت العادة أن الافكار العظيمة كثيراً ما تجعل أصحاب العقول السامية يهملون مزاولة تفصيل الادارة ، بيد أن الاجيال الآتية لا يمكنها أن تنحني عليك باللائمة من هذه الجهة ، فأفكار حكومتك وأعمالها تجري متحدة في كل مكان .

« كل شيء يجري على غاية السكال . فالبنفس خدمت نيرانه ، والمعاكسات تقلص ظلها ، وقد شاهدنا المذاهب والاشياء والرجال على اختلاف المشارب والاهواء تتقارب وتمازج بقوة الدهاء المتسلط على كل شيء عاملة على خدمة الوطن واعلاء مناره فاتفقت العادات القديمة والعادات الجديدة ، ومهدت جميع السبل للمحافظة على المساواة في الحقوق المدنية والحقوق السياسية ، واستعيدت جميع الاسباب الآيلة لزيادة بهاء وعظمة سلطنة كبيرة . وهذه المآثر يا حضرة القنصل الاول ثمرة عمل أربع سنوات . لجميع أشعة المجد الوطني التي باخست من خمس سنوات استعادت بهاء لم تكن قد أصابته قبلك . »

وكان اعجاب القوم طراً بأعمال بونايرت ورضاء فرنسا جميعاً بإنشاء القنصلية مدى الحياة هادمين لصروح آمال أصحاب الاحزاب وسببين لتربصهم وابقاء مقاصدهم محجوبة وراء ستار الكتمان . الا أن الاحزاب التي كانت لها مبادئ تسعى لتعريضه لم تكن النكبات لتخفي عليها أو تبلغ منها ولو غيرت الأيام . « حه ذلك المبدأ ولم يبق منه سوى الوهم . وعليه كان في وسع جماعة الملكيين أن تخضع لقوة الاقدار ولدهاء الظافر المنصور ولحظ بونايرت وتذعن لرؤيتها مشيئة الله وأصبح العناية في الحوادث العجيبة القاسمة كحاجز حصين بين فرنسا والبوربون مما يعز على هؤلاء الاخيرين اجتيازها فيما بعد . فهذه كانت العواطف السائدة في ذلك العصر بين ظهري أمة كانت فيما مضى معتصمة بأهداب الاخلاص للمبادئ الملكية على أن زعماء الاحزاب ولا سيما أولئك

الذين ظلوا في المهجر ثابروا على اضرار لظى بغضائهم وتديبر دسائسهم المناهضة لمبادئ الحكومة الجديدة. وقد كانوا واثقين بنيل ميل جميع الحكومات الاوربية اليهم ومناصرتهم السرية لهم وكادت هذه المناصرة تصبح جهازية بحسب مقتضيات الاحوال وبعد ما نقضت بريطانيا وثيقة صلح اميان جاهرت بعضهم

وظهر لهم في هذه الحال أن استمرار السكنينة الداخلية بتعويد الشعوب الغربية المعيشة في ظلال تلك الخلة يزيد في اقامة المصاعب في وجه محاولة ائثاره فتنة جديدة ، وكانت الحال أيضاً تقتضي الاسراع بالهجوم على القنصل قبل اشتداد ساعده وتوطيد أركان سيادته . فحينئذ دبرت مكيدة للابقاع ببونابرت وزعزعة دعائم حكومته . وانتشر مدبرو الدسيسة من ضفاف الرين الى ضفاف التاميز تظلمهم حماية الحكومة البريطانية ، وكان يبشغروا كثيرهم تطرفا وقد حذا حذو جورج كادودال المشهور . وكان مورو الذي كسف بدر مجد أسرة هونلاندن وقد وقف على سر المكيدة وسر بها وشجعهم على ابرازها الى حيز العمل . ولما انتهى الى بونابرت عمل مورو هذا صاح قائلاً .

« أو مثل مورو يتنذف بنفسه الى مثل هذا المأزق الحرج ؟ أو مثل هذا الرجل الوحيد الذي يقذف القلق على خاطري والذي يستطيع دون سواء أن يطعم بنيل التفوق علي ينرر بنفسه على هذا الشكل الدال على الحماقة ؟ اني وأيم الحق ميمون الطالع . . . »

ولما انفضح أمر المكيدة بادرت الحكومة الى اعلانها في جميع أوربا متسببة بجميع أسباب الاذاعة التي لديها . وجاء جميع رجال الحكومة وأظهروا للقنصل الاول استياءهم من ذلك الامر الفظيع ، وحققوا له أنهم سيعضدونه لاجراء كل ما يؤول الى منع تكرار مثل هذا الحادث فأجابهم بونابرت بما يلي :

« منذ اليوم الذي بلغت فيه أوج الساطة دبرت مكاييد عديدة لاغتيالتي .

ولما كنت قد ترعرت في ساحة الهيجاء لم أعبأ قط بالمتالف التي لم تكن تلقى أدنى رعب في فؤادي . ولا يسعني أن أنبذ عاطفة القلق الشديد حين أفكر بالحالة التي أوكدك الشعب العظيم أن ينتهي اليها لو نجحت الدسيسة الانيرة ، فأصبحها قد دبروا بنوع خاص لمناوأة مجد الشعب النرلسوي وحرية وجهله

« وقد نبذت من عهد طويل ملاذ الحياة الفردية ، فاستعملت جميع وقتي وجميع حياتي للنهوض بأعباء ما يقضي عليّ حظ الشعب الفرنسي بالنهوض بها

« فلتحفظ السماء فرنسا ، ولتجبط مكاييد الاشرار ! ومن المقتضي على الوطنيين ألا يدعوا المخاوف تبلغ منهم . وسأظل جياً مادامت حياتي ضرورية للامة . وكل ما أريد أن يعلمه الشعب الفرنسي هو أن وجودي بغير ثقته وبغير محبته خال من الهناء وليس له غاية مقررّة »

ان بونابرت باظهاره أن مقاومي الثورة أصابوا النجاح بتدبيرهم المكيدة لاغتياله وبتعليقه على وجوده الشخصي مجد الشعب الفرنسي وحرية وحظه كان يشير الى أن السلطة التي منحه اياها الشعب مدى حياته لم تكن كافية لضمان مستقبل البلاد . وكان يفكر في وضع طريقة جديدة يستعان بها بعده على الدفاع عن المصالح الجديدة وعن قريب سيعلمن هذا الفكر ويوضع موضع الاجراء .

وكان من جملة المهاجرين المستعدين لاجتياز التضخم لدن أول اشارة من المتآمرين الدوق دنغان وهو اخر فرد من سلالة كنده الكبير فأمر القنصل الاول بالقاء القبض عليه في بلاد بادن وسوقه الى فنسن حيث حكم عليه بالموت ونصب هدفا للرصاص بسرعة غريبة . وكان اجراء الحكم على الصورة التي أجري فيها معتبراً بمثابة جريمة قتل ارتكبها بونابرت . وقد علق من جرائمه وصمة عار باسمه لا تمحوها يد الدهر . فاذا لم يشهر ذلك الامير الشاب الحامل اسما من أعظم الاسماء في فرنسا القديمة حرباً على الافكار والانظمة المخالفة لمبادئه الاجرياً على طريقة آبائه ببسالة تضارع بسالة الابطال الشجعان بحسب قوانين الشرف وحقوق الامم ، كان القاء القبض عليه وصرم جمال حياته ضرباً من ضروب السياسة التي كانت تستخدم الارهاب والنطع سلاحاً للحرب . ومن ثم يكون بونابرت المائل لدى محكمة التاريخ من جراء التهمة الموجهة اليه من هذه الجهة قادراً على التملص منها بمجمله مصالحة مرتبطة كل الارتباط بمصلحة الامن العام والضرورة التي لا يلقي له بدأ عنها لضربه تلك الضربة القاضية ولكن اذا لم يكن الدوق دنغان قد اقتصر على مناهضة الجمهورية كجندي ،

وارتضى بمخالفة أشخاص لا يجمعون عن الفتك بالقنصل الاول ليتسنى لهم هدم
الانظمة الجديدة واستعباد البلاد ، فلا يكون ذلك الشاب معتبراً سليلاً لبطل
ركروى بل يعد قريناً لجورج وبيشغرو

وقال نابوليون في وصيته . « ألقيت القبض على الدوق دنغان واستصدرت
الحكم عليه بالموت لان ذلك كان ضرورياً لامن الشعب الفرنسي ومصلحته
وشرفه . وهب كان الكونت درتوي يتولى مختاراً العلاقات بشتين سفاحاً في باريس
في مثل هذه الحال لكنك عاملته بهذه المعاملة عينها » . وقال في موضع آخر .
« لو لم تكن شرائع البلاد موالية لي على الدوق دنغان لبعيت لي حقوق الناموس
الطبيعي وهي حقوق الدفاع الشرعي . فلم يكن همه وهم ذويه في كل يوم الا
نزع الحياة مني . وكانوا في كل يوم يهاجموني ابتغاء اغتيالني ببنادق هوائية
والآلات جهنمية ومكايد ودسائس مختلفة . فتبرمت من هذه الحال واستغنمت
الفرصة لقذف الذعر عليهم حتى في لندرة نفسها وقد أدركت غايتي . . . فمن
يستطيع انكار هذا الامر علي ؟ فالدم يطلب الدم . ويكون مغفلاً أو خالياً من
الشعور كل من يعتقد انه لا يحق لي أن أقابل بالمثل اسرة تسالج في كل يوم
الابتناع بي . . . وأنا لم آت شيئاً منكراً بحق أحد من أفرادها . فالامنة العظيمة
ألقت الي بمقاليد السيادة عليها ، واستصوب رأيا جميع أوروبا على التقريب ،
وفضلاً عن ذلك تساوي قيمة دمي قيمة دمهم . »

أجل ان دم ذلك الرجل العظيم الذي كانت أوروبا معجبة به كل الاعجاب .
وكانت فرنسا معلقة عليه كل هوائها وراحتها لم تكن قيمته الحقيقية تقل عن
قيمة دم الامراء الذين كانوا يحاولون القاء البلابل والقلقل في فرنسا وأوروبا
طمعاً باستعادة سلطة انزعمتا منهم العناية بصوت الشعب وأسندتها الى ربيب
الدناء وحليف الحنكة . ومن لا يعلم ان دم الابطال الذين لا يظلمهم شرف الاصل
والفصل لا قيمة له للسلائل الملكية والارستقراطيين الملتفين حولها ؟ ومن
لا يعلم ان الاشخاص أنفسهم الذين يظهرون ان قلوبهم ترق وان صدورهم تضيق
عند رؤيتهم أبناء الشرف التليد يسقطون عن منصات مجدهم ، ويهوون أمام
الارتجاع السياسي يرقصون فيما بعد على مثال البربر في جوار النطع حين تصيب
القذيفة القاتلة أولئك الابطال ذواتهم ؟ أسألوا شعب ذلك المارشال المنكود

الطالع الذي لم يكن سليل الابطال بل بطل الابطال ، ولم يلطخ هذا اللقب بالوصمة التي يجرها اليه اشتراكه مع السفاحين الاوغاد والقنلة الاوشاب وحين يكون المرء من الالى تهب في صدورهم نسائم عواطف الانسانية والمروءة يشعر بما يلم بغيره من الألم والعبء فيعطف ذارفاً العبرات على المهج الشريفة التي تبذل والدماء الكريمة التي تراق في أثناء اضطرام نيران الفتن وانفتاح أبواب الثورات من غير تمييز بين الاحزاب وحين يكون الفرنسي فرانسويًا قلباً وقالباً يكون شديد الاستمساك بغرز شرف بلاده وكثير الحرص على كرامتها ومجدها ، ويكتئب متردياً بملابس الحداد حين يلقي ذاته متمرساً بالاسباب السياسية ، ولا سيما حين لا تكون هذه الاسباب مستطبعة أن تحترم الشهرة البعيدة التي أصيبت في أوسترليز ومارنغو ، كما كانت تدون في سجلاتها الدموية الاسماء التي نالت الشهرة في فنتنوي وركروى .

وزعم بعضهم أن بونايرت كان مدفوعاً الى القضاء على الدوق دنفان بداعي الرغبة والضرورة ليضمن عدم رجوع سلالة البوربون لغلاة اليعقوبيين الملتفين حوله والممهدين في وجهه سبيل الوصول الى العرش . على أن هذا الزعم الذي كذبه تصرف بونايرت وأنكرته أقواله لم يكن عليه غبار من الصحة ، هذا مع صرفنا النظر عن اطلاق القنابل في سان روكز وابعاد الكليشين . فقد كان ثمة عقبات يصعب تمهيدها ومصاعب يعز تذييلها تفوق ذكرى ١٣ فنديميار و ١٨ فركتيدور تحول بين القنصل الاول والحزب الملكي وتجعل التقريب بينهما مستحيلاً . وكان غيره قد اشتدت الملائق بينه وبين السلالة المالكة القديمة أكثر من اشتدادها بينه وبينها كقوشه وتاليران ومن جرى مجراها . ومع ذلك لم يمنعها ذلك الامر عن الانتظام فيما بعد في سلك الحكومة عند عودة الملك لويس الثامن عشر الى فرنسا وجلسه على سرير المملكة . ومما يبين تقاهة الضمان الفظيع الذي يزعمون أنهم طلبوه منه ويظهر بكل جلاء عدم فائدته هو انه أفصح عما كان يبتغيه وعما كان يستطيعه وكان الجميع يدرون أن اتفاق بونايرت مع البوربون يقضي عليه بأن يغير خاة طبيعته ويهجر الحظ المكتوب له وينسى موقفه ويذهل عن موقف فرنسا وينبذ في وقت واحد ماضيه ومستقبله ، وقصارى الكلام أن يظل محافظاً على كرامة ذاته وقال نابوليون

وهو في جزيرة القديسة هيلانة . « لم أفكر قط بالامراء وهب كنت ميالا الى مناصرتهم فان اجراء هذا الامر لم يكن في ذرعي . وما عدا ذلك استفاض بين الناس اني اقترحت عليهم أن يتنازلوا عن حقوقهم كما أذيع في أوروبا ، مع أن هذا الامر لم يقع قط . وكيف يمكن أن يقع ، بل هذا الامر ؟ فأنا لا أستطيع التربع في منصة الملك إلا باستنادي الى المبدأ القاضي بإبعادهم وهو مبدأ السياسة الشعبية الذي جال ولا مرأ في ذلك المهد في أذهان الاشخاص الراجحي الحصة الواسعي المدارك الذين لم يكونوا يهتمونني بالحقا ولا بالبلاهة . »

إلا أن المتآمرين الذين بغوا ترميم ما تداعى من عرش البوربون بفتكهم بالقنصل الاول ، كانوا والحق يقال من أكبر المساعدين على ارجاع الملكية ، وإنما لم تأت الفتنة مؤاتية لمصلحة الشخص الذي كانوا يطعمون باجلاسه على عرش المملكة ، وقد شاهدوا من خصاص أبواب سجنهم أنهم ضفروا اكليلا للشخص الذي توخوا الايقاع به .



جدول أسماء الاعلام في الجزء الاول

لما كانت ترجمة بعض أسماء الاعلام من اللغة الفرنسية الى اللغة العربية تبعث في بعض الاحيان على الابهام والالتباس رأينا أن نضع جدولاً لأسماء الاعلام التي يحتوي عليها تاريخ نابوليون الاول وقد اتبعنا الترتيب فيها بحسب الحروف الهجائية العربية

— | —

Atlantique	أطلسي	Les Apennins	الابنين
L'Atlas	الاطلس	Apollon du Belvédère	ابولون بلفيدير
Platon	افلاطون	Etrurie	أتروريا
Avignon	افينيون	Attique	الاتيكا
Clément	أكلينمنضوس	Attila	أتيللا
Albenga	البنغا	Athènes	أثينا
Albitte	ألبيت	Ajaccio	أجاكسيو
Les Pyramides	الاهرام	Ton Achille	أخيلك
Alfred	الفرد	Adige	أديج
Alexandre	الاسكندر	Arras	اراس
Cisalpine	ماوراء الالب	L'Aristocratie	الارسطقراطية
Les Grecs	الاغارقة	Aristote	أرسطو
L'Escaut	الاسكو	Arcole	أركول
L'Académie	الاكاديميا	Irlande	ارلندا
Les Alpes	الالب	Armand Carrel	أرمان كارل
L'Ilyade	الالياذة	Arena	أرينا
L'Isonzo	الايوزو	La mythologie	أساطير الأولين
Elleviou	اليفيو	Ascagne	اسكانية
Amiens	اميان	Isnard	استنار

— ٢٢٨ —

Aoste	أوستي	Andréossy	اندريوسي
Ossian	أوسيان	Anghiary	انغياري
Auguste César	اوغسطس قيصر	Aubry	أوبري
Augustin	أوغسطينوس	Eugène de Beauharnais	أوجين دي بومارنيه
O'Méara	أوميرا	Augereau	أوجرو
Aune	أون	Orléans	أورليان
Olmütz	أولمتز	Osopo	أوزوبو
Oneille	أوناييل	Oriani	أورياني
Jérôme	أيرونيموس	Austerlitz	أوسترتز

— ب —

Périclès	بريكلس	Burras	باراس
Les Parthes	البريتون	Bard	بارد
Les Pyrénées	البرنات	Baraguay d'Hilliers	باراغواي ديليه
Brienne	بريان	Parme	بارما
Berton	برتون	Bassano	باسانو
La Provence	البرفانس	Basseville	باسفيل
Berlier	برليه	Bâle	بال
La Bocchetta	البختا	Pavie	بافيا
Barthélemy	برتلمي	Bacon	باكون
Provera	بروفيرا	Pallas de Velletri	بالاس فلييري
Bavière	بافاريا	Paoli	باولي
Bade	بادن	Bayle	بايل
Pizzighitone	بزيغيتون	Thomas Payne	توما باين
Brescia	بريسيا	Pitt	بت
Borgo Forte	برغوفرتي	Béranger	برانجه

Venise	البندقية	Berthier	برتيه
Benzette	بنزيت	Brumaire	برومار
Bellecour	بلكور	La Brenta	البرنتا
Bender	بندر	L'Adriatique	بحر ادريا
La Belgique	بلجيكا	Bergame	برغام
Panteba	بنتيبيا	Brueix	برويكس
Le Panthéon	البنطليون	Les Bourguignons	البرغونيون
Boudet	بوده	Bernadotte	برنادوت
Boileau	بوالو	Birket	البركة
Bourbon	بوربون	Bernard	برنارد
Le Pô	البو	Le Bourbonnais	البربونه
Beaulieu	بوليو	Brunswick	برنسويك
Beaumont	بومون	Prairial	براريا
Boissy d'Anglas	بواسي دانغلا	Beurnonville	برنونفيل
Le Bosphore	البوسفور	Grande Bretagne	بريطانيا العظمى
Bonaparte	بونابرت	Junius Brutus	بونيوس بروتوس
Pontécoulant	بونتيكولان	Saint-Bernard	القديس برنارد
Boulogne	بولون	La Bormida	البرميديا
De Bourienne	دي بوريان	Brune	برون
Byron	بيرون	Burke	برك
Pichegru	بيشغرو	La Bastille	البستيل
Piemontais	البيامنتية	Peschiera	بشيارا
Bicoque	بيكوك	Le Prytanée	البريطانه
Pigeon	بيجون	Balzac	بلزاق
Porto-Legnago	بور توليناغو	Plutarque	بلوطرخوس
Bonifacio	بونيفاسيو	Palma-Nova	بالمانوفا
Bologne	بولونيه	Bellune	بلوني

- ٢٣٠ -

Bon	بون	Pie V.	بيوس السادس
Péluse	بيلوز	La Piave	البيافي
Bureau de Puzy	بورودي بوزي	Bottot	بوتو
Pise	بيزه	Polybe	بوليبس
Bigonet	بيغونه	Pérée	بيره

- ت -

Le Tagliamento	التغليامنتو	Talleyrand	تاليران
Toussaint Louverture	توسان لوفرتور	La Tamise	التاميز
Thucydide	توسيديد	Transpadane	الترانسبادانية
Les Tuileries	التويلري	Tarquin	تركينوس
Thiers	تيارس	Thermidor	ترميدور
Tite-Live	تيت ليف	Treilhard	تريلهار
Tésin	تينين	Trente	توني
Times	التيمس	La Toscane	تسكانيا

- ج -

Genève	جنيف	Gibraltar	جبل طارق
Joux	جو	Jersey	جرسي
Joubert	جوبير	Les Germains	الجرمانيون
Judenberg	جودنبورغ	Germinal	جرمينال
Géorgie	جورجيا	Les Jansénistes	الجانسينيست
Joséphine	جوزفين	Gènes	جنوى
Junot	جونو	Ginguéné	جنگنه

— ۲۳۱ —

— ح —

Annibal

حنیبعل

— د —

Dugommier	دوغومیه	Darius	دارا
Dommartin	دومارتین	Dégo	داغو
Duvivier	دوفیفیه	D'alvinzi	دالفنزی
Domairon	دومارون	Damerville	دامرفیل
Dumebion	دومربیون	Davidowich	داویداش
Dumolard	دومولار	Dezenzano	دزنزانو
Saint-Domingue	سان دومنک	La Drave	الدراف
Daunou	دونو	Destaing	دستان
D'Artois	درتوی	Destrem	دستریم
Due Castelli	دوی کستلی	Delbrel	دلبرل
Digeon	دیجون	D'Antraigues	دنترایغ
Dijon	دیجون	Dandolo	دندولو
Directoire	دیرکتوار	Le Duc d'Enghien	الدوق دنغان
Desaix	دیزه	Doire	دوار
Descartes	دیکارت	Douai	دوای
Démocratie	دیموکراسیه	Dupuis	دوبوی
Delta	دلتا	Dutheil	دوتایل
		Duroc	دوروق

— ر —

Rampon	رامبون	Rastadt	راستادت
Rey	رای	Racine	راسین

— ٢٣٢ —

Revel	ريفل	Rahmanieh	الرحمانية
Rivoli	ريفولي	Roër	روار
Ricord	ريكور	Robespierre	روبسبيار
Le Rhin	الرين	Robert	روبير
Rhin-et-Moselle	رين وموزل	Rousseau	روسو
Raynal	رينال	Russie	روسيا
Reynier	رينيه	Rochembeau	روشمبو
Regnault de Saint Jean d'Angély	رينيو دي سان جان د'انجلي	Roverbello	روفربلو
		Roveredo	روفيريدو
Rocroy	روكروى	Romagne	رومانيه
Saint-Roch	مار روكز	Réal	ريال
		La Revanche	الريفانش

— ز —

Vénus de Médicis	زهرة مديسيس	Zach	زاخ
		Zayonschek	زايونشيك

— س —

Septembriseurs	سبتمبرين	Le Sage	الساج
Stagyrite	ستاجيريت	Sambre-et-Meuse	سامبر وموز
Stura	ستورا	Saint-Aubin	سان أوبان
Sidney-Smith	سدني سميث	Saint-Régent	سان ريجان
Serravalle	سرافالي	Saint-Cloud	سان كلود
Sardaigue	سردينيا	Saint-Marco	سان ماركو
Sarka	سركا	Salicetti	ساليستي
Serrurier	سروريه	Saorgio	ساورجيو

— ٢٢٣ —

Sund	السند	Sésostris	سزوستريس
Sucy	سوسي	Sésia	سزيا
Suez	السويس	Scarpa	سكاربا
La Suisse	سويسرا	Skal	سكال
Siera	السيارا	Seanello	سكانلو
Sieyès	سياس	Cécrops	سكرويس
Saint-Cyr	سان سير	Solferino	سلفرينو
Ceva	سيفا	Sulkowvsky	سلكوفسكى
Simmering	سيمرنغ	Salmatoris	سلما توريدس
La Seine	السين	Simplon	سمبلون

— ش —

Championnet	شمبيونه	Chabillant	شاريليان
Schorbadgis	الشوربجيجة	De Chateaubriand	دي شاتوبريان
Ceracchi	شيراخي	Charles Bonaparte	شارل بوناپرت
Schérer	شيرار	Charles le Téméraire	شارل الجريء
Chérasque	شيرا سك	Charlemagne	شارلمان
Cicérone	شيشرون	Charlot	شارلوت
Chénier	شينيه	Chabran	شبران
		Champaux	شمبو

— ص —

Saladin	صلاح الدين	Salo	صالو
Sophocle	صوفوكل	Sicile	صقلية

— ط —

Talot	طالوت	Le Tasse	الطاس
Tanaro	طانارو	Tacite	طاسيت

— ٢٣٤ —

Mont-Sinaï	طورسینا	Traminis	طرامنس
Torre di Garofalo	طوري دي	Tarvis	طرفیس
	غارو فالو	Tortone	طرطون
Turin	طورینو	Tronçon	طرنبون دوکودرای
Tolentino	طولنتینو	Ducoudray	
Toulon	طولون	Turreau	طرو
Thèbes	طیبة	Truguet	طروغه
Thibaudeau	طیبودو	Tênde	طند
Tippo-Saïb	طیبو صایب	Topino Lebrun	طوبینو لبرون
Tyrol	طیرول	Turenne	طوران
		Taurus	طورس

— ع —

L'Ottoman	العثماني	El-Arish	العریش
-----------	----------	----------	--------

— غ —

Gardanne	گردان	Garat	غارات
Gasparin	غسباران	La Guarda	الغاردا
Grosbois	غروبوی	Gavardo	غافاردو
Glagenfurt	غلا جنفرت	Gavi	غافي
Gantheaume	غنتموم	Gallo	غالو
Goëthe	غو طي	La Gaule	غالیا
Governalo	غوفر نالو	Les Gaulois	الغالیون
Gohier	غو هیه	Gradisca	غرادسکا
Guyeux	غویو	Grésieux	غرازیو
Guizot	غیزو	Les Gracques	الغراک
Guieux	غیو	Grenville	غرانفیل

— ٢٣٥ —

— ف —

Voltaire	فلتير	La Favorite	الفافوريت
Floréal	فلوريال	Valence	فالنسة
Fontainebleau	فونتنبلو	Le valais	الفالة
Vendémiaire	فنديمار	Ferrare	فراري
Vendée	فنده	Franchet d'Es- pèrey	فرانشه دسبره
Vendôme	فندوم	La Fortune	الفرتون
Fontenoy	فنتينوي	Saint-Fargeau	سان فرجو
Vincennes	فنسن	Verdière	فرديار
Fénelon	فنون	Pharsal	فرسال
Vaubois	فوبوي	Versailles	فرسايل
Fugières	فوجيار	Fructidor	فركتيدور
Fouché	فوشه	François de Neulâteau	فرانسوي دي
De Fontanes	دي فونتان		فوشاتو
Vial	فيال	Francfort	فرنكفورت
Le Vêda	الفيدا	Franklin	فرنكلين
Ver	فير	Frontin	فرونطين
Virgile	فيرجيل	Victor	فيكتور
Vérone	فبرونا	Fréjus	فريجوس
Villach	فيلاخ	Victor Hugo	فيكتور هوغو
Vienne	فيينا	Fox	فكس
De Vigny	دي فينيه	Volta	فلتا
Fiorella	فيورلا	Feltre	فلتري
		Les Voltairiens	الفلتاريون

— ق —

Cyus	قورش	Ghypre	قبرس
Gosaque	قوزاقية	Carthage	قرطاجة
Cesar	قيصر	Caucase	القوقاس

— ۲۳۶ —

— ك —

Clichy	كليشي	Catherine	كاترين
Les Clychiens	الكليشيون	Cadore	كادوري
Klenau	كلينو	Cartaux	كارتو
Cambacèrès	كمباساريس	Carnot	كارنو
Campo-Formio	كمبيو فرميو	Carrère	كاريير
Compiègne	كمبيانيه	Cassius	كاسيوس
Condé	كنديه	Cafarelli Dufalga	كافارلي دوفالجا
Benjamin Constant	بنيامين كنفستان	Calédonie	كاليدونيا
Convention	كنفسيون	Camus	كاموس
De Cobentzel	دي كوبنتزل	Carbon	كربون
Corse	كورسيكا	Corvisart	كرفيزارت
La Corona	الكورونا	Cromwell	كرومول
Corneille	كورنيل	Croisier	كروازيه
Le Corrège	الكوريج	Garinthie	كرنتي
Quosnadowitch	كوز نادوتش	Candie	كريت
Covolo	كوفولو	Crémone	كريمونا
Du Colombier	دي كولومبييه	Castel-Ceriolo	كستل شيريولو
Concordat	كونكوردات	Castiglione	كستليونيه
Colli	كولي	Clarke	كلارك
Coni	كوني	Caldero	كلدرو
Les Quakers	الكويكرس	Kellermann	كليرمان
La Chiesa	الكيزا	Klingen	كلنغلين
De Kéralio	دي كيراليو	Kléber	كليبر
		Clausen	كلوزن

Lambrechts	لمبرخت	Laporte	لابورت
Lanjuinais	لنجومينه	La Tour d'Auvergne	لاتور دوفرنيه
Lenoir-Loroche	لنوار لاروش	Latour-Maubourg	لاتور موبورغ
Le Louvre	اللوفر	Loetitia Ramolino	لا تيسيارامولينو
Lampédouze	لمبدوز	Larrey	لاري
De L'Aiguille	دي لغويل	Lareveillère-Lé-pauz	لاريفليار ليبو
La Louisiane	اللويزيانا	La Sarre	لاسار
Londres	لندرة	De Las Cases	دي لاس كاس
Lusignan	لوزيفيان	Lasalle	لاسال
Lorient	لوريان	Lagrange	لاغرانج
Lucrece	لوكريس	Lavallette	لافاليت
Lucien	لوسيان	La Fayette	لافايت
Lonado	لونادو	Lavis	لافيس
Leclerc	لكلكرك	Lamartine	لامارتين
Lunéville	لونا فيل	Lamennais	لامنه
Lauriston	لوريستين	Lannes	لان
Louis Blanc	لويس بلان	Lanusse	لانوس
Louis XIV	لويس الرابع عشر	La Fontaine	لافتان
Lodi	لودي	Pelet de la Lozère	بيله دي لالوزير
Letourneur	ليتورنور	Labarpe	لاهارب
Legnago	لينيغوا	Lehrun	لبرون
Lyon	ليون	Lepelletier	لبلتيه
Ligurienne	ليغورية	Luxembourg	اللكسمبور
Livourne	ليفورنو	La Loire	اللووار
Léoben	ليوبن	Lycée	الليس
Lefèvre	ليففر	Les Légations	الليغاسيون
La Fère	لا فير	Lombardie	لمبارديا
		Lenglet	لنغله



٢ — General Organization of the Alexandria Library (GOAL)

Organisation Générale

Memphis	ممف	Mattei	ماتاي
Montagna	منتانا	De Marbeuf	دي ماربوف
Montesquieu	منتسكيو	Marengo	مارنفو
Montesquiou	منتسكيو	Marius	ماريوس
Montebello	منتبلو	Masséna	ماسينا
De Montalivet	دي منتاليفه	Mackintosh	ما كنتش
Montebaldo	منتيبالدو	Malte	مالطة
Montezemoto	منتيزيموتو	La Malmaison	الماليزون
Montenotte	منتينوت	Mantoue	مانطو
Mondovi	مندوفي	La Hongrie	الحجر
Le Mincio	المنشيو	Corps Législatif	مجلس اشتراعي
Mandieh	المهديه	Moka	مخا
Murat	مورات	Madrid	مدريد
Moreau	مورو	Martigny	مرتيني
La Meuse	الموز	Marscille	مرسيليا
Moulins	مولان	Marc	مرقس
Molière	موليار	Marcario	مركاريو
Montaigne	مونتاينه	Merlin	مراين
Le Moniteur	المونيطور	Marmontel	مرمنتل
La Muer	الموه	Marmont	مرمون
Muireur	مويرور	Mascate	مسقط
Muiron	مويرون	Messidor	مسيدور
Monnier	مونيه	Jupiter	المشتري
Mont-Tonnerre	مون طونير	Macédoine	مقدونية
Mirabeau	ميرابو	Melzi	ملزي
Mélas	ميلاس	Millésima	مليسيه

— ٢٣٩ —

Ménard	مينار	De Maistre	دي ميستر
Michel-Ange	ميكال انجلو	Menau	مينو
		Milan	ميلانو

— ن —

Noriques	النورية	Naples	نابولي
Novi	نوفي	Napoléon	نابوليون
Nice	نيس	De Narbonne Pelre	دي ناربون بيليز
Nivernais	نيفرله	Nantes	نانت
Nivôse	نيفوز	Nelson	نلسن
Newton	نيوتن	Austro-Sarde	النسوي السرديني
Saint-Nicaise	القديس نيكاز	Notre-Dame	نوتردام
Meuwmarm	نيومارك	L'Autriche	النمسا

— ه —

Horace	هوراس	Hatri	هاتري
Hortense	هورتنس	Harrel	هارل
Hoche	هوش	Harold	هارلد
Hugues	هوغ	Hanovre	هانوفر
Homère	هوميروس	Herdendy	هردندي
Hohenlinden	هوهنلندن	Hercule	هرقل
Geoffroy Saint- Hilaire	جفروي سان هيلار	Hundmark	هندمارك
Hildebrand	هيلدبرندس	Henri Heine	هنري هيني

— ٢٤٠ —

— و —

Washington

وشنطون

Wurmser

ورمسر

— ي —

Juliennes

اليوليائية

Jacobins

يعقوبيون

Saint-Julien

القديس يوليائس



فهرست الجزء الاول

صفحة	
١	كلمة المؤلف .
٥	تمهيد .
٩	المقدمة .
١٣	الفصل الاول — في أصل نابوليون وحداثته .
١٨	الفصل الثاني — من دخول نابوليون بونابرت الجندية حتى حصار طولون .
	الفصل الثالث — حصار طولون وفتحها — ابتداء حروب إيطاليا —
٢٢	العزل .
٢٩	الفصل الرابع — الاستقالة — ١٣ فنديميار — جوزفين — الزواج
٣٤	الفصل الخامس — حرب إيطاليا الاولى .
	الفصل السادس — السفر الى راستادت — العودة الى باريس — السفر
٧٧	الى مصر .
٨٧	الفصل السابع — فتح مصر .
	الفصل الثامن — نكبة أبي قير — انشاءات بونابرت في مصر — حرب
	سورية — الرجوع الى مصر — معركة أبي قير —
٩٩	العودة الى فرنسا .
١١٢	الفصل التاسع — العودة الى فرنسا — ١٨ برومير .
١٢٤	الفصل العاشر — انشاء الحكومة القنصلية .
	الفصل الحادي عشر — في نقل مركز القنصلية الى التويلري — حرب
١٣٨	إيطاليا الجديدة — معركة مارنغو .
	الفصل الثاني عشر — انشاء مجلس شورى الدولة — مؤتمر لونا فيل —
	عيد تأسيس الجمهورية — الدسيمة الجمهورية —
١٥٠	المكيدة الملكية — الاداة الجهنمية .
	الفصل الثالث عشر — انشاء محاكم استثنائية — الاشغال العامة — وثيقة

صفحة

- لونا فيل - تقدم العلوم والصناعة - عقد الصلح
مع اسبانيا و نابولي وبارما - عقد وثيقة مع البابا
(كونكردا) - صلح اميان - صلاة الشكر في
١٥٤ نوتردام .
- الفصل الرابع عشر - من محادثة اميان (٢٥ مارس سنة ١٨٠٢) حتى
انقطاع علاقات فرنسا مع بريطانيا (٢٢ مايو
١٦٣ سنة ١٨٠٣) .
- الفصل الخامس عشر - انقطاع العلاقات بين فرنسا وبريطانيا - رحلة
بونابرت الى بلجيكا وعلى الشواطىء البحرية -
مكيدة بشغزو وجورج - موت الدوق دنفان -
١٧٤ نهاية القنصلية .
- ١٨٧ جدول أسماء الاعلام التي في الجزء الاول .

